أبو بكر البوخصيبي

أضواء

على

ابن تجبش التازي

جائزة المغرب الثانية
لعام 1972

توزيع
دار الثقافة
ص. ب. 4038 الدار البيضاء

أبو بكر البوخصيبي

أضواء
على
ابن تجبش التازي

جائزة المغرب الثانية
لعام 1972

الطبعة الاولى 1976

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

تاريخ المغرب لا يشكو من فقر ولا قلة اهتمام ، فقد اولاه سلفنا كل عناية ، ولم يخل اى عصر من مؤرخ او عدة مؤرخين يسجلون احداثه ، ويخلدون تراجم اعلامه سواء فى ميدان السياسة او العلم او الادب ، بل ان كثيرا من الشخصيات التى لم يكن لها صفة من هذا القبيل ، الا ان الناس ينعتونها بالتقوى والصلاح ، قد عنى بها الكتاب والمترجمون وذكروها فى كتبهم بغايــة التنويــه والاحتفــال ، ومنهم من افــردوا بالتاليف فى حياتهم وخصــوا بالذكــر دون غيــرهــم

واذا استعرضنا المؤلفات التاريخية التى وضعها المغاربة ، نجد منها ما هو عام يتناول تاريخ المغرب السياسى والادبى ، ومنها ما هو خاص بدولة من دوله المعروفة ، ومنها ما يعتنى بالتراجم على العموم ، كتراجم الملوك والقادة والعلماء والمشايخ واهل الفضل مــن مختلف طبقات الناس ، ومنها ما يختص بتراجم طبقة معينة كالصوفية والفقهاء والادبــاء وغيرهم ، ومنها ما يؤرخ للمدن والقبائل والانساب والبيوتات ، ومنها مالا يهتم الا بحادثة معينة وواقعة مخصوصة ، ويدخل فى ذلك الرحلات على اختلاف انواعها واتجاهاتها ، الى مــا يطول احصاؤه ويتشعب تصنيفه

فنحـــن نـــرى ان ليـــس بتـــاريـــخ المغـــرب مـــن خصـــائصـــه ولا مـــا يدعو الى الشكوى من اهمال ابنائه له ، ولكن الذى يشكو تاريخنا منه الان ، امران اثنان احدهما لا يد لنا فيه ، وهو ضياع الكثير من المؤلفات التاريخية الموضوعة فى الاغراض التى اشرنا اليها كلا او بعضا ، كالتاليف الخاصة ببعض المدن ، او بعض الدول او بعض الحوادث ، والتاليف المخصوصة بتاريخ المغرب القديم واصول سكانه التى استقى منها ابن خلدون ، وبقى بعضهــا الى قــريب مــن عهدنــا هذا بحيث وقف عليهــا ابــو القــاسم الــزيـــانـــى فيمـــا يقـــول

والثانى هو الدراسة المنهجية ، التى تستفيد من هذه الاثار وتصنفها وتاخذ منهــا ما يستدل به على حقيقة الامر ، ويجلى الغموض الذى يعتور الكثير من الفترات التاريخية ، سيما مع الاستعانة بالوثائق الاخرى كالظهائر السلطانية ، والرسائل الرسمية ، والكشوف الحسابية ، والقوائم الاحصائية ، والضرائبية ، والنوازل والفتاوى الشرعية ، بالاضافة

الى المعاهدات والاتفاقات السياسية والاقتصادية ، على النطاق الدولي ، وكتابات الاجانب في هذا الصدد وفي تاريخ المغرب وحوادثه وعلائقه الخارجية بعامة

واننا في هذا المجال لم نفعل شيئا على الاطلاق ، وما يزال موضوع الدراسة التاريخية عندنا بكرا لم يحم حوله احد ، واترك الكلام على الدراسة والبحث مما تكتنفه الصعوبات ، ويحتاج الى مؤهلات عديدة ، والتفت الى موضوع الترجمة فقط للمصادر الاجنبية التي تتناول تاريخنا من جميع جوانبه ، ولا سيما التاريخ الحديث ، فاتساءل ما فعل نحو مليون ونصف من الذين تعلموا بالفرنسية عندنا في هذا الصدد ؟ هل تعلموا الفرنسية ليتكلموا بها كان المغرب ليس له لغة وطنية ؟ ان عشرات الكتب الفرنسية التي وضعت عن القضية المغربية في الاونة الاخيرة ، تنتظر من ينقلها الى العربية ، فماذا يعمل المتحذلقون بلغة اناتول فرانس ؟ في الشرق العربي لا يصدر كتاب بالفرنسية او الانجليزية او غيرهما عن قضية من قضايا العرب ، الا ويترجم حالا ، وربما نشر قبل وصوله اليهم بلغته الاصلية ، ويستفيد المترجم والناشر العربيان ماديا بدل الكاتب والناشر الاجنبيان ، فضلا عن تنوير القارىء العربي واطلاعه على ما يقال عن بلاده وقضاياه الوطنية ولكننا في المغرب ما نزال لم نترجم شيئا من الكتب التي الفت باللغات الاجنبية عن فرض الحماية وما قبلها وما بعدها ، الى حادثة الصخيرات وهلم جرا

هذا تلميح فقط الى ما يشكو منه تاريخنا القومي ، مما علينا ان نقوم به وننهض بعبئه ونكف عن التذمر واتهام الغير بالتقصير ، في حين ان هذا الغير لا يالو جهدا في نطاق استعداده عن تقديم ما تصل اليه يده وتستوعبه طاقته من اعمال ومنجزات لا يستهان بها ، وهنا اذكر احد السادة ممن حصلوا قديما على قدر لا باس به من الثقافة المزدوجة ، ويسهم ببعض الكتابات الصحفية من آن لآخر ، ومن موضوعاته المكررة التي لا يمل منها منذ اربعين سنة ، موضوع كتابة تاريخ المغرب ، وانه لم يهتم به ، بل لم يفكر فيه احد الى الان ، ويقترح بل يشترط لذلك شروطا اهمها الاطلاع على ما كتبه الاجانب في هذا المضمار ، فكنت كلما قرات كلامه هذا انشد قول الشاعر

لابي بكر كلام واحد لا يتعدى
لا يرى من وصفه البستان في البصرة بدا

واقول في نفسي ، ولماذا لا يبدا هو ، فينقل على الاقل ، بعض كتب الاجانب التي يعرفها الى العربية ويسهم بذلك في كتابة تاريخ المغرب ؟

الحقيقية ان الكسل الفكري داء استشرى في طائفة من الشباب والمثقفين الكهول والشيوخ،

فلا ينتظر منهم الا الانتقاد واملاء الراى من اعلى ، فلنصرف النظر عنهم الى من براهم الاختبار من هذا الداء ، وهم زمرة قليلة من العاملين المجدين المنتجين الناجحين

ان من هؤلاء الاستاذ الباحث المتمكن السيد أبا بكر البوخصيبى ، الذى لم يشغله عمله فى التفتيش بوزارة التعليم ، عن الاسهام بنصيبه فى الدراسات التاريخية والادبية بهمة ونشاط، واتحافنا بنتيجة اجتهاده وزبدة انتاجه وها هو ذا باكورة عمله يطالعنا به فى كتابه (اضواء على ابن يجبش التازى) ، انه ترجمة لهذه الشخصية المغمورة ، تكاد تكون كاملة ، اخرجها الكاتب من العدم ، واستعمل فيها مؤهلاته العديدة ، من ثقافة ادبية اصيلة ، ونظر مقارن موقف ، وفكر متمعن غواص ، فاخضع لها هذه المعلومات القليلة المنتشرة هنا وهناك ، عن شخصيته المدروسة ، وسوى منها ترجمة هذا العالم الجليل ، التى كان يكتنفها غير قليل من الغموض ، واصبحت بجده المشكور ، واضحة المعالم ، مجلوة على منصة التعريف ، ومع ذلك فقد سمى كتابه هذا (اضواء علــى ابــن يجبش) ، وكنت اود لــو سمــاه اضواء على حيــاة ابــن يجبش !

ومن تحقيقاته فيه ، انه ضبط اسم مترجمه الذى تخبط فيه الكتاب والمترجمون له مدى خمسة قرون ، فهو عند الشيخ احمد بابا ابن بحبش ، بباء موحدة ، فحاء مهملة ، وباء ثانية ، وهو عند ابن عسكر يحبش بياء مثناة ، فحاء مهملة ، فباء ، سواء فى النسخة المطبوعة او فى مخطوطة عندنا مظنون بها الصحة ، لانها مرت بيد غير واحد من العلماء ، وكذا هو ايضا عند ابن القاضى فى الدرة ، والناصرى فى الاستقصا ، ودع عنك المحدثين والمعاصرين من الكتاب ، فى حين ان ما حققه المؤلف مستندا الى وثائق خطية من بلد المترجم ، فيها ظهائر ملوكية وغيرها ، هو انه (ابن يجبش) بجيم مشددة مفتوحة ، بين ياء مثناة وباء موحدة ، وقد كنت رايته هكذا اى بجيم من غير ضبط فى احد التقاييد ، فظننته تصحيفا نظرا لتمالىء المصادر على جعله بالحاء المهملة ، واذا التصحيف فى هذه المصادر لا فى ذلك التقييد

والى جانب آثار المترجم الادبية ، كمعارضته لمنفرجة ابن النحوى مع تحليلها والموازنة بينها وبين هذه ، اثبت المؤلف فى كتابه تاليف ابن يجبش فى الجهاد والحظ عليه بنصه الكامل ، وقارن بينه وبين كتابى ابن الخطيب ، وابن عاصم فى الموضوع ، مقارنة لم يحد فيها عن الصواب من ترجيح كتاب ابن يجبش مضمونا وتفوق كتابى ابن الخطيب وابن عاصم عليه شكلا ، وهذا أمر لا ريب فيه ، فابن يجبش مع تعاطيه للكتابة ونظمه للشعر لم يكن يصدر عن طبع ادبى مرهف كصاحبيه ، وهذا ما اكده المؤلف ونوافقه عليه ، وان كان فى بعض الاحيان ينساه فيبالغ فى تقرير كلامه بما لا يوجد فيه ، لحد انه تمنى لو احرق المسجد الاقصى قديما اوتاخر عهد ابن يجبش الى حين احراقه ، ليكون قوله فيه ابلغ .

والاحظ على المؤلف كتابته (من ما) بغير الاصطلاح المعمول به وهو الادغام ، وقوله في كتاب المقتبس (1) ، في اخبار المغرب وفاس والاندلس (بفتح اللام) ، فان ذلك لا يصح ، وتخالف السجعتين في اسماء الكتب معهود كثيرا على أن ضبط المؤلف لكثير من الالفاظ وحسه الرقيق بانكسار الوزن في الشعر ، يجعل مثل هذه الهنوات من نوادر الهفوات ، التـــي قلما يخلص منها مؤلف ، أو لا تمر على مصنف ، واني اهنيه بكتابه هذا ، بل اهنىء المكتبة المغربية بظفرها بهذا الاثر النفيس ، والباحثين المغاربة بباحث من هذا الطراز ، ينضم الى صفوفهم ، ويعزز جهودهم في نفض الغبار عن مآثر الاجداد ، ومفاخر البلاد ، واسأل الله ان يديم له التوفيق والسداد

طنجة في 16 شعبان 1394

عبد الله كنون

(1) المقتبس (بفتح اللام) انظر دليل مؤرخ المغرب ج 1 ص 59 .

مـــــدخل

لقد كان القصد من هذا الكتاب وما يزال ، هو التعريف — فى حدود الامكان — بأحد رجالات مدينة تازا ، وعلم من أعلامها الافذاذ وعلى الرغم من اننى سميته (اضواء على ابن يجبش التازى) ، فان القارىء سيعثر من بين ثناياه على عدة اشارات تاريخية وغيرها ، ما كان من الممكن أن أعرج عليها ، لو لم اكن منذ أن فكرت فى الكتابة فى هذا الموضوع محتارا بين ثلاثة جوانب ، تتجاذبنى الكتابة فيها اما جملة أو تفصيلا

أ) تاريخ مدينة تازا وازاء هذه النقطة قد يقال ، ان كتاب (تقريب المفازة ، فى تاريخ مدينة تازة) وان أصبح يعتبر فى خبر كان ، فان المرحوم السيد الطيب العلوى — أحد القضاة السابقين لهذه المدينة — قد كفانا بكتابه فى الموضوع ، مؤونة القيام بمحاولة تاريخية اخرى ، وهنا يكون لزاما على أن أعترف له بالفضل ، وأن ارى فى نفس الوقت ان كتابه غير كاف بالنسبة لبلد كمدينة تازا ، ذات التاريخ المتشعب الطويل ، والاسرار الدقيقة التى يمكن رد البعض منها الى ما قبل التاريخ بكثير ، حيث نجد علماء الجغرافيا والجيولوجيا يرون (أن شكل البلاد المغربية فى أيامنا هذه ، مخالف لما كانت عليه فى الزمن القديم الذى كان فيه البحر المحيط على حد تعبيرهم ممتدا الى ناحية تازا ، ويعللون هذه الاقوال بأنهم عثروا فى هذه النواحى على بقايا حيوانات لا تعيش الا فى البحر) (1) .

---

(1) افريقيا الشمالية فى العصر القديم ص 16

واذا كانت هذه الدراسات غير مدونة ، فماذا يمكن أن يقال عن هذه الناحية أيام الحكم الرومانى ، الذى كان احتلاله يعطى الاولوية للاراضى التى لها فائدة عسكرية واقتصادية ؟ ومن هنا نجد أن ناحية تازا ، وهى الاكثر صلاحية من الناحية العسكرية ، كانت من المناطق الواقعة تحت تصرف الرومان ، (تلك المناطق التى كانت توجد بين ساحل البحر ، وخط مجاور للنواحى الصحراوية يدعى عندهم بالليمس(Limes)، وهو خط كان يذهب من طرابلس ، ويمر من جملة ما يمر على تازا ، وينتهى أخيرا الى جنوب الرباط بعد ما يعرج على طنجة ووليلة (1)

ومثل هذا يقال فى مدينة النحاس التى كانت بمدينة تازا واندثرت ، ويقال ايضا فى القصر العجيب الصنع ، الذى غرق فى مياه عين الملى ، حيث يوجد المسبح البلدى الآن الى غير هذا وذاك من علامات الاستفهام التى ما اظن أن البحوث المعاصرة ستتركها بلا جواب سيما وان للقدامى من أهل الفكر فى هذا الاقليم ، تآليفهم التاريخية التى لو تم العثور عليها ، لانكشف الغطاء عن كثير من الاسرار وانتى اقصد هنا كتاب تاريخ كهلان ابن لؤلؤ الاوربى ، فى انساب البربر وايامهم فى الجاهلية والاسلام ، وكتاب المقتبس ، فى اخبار المغرب وفاس والاندلس (بفتح اللام) ، لابى عبد الله محمد بن حمادوه البرنوسى ، ثم تاريخ البرنوسى ايضا فى دولة الادارسة ، وتاريخ سليمان بن سابق المطماطى فى انساب البربر ، وكذلك بعض اشعاره ، وخصوصا منها ما يتعلق بقتال البربر للروم ، اذ هذه كلها زيادة على انها مراجع محلية فانها من الاهمية بمكان

ب) اما الجانب الثانى فيتعلق بموضوع (تازا من خلال رجالها) ، وهو شبيه بالاول فى التشعب والالتواء ، ان لم نقل اغنى منه مادة ، واكثر حاجة الى الصبر والمصابرة والبحث والاطلاع ، اذ كيف يمكن للباحث أن يجمع بين دفتى كتاب فى ظرف وجيز ، تراجم وانتاج ما يربو على خمسين

---

(1) المرجع السابق ص 67

شخصية فى العلم والادب والتاريخ ؟ هذا بقطع النظر عن طائفة اخرى كان لها فى غير الناحية الفكرية مجال ، كموسى بن ابى العافية ، وابى حمارة ، ومن نسج على منوالهما فى دروب التمرد والتطاول والعصيان

ج) ثم الجانب الثالث ومنه ابتدأت المسير ، وبسببه كان البدء بواحد من أولئك الرجال الذين امتلأت بهم رحاب هذا الاقليم وبالنظر لما سبق يمكن للمتأمل فى فصول هذا الكتاب أن يرى أننى تعمدت السير شيئا ما مع ما سبق من النقط ، حيث ألقيت نظرة وجيزة على مدينة تازا أيام بنى مرين ، باعتبارها البيئة التى نشأ بها ابن يجبش ، وكان من الطبيعى أن يتأثر من قريب أو بعيد بما صاحب آخر أيام هذه الدولة من أهوال ، وكذلك كان الامر عند تشخيص الحياة العلمية ، حيث توجد الاشارة فى جهات مختلفة الى أسماء واتجاه ووفيات ما يربو على أربعين شخصية اما من تازا أو من ناحيتها، وما ذلك الا لان القصد عندىهو ضبط وتسجيل ما أمكنتسجيله من الرجال ، ليسهل الرجوع الى دراستهم واحدا اثر واحد ، اما من طرفى ان أمد الله فى العمر ، أو من طرف الغير ، ان حال بينى وبين التمام — لا قدر الله— ما لم يكن بالحسبان

* * *

يشتمل هذا الكتاب على عرض موجز لحياة ابن يجبش ، مع استعراض لبعض ما خلف من انتاج ، ومن خلال العرض والاستعراض ، كان لزاما على أن أتطرق الى احتلال السواحل المغربية من طرف البرتغال، وما صاحب ذلك الاحتلال من ظلمات بعضها فوق بعض ، وما نتج عن الجميع من ضعف ، أدى بأمثال ابن يجبش الى الدفاع عن حوزة الوطن بالقدم تارة ، وبالقلم أطوارا ، وكان من بين هذا وذاك اشارات الى عدة حقائق وأسرار ، ربما لم يكشف عنها النقاب الا بواسطة هذا الكتاب وما شخصية ابن يجبش الا واحدة من هذه الحقائق التى ظلت مغمورة زهاء خمسة قرون ، على الرغم مما كان لصاحبها من فضل فى ميدان المقاومة ، اما بحمل السلاح ، أو بتحريض عامة الناس على الجهاد والاستشهاد .

ثم أن الكتابة فى الجهاد أرغمتنى على عقد عدة موازنات بين ابن يجبش ، وبين بعض من تعاطوا قبله للتاليف فى هذا الباب ، وهكذا فبعد استعراض اهم الكتب المؤلفة فى الموضوع ، سواء فى المشرق او فى المغرب ، ارتأيت أن اضعه الى جانب طائفة منهم ، ثم خرجت بنتيجة ملخصها أن رجال الفكر من اهل الاندلس — وعلى راسهم لسان الدين بن الخطيب — كانوا مقصرين فى هذا الباب

وعند الكلام على الجانب الصوفى عند ابن يجبش ، وضعته الى جانب نظيره فى العلم والولاية والصلاح ، ابى الفضل يوسف المعروف بابن النحوى ، حيث وجدت ان النظر فى منفرجة صاحبنا يفرض هذه المقارنة ، فى حين أن جانبه الشعرى أرغمه أحيانا على السير الى جانب ابن الفارض والبوصيرى ، ومرة أخرى وضعه الى جانب ابن شريف الرندى فى نونيته الشهيرة الذكر ، ويلى الجميع كتاب ابن يجبش فى التحريض على الجهاد ، الذى قدر له بهذه المناسبة ان يعرف النور للمرة الاولى

وبما انه لا بد من الاعتراف بالفضل لذويه ، فلا أنكر أننى استفدت كثيرا من كتاب دليل مؤرخ المغرب الاقصى للاستاذ السيد عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة المرى ، وكذلك الامر بالنسبة لما للاستاذ السيد عبد الله كنون من بحوث قيمة منبثة هنا وهناك ، ويضاف اليهما الاستاذ السيد ادريس ابن الاشهب الذى كان بتقاييده معى كريما على الرغم من أن الكرم محمود الا بمثل تلك التقاييد ، ثم السيد أحمد الخصاصى قيم خزانة الجامع الاعظم بتازة الذى لم يبخل على بوقته وخبرته ، فاليهم جميعا والى غيرهم من الاخوان أقدم خالص الشكر ، وجزيل الامتنان ، راجيا من المولى جلت قدرته ، أن يوفقنا واياهم لما يحبه ويرضاه ، وان يسبل علينا وعليهم اردية العفو والعافية ، فى الدين والدنيا والآخرة ، انه سميع مجيب

المؤلف

تو طئة

مـــا للجمـــال مشيهـــا وئيــــدا   أجند لا يحملــن ام حــديــدا ؟

بهذا البيت ، فيما يروى ، تمثلت الزباء حينما رات جمـــال قصير متثاقلة فى مشيها وهى عوضا عن السلع تحمل الرجال مدججين بالسلاح ، يريدون بذلك الانتقام منها ، واخذ الثار على فعلتها مع جذيمة الوضاح وهى قصة تشبه الى حد بعيد قصة بدء استيلاء البرتغال على السواحل المغربية سنة 818 هـ ، وذلك فيما روى صاحب الاستقصا ، نقلا عن صاحب نشر المثانى ، من أن البرتغاليين جاءوا الى سبتة أو الى مينائها على الاصح ، بصناديق مقفلة توهم من رآها أنها سلع ، فى حين انهـــا ممتلئة بنحو أربعة آلاف من الجنود ، خرجوا على حين غفلة من صناديقهم واستولوا على البلد ، ونجحوا فى مؤامرتهم مثل ما نجح قصير صاحب المثل المشهور (لامر ما جدع قصير انفه)

ولئن فعل قصير ما فعل طمعا منه فى اخذ الثأر والانتقام من الزباء ، فان البرتغاليين لم يعتمدوا الا على الغدر السافر ، حينما عمدوا الى نقض اتفاقية كانت بينهم وبين أمير سبتة تخول لهم التصرف فى الميناء والاستبداد بغلته مقابل خراج معلوم فى كل سنة ، ولولا اللجوء الى الخيانة والغدر لما تم لهم النجاح فيما دبروا من مؤامرة

ومن هنا بدأت سلسلة احتلال السواحل المغربية تدخل فى حيـــز

التنفيذ ، ووصلت من بعد مراكب البرتغال الى طنجة ، ثم الى جميـــع السواحل المغربية باستثناء مينائى سلا والرباط ، ولم يمر الا زمن وجيز حتى أصبح المغرب مقتص الجوانب مشلول الاطراف ، وصارت رقعته عبارة عن شبه جزيرة من نوع غريب ، حيث طوقها الاعداء واحاطوا بها مـــن شتـــى الجهـــات

هذا بالاضافة الى أودية الدموع والدماء التى لم تجف بعد بالاندلس اثر انهزام دولة المسلمين بها ، وما يتبع ذلك الانهزام من حملات التنصر التى سواء اكانت قهرا أم بدونه ، وسواء تنصر من المسلمين من تنصر ثـــم أخفى الاسلام ليبقى على قيد الحياة فقد كان الاسلام والمسلمون على كل حال فى محنة منقطعة النظير

ولم يكن المغرب الاوسط هو الآخر بمعزل عن هذه النكبات ، وانما كان الاسبان بعد ما انتهى عنده أمر الاندلس يتربص به الدوائر ، ويحاول أن يضيف الى حسابه ما يمكن له أن يضيف

وقد كانت تحركاته هناك ناتجة عن اتفاق استعمارى وقع مسبقا بين الاسبان والبرتغال ، على أن تحتل اسبانيا ما وراء نهر ملوية وأن يحتل البرتغاليون الضفة الغربية من النهر حتى المحيط الاطلسى ، وبناء على هذا الاتفاق وقع الشروع فى التنفيذ

وعلى اى حال ، فبينما كان البرتغال يقتص لنفسه مكانا تلو الآخر فى سواحل المحيط الاطلسى ، كان الاسبان يريد مثل ذلك فى سواحل البحر الابيض المتوسط ، الشىء الذى ادى بالفقيه أبى العباس أحمد بن القاضى الزواوى من الجزائر أن يقول فى مكاتبة له الى القائدين التركيين خير الدين باشا ، واخيه عروج باشا ان بلادنا بقيت لك ولاخيك أو للذئب) فأقبل الترك نحوه مسرعين وكانت لهم الغلبة ، وكفى الله المومنين هناك أمر هذا النوع من الاحتلال

ولم يكن الامر فى المشرق بأحسن مما كانت عليه الحالة بالمغرب ،

اذ بعد سقوط بغداد ، وما تبع هذا السقوط من خراب ، وبعد الحروب الصليبية وما خلفت وراءها من دمار ، انكمش الشرق واغلق على نفسه الابواب ، وضعف ما كان معروفا عند رجاله من اتصال وجولات ، واستمر فى دائرته المغلقة يحوم حول نفسه ، ويجتر من حضارة الاجداد وبطولاتهم ما قدر الله له أن يجتر ، ولو لم تحم دولة العثمانيين جوانبه من الدخيل ، لبقى يتخبط فى خضم من الفتن والاهوال ، فلا ينجو من فتنة الا ليقع فى اخرى ولا تسقط دويلة الا وتقوم على انقاضها دويلة اقل منها ضعفا والين بأسا واهــون اساسا

وبصفة عامة ، فقد كان المجتمع الاسلامى منذ بداية القرن الثامن الهجرى يتخبط فى ظلام دامس ، وعلت رقعته زيادة على الضعف مسحة من الشحوب ادت به فى الاخير او برجاله على الاصح الى الوقوف موقف الدفاع عن النفس والاهل والوطن ، وانقسم مفكروه الى فئتين احداهمـــا آثرت الزهد والتصوف وما يتبعهما من توسل وابتهال ، والثانية لجأت فيما تكتب الى البكاء والاستغاثة والرثاء وفيما بين اولئك وهـؤلاء نشأت طائفة ثالثة ، وان كان اصحابها اقل من اصابع اليد الواحدة فقد سخروا كل ما يملكون للتحريض على الجهاد ، ومن هؤلاء كان أبو عبد الله محمد ابن يجبش التازى الذى أقل ما يقال عنه انه كان فى هذه الفترة المدلهمة من أبعد الناس عن اليأس والتشاؤم والاستسلام

وقد كان من الطبيعى أن يكون ابن يجبش واضرابه يمثلون الاقلية ، لانهم من جهة سلكوا بدعوتهم مسلكا صعب المرام ، ولان دعوتهم الـــى الجهاد والاستشهاد من جهة أخرى ، طبعت بطابع الغرابة والاختلاف مع الواقع المألوف عند الكتاب والشعراء ، ومن هنا كان لزاما على انتاجهم أن لا يكتب له الرواج ، وان يحاط أصحابه بشىء غير يسير من الغمـــوض المؤدى بهم فيما بعد الى الاهمال ، ثم النسيان

هذا مع العلم بأن الجميع جاءوا فى أعقاب نهضة علمية ، قل أن وجد لها فى المغرب نظير ، تلك النهضة التى تتجلى فيما كانت تزخر بـــه

قصور بنى مرين ومجالسهم من علم وعرفان ، ولبيان ذلك ، تكفى الاشارة على سبيل المثال ، الى الرحلة التاريخية لابى الحسن المرينى الى الديار التونسية ، حيث ابى — ويااليته ما فعل — الا ان يصطحب معه أربعمائة شيخ ، فيهم الكاتب والعالم والشاعر والناقد والطبيب ، وحتى الجامع لكل هذه الاصناف وقد غرق الجميع بشاطىء تدلس بتونس ، ونجا السلطان المرينى بأعجوبة (1) وبقطع النظر عن هؤلاء ، فقد جرف الوباء الشهير ، طائفة اخرى من الائمة والعلماء ، كان لهم فى كل مجال ذكر ، وفى كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة شأن واعتبار (2)

وقد كان لمدينة تازا من بين هؤلاء الضحايا نصيبها الاوفر ، كما استطاع رباطها أن يظل فترة من الزمن ، قبلة لاهل الفكر يقصدونه من كل مكان ، وذلك بفضل ما كان لهم مع رجال هذه البلدة من تجاوب وانسجام ، وهكذا فقد زارها على التوالى ، لسان الدين بن الخطيب ، وقال فى وصفها ما ستستعرض له من بعد ، ثم المقرى الجد ، الذى اتصل مع ثلاثة من علمائها الاجلاء ، وقد قلت أجلاء لان صاحب نفح الطيب ، ذكرهم فى معرض حديثه على استاذة جده ، وهم الفقيه ابو عبد الله بن عطية ، والاستاذ ابو عبد الله المجاصى ، والشيخ ابو الحسن على الجيار (3) ، كما زارها ابو عبد الله محمد الآبلى (4) ، عالم الدنيا على حد تعبير المقرى الجد ، ونزل ضيفا على الامام أبى الحسن على بن برى ، صاحب الضريح الشهير بتازا ، والذى ظل هو الآخر حاملا لواء الفكر مدة

---

(1) نفح الطيب ج 8 ص 320

(2) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 31

(3) نفح الطيب ج 7 ص 175

(4) حكى الابلى عن هذه الرحلة فقال (لما نزلت تازا بت مع ابى الحسن على بن برى وابى عبد الله الترجالى فاحتجت الى النوم وكرهت قطعهما عن الكلام فاستكشفتهما عن معنى هذا البيت للمعرى :

اقول لعبد الله لما سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس وهاشم

فجعلا يفكران فيه ، فنمت حتى اصبحا ولم يجداه ، فسالانى عنه فقلت معناه :

اقول لعبد الله لما وهى سقاؤنا ونحن بوادى عبد شمس ، شم لنا برقا) (نفح الطيب ج 7 ص 169)

طويلة ، ويرجع اليه فضل كبير فى تنشيط الحياة العقلية بهذه البلاد ، وحتى ابو الحسن الزرويلى الشهير بالصغير ، الذى ولى قضاء تازا على عهد السلطان ابى يعقوب يوسف المرينى ، فقد كان له فى هـذا البـاب اثـره الفعـال

وسيأتى فى الفصل الموالى ذكر جمهرة العلماء الذين كان يزخر بهم هذا الاقليم ، ولا سيما فى ايام ازدهار بنى مرين ، تلك الدولة التى ما أن اشرقت شمسها على الكسوف ، وبزغ على اثرها نجم سلطان بنى وطاس، حتى دب التقهقر والدبول فى كل شىء ، وبدات رياح الاستغاثة والاستعطاف تهب على المغرب من شتى الانحاء ، ثم توالت الدموع ، واستفحل البكاء ، وتكاثرت المراثى ، وبدأت اسراب المسلمين تنسحب من الفردوس المفقود ، وكان من اهم ما ورد على المغرب من الاندلس فى هذا الوقت بالذات ، الرسالة المسماة (الروض العاطر الانفاس ، فى التوسل الى الامام سلطان فاس) (1) وهى تشتمل على نثر ونظـم ، كتبت على لسان السلطـان المخلوع ، ابى عبد الله محمد الذى انقرضت بدولتـه رقعـة الاسـلام بالاندلس وقد قدمها الى سلطان فاس ، ولسان حاله ومقاله ينشد مـا قال الشيرازى ابـن حجـاج

النـاس يفـدونـك اضطـرارا ... منهـم وافـديـك باختيـارى
وبعضهـم فى جـوار بعـض ... وانـت حتـى أمـوت جـارى
فعـش لخبـزى وعش لمـائـى ... وعـش لـدارى واهـل دارى

ومما زاد فى طينة هذا التوسل بلة ، أن الاطراف المغربية كانت هى الاخرى فى مهب الرياح ، ومن هنا فان هذا اللون من الادب وان وجد الآذان الصاغية ، فقد وجد الى جانبها افئدة رخوة ، ومنتديات غير قادرة الا على ترديد مثل هذا النوع من البكاء ، هذا النوع الذى نعلم مسبقا انه كان وليد اليأس ، أو ان اليأس والاستسلام كانا من بين الاسباب التى ادت

(1) انظر الرسالة بكاملها فى نفح الطيب ج 6 ص 281

بأصحابه الى التلذذ به والانغماس فيه ، وما ان وجدوا فيه نوعا من السلو ولو الى حين ، حتى غذوه بالغزير من الدمع ، واحاطوه بسياج كثيف مما كانوا يصعدون أثناءه من انات وزفرات ، وكان من نتائج هذا الاحتراق ، قطع مرة ، ودموع مؤلمة ، ومجتمع كأنى به وجد فى هذا النوع من الانتاج ، ترياقا لما أصاب اجزاءه من شقاق ، أو تلقيحا ضد ما اصيبت به دولة الاسلام من قيح   وعلى العكس من هذا انتاج ابن يجبش ، الذى كان من بين اهدافه تشخيص الداء ، وارشاد الجماهير الشعبية الى الدواء

وليس الانغماس فى الزهد والتصوف ، الا نوع آخر من التنكب عن الدنيا ، والتبرم مما فيها من زينة ولهو ولعب ، الشىء الذى لا يستفحل أمره الا عند الابتلاء ونزول النكبات ، حيث يتفشى اليأس الا من الله ، ويلتجىء المرء الى تلك القوة الازلية ، الكامنة فى ضمير كل موجود ، ثم يتبع هذا نفور من الدنيا ، بدلا من الاحتفال بها ، ويستجير الانسان بالخالق القادر ، بعد اليأس من قوة المخلوق ، ووسط هذه الاجواء يكون التصوف اكثر قدرة على النمو والترعرع ، ويجد مع الزهد من الحفاوة والاقبال ، اضعاف ما يجدان فيما اذا كانت الدنيا تشير الى أصحابها بالبنان

وما كان من الممكن لبعض المتلاعبين بالتصوف ، أو المرتزقين به ، ان يجدوا من الخصب والنماء تحت ظلال راية الموحدين مثلا ، مثلما وجدوا فى أيام دولة بنى وطاس ، واخص بالذكر العصر الاول الموحدى — وان كان له نظائر فى القوة — لان الامور كانت بين يدى رجاله مأخوذة بيد من حديد   وهل كان الامر هكذا فى أواخر دولة بنى مرين ، وطيلة ايام السلاطين من بنى وطاس ؟ الجواب بالطبع لا   لان الحياة العامة للمسلمين كانت على نحو ما ذكر من قبل ، ولان اليأس والقنوط قد سريا فى النفوس ، وبالتالى لان جماهير المسلمين لم تعد قادرة الا على التوسل والاستعطاف وما يتبعهما من ابتهال وتضرع واستغفار   وبفضل هذا وغيره كان للتصوف فى عصر ابن يجبش رواد لا يحصون عددا ، وكان لتعاليم رجاله واورادهم

اثر ما زال لها حتى الآن فى كل مسجد ذكر ، وعند اتباع كل زاوية رنين ، وكان من الطبيعى كما يقول اليوسى فى محاضرته أن يلج هذا البـــاب كل من هب ودب ، وأن يتبع هذا الخليط من الفيض انطماس الحقيقة عن الاعين ، وضياع الباحثين عنها فى متاهات متعددة المشارب والاهواء

وكأنى باللطف الالهى ، يأبى فى كل زمان ومكان ، الا أن يحف بعنايته اهل الصبر والاناة من العباد المخلصين ، فتنفر النفوس الزكية الى اهل الصدق والانابة منهم ، وتتنكب عن الباقين ، وذلك مصداقا لقـــول الله تعالى : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ».

وهكذا ، فرغم اباطيل المتصوفين التى كثر رواجها ، فاننا نجد من الشيوخ من استطاعوا الصمود فيما رسموا لانفسهم من طريق ، الـــى ان كان من أمرهم وأمر تعاليمهم الصوفية ما كان فهذه المدرسة الجزولية كان لها من المريدين والاتباع ما تكتفى به فخرا وشرفا ، وكـــذلك الامـــر بالنسبة للتباع والغزوانى وما كان لهما من المريدين والاتباع والى جانب هؤلاء ، وان كانوا ينتمون الى مدرسة واحدة ، تأتى المدرسة الزروقية التى أطلق على الشيخ زروق البرنوسى مؤسسها الاول (محتسب العلماء والاولياء) وقد ابتدأ هذا الطود مسيرته المظفرة ، من زاوية بوقطوط ، بمدينة فاس ، واثناء مروره بتلمسان ، وتصديه للتدريس بها ، استطاع أن يحتك برجالها ، وان يتأثر بمجمعها العلمى تأثرا كان من بين معطياتـــه اتصال الشيخ زروق برجلين عظيمين ، وشيخين لا يقل احدهما عـــن الآخر علما وعملا الامام السنوسى ، صاحب العقائد الشهيرة الذكر ، والملقب بمحيى الدين والسنة ثم الشيخ ابراهيم التازى التسولى ، المعروف هو الآخر بسلطان الاولياء ، وخليفة الشيخ الهوارى بوهران ، ورابع الرجال المتأخرين كما جاء فى كتاب روضة النسرين

وبعد فان الذى يهم من هذه الاشارات هو الوقـــوف على المنابـــع الصوفية التى ارتشف منها ابن يجبش ، وما كان له مع من ذكر من الرجال

من تلمذة وعلاقات ومكاتبات ، وزيادة على هذه المنابع فقد تأثر تكوينه العلمى من قريب أو بعيد ، بما سبق الالماع اليه من الشخصيات ، فى حين أن تكوينه الشخصى ، تأثر هو الآخر بما كان الوطن يئن تحت وطأته من ازراء وضعف وتفرقة واحتلال ، وتفصيل هذا كله هو ما سيكون موضوع الفصول المقبلة بحول الله

تازا بين عهدين

لم تعرف مدينة تازا اوفى ولا اوفر مما عرفته فى ايام دولة بنى مرين من نشاط ورواج سياسيين ، وما ينشأ عنهما من اتصال وانفصال وما ينتج عن الجميع من حضارة وعمران ما زالت معالم البعض منها ماثلة حتى الآن ، شأنها فى ذلك شأن كل العواصم الاسلامية التى تعتبر القصور والحدائق والمساجد الجامعة ومناراتها الشاهقة من أبرز ما تخلفه فيها ابهة الملك والسلطان من جلال ، ولولا حوادث الهدم والتخريب التى كانت تازا مسرحا لهمـــا وخصوصا حينما حوصرت من طـــرف أبى حمو الزيانى فى جمع من أولاد حسين حيث (خربوا بها قصر الملك ومسجده المعـــروف بقصر تزروت) وما تبع ذلك من كر وفر ، وانتصار وانهزام ، لكانت هذه المدينة من اجمل التحف الاسلامية البهية واكثرها سناء وبهجة واثرا

هذا زيادة على ما أنعم الله عليها به من جمال طبيعى خلاب ،ومناظر جذابة يحيط بها الخصب والماء وطيب الهواء من كل جانب ، الشىء الذى جعل الكتاب والشعراء يتغنون بحسنها الفاتن ، ويتفننون فى وصفها ووصف حدائقها الغناء فهذا لسان الدين بن الخطيب الذى جاب اقطار العالم الاسلامى يمينا وشمالا لم يتمالك حين مشاهدتها أن قال

(تازا بلد مشاع ، وكشف تناع ، ومحل ريع واىناع ، ووطن طاب هواه ، وعذب ماؤه ، وبان اشرافه واعتلاؤه ، وجلت فيه مواهب الله وآلاؤه ، عصيره ثمل ، وامر الخصب به ممتثل ، ونواكهـــه لا تحصى ،

يمارى بها البلد الاقصى ، وحبوبه تدوم على الخزن ، وفخاره آية فى لطافة الجرم وخفة الوزن ، الا أن ريحه عاصف ، وبرده لا يصفه واصف ، واهله فى وبال ، من معرة اهل الجبال ، وليوثه مفترسة ، واخلاق اهله شرسة).

اما الشيخ الفكونى (1) حسن بن على القسنطينى فقد لفت نظره فيها شىء آخر كان عنده الى الحسن البابلى اقرب حيث قال

ولما جئت وجدة همت وجدا   بمنخنث المعاطف معنوى
وحل رشا الرباط رشا رباطى   وتيمنى بطرف بابلى

واما أبو عبد الله محمد بن الطاهر الهوارى فقد اتجه فيها الى وصف القوم الكرام فقال

قوم كرام بتازا فاق جودهم   جود البلاد التى أبصرت فى سفرى
كلا وحق الذى ابدى مودتهم   ما أن بدا مثلهم فى البدو والحضر
لله درهم من معشر سكنوا   حصنا يكن الفتى من شدة المطر
يسلو بهم كل من راى محياهم   وينجلى همه فى الورد والصدر
ان جئتهم نلت ما ترجو وتأمله   أو انتجعت نداهم فزت بالظفر
فالطيب الاصل عند العد أولهم   كذا ابن عمرو ، أخو التقييد والنظر
والعربى المرتضى اكرم به رجلا   ثم المقدم يتلو القوم فى الاثر
والصاحب الماجد الجنان خامسهم   مع الجليس أخى التقييد والطرر
والغير ممن غدا عندى بلا فند   فى المدح منتظما كالعقد بالدرر
الله فى فئة لا فض جمعهم   ودام عيشهم صفوا بلا كدر

وقال آخر (2)

هذه تازة وهذى رباها   يصدع اليوم قلبها بهواها

---

(1) نفح الطيب ج 3 ص 240 والمراد بالرباط هنا رباط تازا
(2) المؤلف ومما يتبع هذا قوله :

اخت فاس هى فى المجد اذا ما   طاطا الدوح راسه لعلاها
ولمراكش الجميلة مرآ   ة بساتينها التى لا تضاهى
فاسالوا راس مائها فهو جار   فى تلال له الا له اصطفاها
يعكس النور حولها من رآها   ليس يدرى أصيلها من ضحاها

هـــى كالتاريـــخ حتـــى مبتـــداه يتـــراءى كـــأنـــه مبتـــدأهـــا

ولا غرابة فى هذا لان اهل القول قد وجدوا المجال واسعا ، والفوا للدرر النحر ، فحلوه منها بكل غال ونفيس

ولعلنى لست فى حاجة الى ذكر الاسباب التى جعلت بنـــى مريـــن يتخذون من مدينة تازا عاصمة ولو الى حين ، لان ذلك واضح من ارتباط اوليتهم بالصحراء وبحوض ملوية على الخصوص ، حيث كانوا (ينتجعون تخوم المغرب وتلاله زمان الربيع والصيف فيكتالون ويرعـــون انعـــامهم وشاءهم حتى اذا اقبل فصل الشتاء اجتمع نجعهم باكرسيف ثم شدوا الرحلة الى بلادهم) (1) ويكفى أن نشير الى ان أول حربللمرينيين كانت مع صاحب فاس من قبل الموحدين بضواحى رباط تازا سنة 613 هـ ، ثم زحفوا بعد انتصارهم الى تازا التى كانت اولى المدن التى استولوا عليها ، وعلى ما فيها من اسلاب وخيل وسلاح ، وكلما ارادوا الخروج منها للقتال كانوا يتركون بها جمهورهم وذوى الشوكة منهم لحراستها من هجومات بنـــى عبـــد الـــواد (2)

ومن مدينة تازا كان منطلقهم لغزو القبائل المجاورة والمدن المغربية الاخرى ، ومنها ايضا نهض السلطان يعقوب المرينى قاصدا سلا لمحاربة الاسبان واقتحامها عليهم وذلك فى مسيرته الشهيرة التى ابتداها بصـــلاة العصر بتازا بينما ادى صلاة العصر الموالى بظاهر سلا (3) حيث قطـــع المسافة فيما بين يوم وليلة ، الشىء الذى اعتبره البعض من الخـــوارق ، والبعض الآخر عده من قبيل المعجزات

وفى ايام السلطان يوسف بن عبد الحق كان النهوض من تازا الى الاندلس مباشرة بقصد الجهاد ، وقبل هذا كانت قاعدة لغزو تلمسان ،

---

(1) الاستقصـــا ج 3 ص 5

(2) الاستقصـــا ج 3 ص 26

(3) نفس المـــرجـــع ج 3 ص 22

وهذا وأكثر منه ما جعلها تتوفر على صفات العواصم الاسلامية وتصطبغ بصبغة المدن المهمة ذات الاسوار التاريخية المنيفة، والجامع الاثرى العتيق، والقصور الشامخة والحدائق الغناء ، وما يتبع ذلك من نقش وزليج وزخرفة وفسيفساء ، الشيء الذى ما زالت تزخر به جل الامكنة الى الآن ، وخصوصا فى تازا العليا ذات الطابع الاسلامى الصرف ، والزوايا الثمينة ، التى تحتضن الكثير من رجال القوة والولاية والصلاح ، والعدد الوافر من حملة الاقلام فى كل ميدان من ميادين العلم والمعرفة :

ففى صحن الجامع الاعظم بتازا دفن السلطان أبو الربيع سليمان ابن ابى عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المرينى ليلة الاربعاء منسلخ جمادى الاخيرة من سنة 710 هـ ، وفى احدى قصور تازا تفاوض الوزراء والمشيخة بعد هداة من الليل حتى وقع اختيارهم على أبى سعيد الاكبر فاستدعوه فبويع ليلتئذ ، وتم أمره وانفذ كتبه الى النواحى والجهات باقتضاء البيعة (1) وعلى ذكر البيعة اشير الى ان السلطان يعقوب ابن عبد الحق بويع هو الآخر بتازا ومنها صمد الى فاس (2) وبعد وفاة السلطان ابى العباس بن ابى سالم بتازا كان ابنه أبو فارس عبد العزيز بتلمسان ، فاستدعاه رجال الدولة منها ، فقدم عليهم وبايعوه بها يوم السبت تاسع محرم سنة 796 هـ (3) والى القصر السلطانى بنفس المدينة وصلت هدية صاحب مصر السلطان الظاهر برقوق ، وكانت عبارة عن هدية خفيفة من القماش والطيب والقسى (فأعظم السلطان موقعها وجلس فى مجلس حفل لعرضها والمباهاة بها ، وشرع فى المكافأة عليها بمتخير الجياد والبضائع والثياب حتى اذا استكمل من ذلك ما رضيه وعزم على بعثها مع يوسف بن على حاملها الاول وانه يبعثه بها من موضع مقامه بتازا اخترمته المنية دون ذلك واتم خلفه المكافأة من بعد (4)

---

(1) الاستقصا ج 3 ص 103
(2) نفس المرجع ج 3 ص 20
(3) الاستقصا ج 4 ص 79
(4) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 341 والمكافاة كانت عبارة عن خمسة وثلاثين من عتاق الخيل واللجم الذهبية والسيوف المحلاة وخمسة وثلاثين حملا من اقمشة الحرير والكتان والصوف والجلد منتقاة من احسن هذه الاصناف (نفس المرجع ص 345)

ومن خلال هذه الاشارات ، يبدو الى أى حد بلغ الدور الذى لعبته مدينة تازا فى هذا العصر ، كعاصمة مرينية ، وقاعدة لغزو المغرب الاوسط ، ومعقل من معاقل الجهاد واذا أضيف الى هذا موقعها الجغرافى ، واقتران اسمها بالرباط ، وما كان لهذا الاخير فى نفوس العباد والعلماء والزهاد والمجاهدين من ذكر وتقدير ، أمكن لنا أن نعرف أن نهضتها الفكرية ، وخصوصا أيام بنى مرين لم تكن وليدة الصدفة ، وحتى السلطان أبو يعقوب لم يهتم فى الغالب بتوسيع جامعها الاعظم وجعله على ما هو عليه الآن الا ليضاهى به أشهر المساجد الاسلامية فى ذلك الابان

وبحكم موقع هذا المسجد وحسن رعاية الملوك المرينيين له ، فقد كان ملتقى الادباء والشعراء والكتاب والفلاسفة ورجال التصوف الشىء الذى أمكن معه لرباط تازا وأحوازه أن ينجبا فى هذا الظرف بالذات أمثال (1) أبى الحسن على بن برى (2) وأبى زيد عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن العشاب (3) وابن البقال (4) وأبى العباس احمد بن شعيب الجزنائى (5) وأبى حفص عمر بن عبد العزيز الجزنائى (6) وأبى زكرياء يحيى الوازعى (7) وأبى عبد الله بن عطية ، وأبى عبد الله المجاصى وأبى الحسن الجيار (8) والقاضى أبى اسحاق ابراهيم عبد الرحمن التسولى المعروف بابن أبى يحيى (9)

(1) دفين رباط تازا والمتوفى سنة 731 هـ

(2) المتوفى بتازا سنة 725 هـ

(3) ابن البقال التازى الفيلسوف الشهير المتوفى سنة 725 هـ

(4) أبو العباس الجزنائى شاعر وكاتب وطبيب أصله من تازا هلك بالطاعون بتونس سنة 749 هـ

(5) ابو حفص عمر الجزنائى من رجال القرن التاسع له رجز فى علم الاوفاق وهو غير ابى حفص عمر بن عبد الرحمن الجزنائى الذى كان حيا عام 911 هـ وهو ايضا غير ابى الحسن على الجزنائى صاحب كتاب تقريب المفازة فى تاريخ تازا وزهرة الاس فى بناء مدينة فاس المتوفى سنة 766 هـ

(6) ابو زكرياء الوازعى استاذ الشيخ ابراهيم التازى والمعروف عند العامة بسيدى (بوزكرى)

(7) ابن عطية والمجاصى والجيار كانوا على قيد الحياة حوالى سنة 740 هـ وقد اتصل بهم بتازا المقرى الجد كما سبق

(8) ابن أبى يحيى التسولى أحد أساتذة لسان الدين بن الخطيب تلمذ عليه حينما كان سفيرا بغرناطة وقبل ذلك تولى قضاء العساكر وكتابة الرسائل السلطانية وتوفى بفاس سنة 748 هـ

(9) الشيخ ابراهيم التازى التسولى دفين وهران المتوفى سنة 866 هـ .

والشيخ ابراهيم التازى الصوفى الشهير (1) والشيخ زروق دفين باب المروج (2) وولده العالم الشهير دفين مسراته من اعمال طرابلس (3) وابى عبد الله محمد السطى الاوربى ، احد اساتذة ابن خلدون (4) ، وابى عبد الله محمد النيجى الاوربى المعروف بالصغير ، (5) والكاتب أبى زكرياء يحيى بن الحسن التسولى ، المعروف بابن ابى دلامة ، (6) وقاضى الجماعة بفاس ابى محمد عبد الله بن محمد الاوربى ، وطائفة اخرى ما زال البعض منها مجهولا ، والبعض الآخر لم يذكر التاريخ منهم الا الاسماء ولا يعنينا الآن عددهم ، أو مميزات كل واحد منهم ، بقدر ما يهمنا القاء نظرة على المجمع العلمى ، الذى اغترف منه ابن يجبش ، وتأثر برجاله ، أو سمع الكثير عن البعض منهم ، أو شاهد مجالس البعض الآخر وهو فى عنفوان الشبـــاب

اما العهد الثانى وهو العهد الذى بلغ فيه ابن يجبش اشده فيكاد يخالف العهد السابق ، لا فى مظاهر قوته فحسب ، ولا فيما نشأ عـــن هذه القوة من استقرار ، وما تبع هذا وتلك ، من فتوحات ومجد وحضارة وعلم وعرفان ، وانما خالفه حتى فى الاجواء القاتمة التى عمت المغرب ، على اثر انهيار دولة بنى مرين وتصدع أركانها تصدعا كان من بين معطياته اتخاذ أصيلا — رغم تهديدها بالاحتلال البرتغالى — شبه عاصمة لمحمـد الشيخ الوطاسى ومنها كان منطلقه الى فاس التى حاصرها نحو سنتين ، أخبر أثناءهما باستيلاء البرتغال على اصيلا ، مع بيت مالـــه وحظايـــاه وأولاده (7) فى حين أن الجنوب المغربى وخصوصا نواحى سوس ،

---

(1) هو والد الشيخ زروق دفين أحواز تازا والمتوفى سنة 846 هـ وضريحه بالبرانس شهير

(2) ابو العباس احمد زروق العالم الشهير المتوفى سنة 899 هـ

(3) مات غريقا بشاطىء تدلس بتونس سنة 750 هـ

(4) النيجى هو غير الصغير المعروف بالسطى

(5) ابن أبى دلامة كان حيا فى حدود سنة 776 هـ وكان من الذين تولوا الكتابة السلطانية والمبرزين فى النظم الفائق على حد تعبير صاحب الاستقصا ج 4 ص 78 و 80 و 94

(6) توفى بفاس سنة 780 هـ وهو بالطبع غير أبى الحسن على بن عبد السلام التسولى قاضى الجماعة بفاس المعروف بمديدش

(7) الاستقصـــا ج 4 ص 116

كان مسرحا لثورة عمرو بن سليمان السياف ، أحد تلاميذ الشيخ الجزولى ، الذى ابتدأ ثورته باظهار الطلب بثار الشيخ والانتقام من الذين سموه ، وتعدى هذا الى ان اخرج شلو الشيخ ، وحمله فى تابوت ، وصار يقدمه بين يديه فى حروبه (1) هذا بقطع النظر عما كان يصدر عنه من ادعاءات واكاذيب ، كان لها من بعد أسوأ الاثر على الحالة العامة فى هذا العصر

واما السواحل المغربية ، فحدث فيها عن الحزن والاهوال ولا حرج. وكيف لا ، وعمليات الاحتلال البرتغالى قد ذهبت فيها كل مذهب ؟ واستمرت عمليات الزحف فيها ، ابتداء من سنة 818 هـ حيث كان موعد الاستيلاء على سبتة ، ثم على طنجة سنة 869 ، واصيلا وآنفا سنة 876 ، وفى حدود سنة 907 كان النزول بأرض الجديدة ، ثم العرائش سنة 910 ، وفى نفس السنة كان الاستيلاء على حصن أكادير ، وما جاوره من نواحى سوس ، وفى حدود سنة 913 ، كان الاستيلاء على مدينة آسفى ، وبعده أزمور سنة 914 ثم المعمورة (المهدية) سنة 920

وبينما السواحل المغربية على نحو ما ذكر ، كان الاسلام فى الاندلس يلفظ النفس الاخير ، وكان الناس هناك ، يفضلون الفرار بأنفسهم على الخروج من دين الله أفواجا ، ورغم ذلك الفرار فقد (ارتد كثير من المسلمين حرسا على أوطانهم ومصالحهم ، أو خشية الريب والمطاردة ، وجازت السوف اخرى ممن خشوا على أنفسهم ودينهم المغرب وتفرقوا فى ثغوره) (2) ومن بين هؤلاء (جماعة كبيرة نزلوا فى مارتيل قرب تطوان ، وطلبوا من سلطان فاس أن يعين لهم موضعا يبنون فيه بلدا يكنهم ويحفظون فيه عيالهم (3) ، فتم لهم ما ارادوا ، ولم يمر على هذه المعضلة الا جزء من الزمن يسير حتى (عول أبو عبد الله آخر ملوك بنى الاحمر ، أن يحذو حذو عمه فى الجواز الى افريقيا ، ونزل لفرديناد عن حقوقه نظير مبلغ

(1) الاستقصا ج 4 ص 122
(2) تراجم اسلامية لعبد الله عنان ص 236
(3) الاستقصا ج 4 ص 124

كبير ، ثم جاز بأسرته وماله وأمتعته ، من ثغر المرية ، الى المغرب فـــى سفن أعدت لجوازه) (1) .وبهذا اشتد الخطب وعمت البلوى ،وبلغتالقلوب الحناجر ، ولم يسع جمهور المسلمين ازاء هذا الكرب العظيم ، الا أن يقفوا فى حيرة واندهاش ما بعدهما من مزيد

ومما زاد فى طينة هذا العصر بلة ، ظهور نوع من الجذب والشعوذة غريب نعمت أحاديث أصحابها وأفعالهم كل أرجاء البلاد ، وقد كانت هذه الاحاديث تجد الآذان الصاغية ، وخصوصا عند عامة الناس ، حيث تكون أسماعهم مرهفة عند نزول كل مصيبة أو نكبة ،ونفوسهم تتشوف لما يخبىء لهم عالم الغيب من أسرار وهكذا فبقطع النظر عما روج عمرو بن سليمان السياف السابق الذكر ، الذى ادعى من جملة ما ادعى (أن أحكام الكتاب والسنة ارتفعت ، ولم يبق الا ما يقول له قلبه) ، فقد كثر ظهور الاولياء ، وأرباب الاحوال والجذب ، وانفتح به للمتسوريـــن على النسبة وأهل الدعوة باب متسع الخرق ، متعسر الرتق (2) .

هذا بقطع النظر عن الفتن الاهلية التى كانت تنشأ من حين لآخر بين هذا المتزعم أو ذاك ، وما نشأ عنها وعن الفقر الضارب أطنابه من بؤس وجوع وشقاء ، واذا أضيف الى هذه الويلات امكانية الجفاف الناتج عن انحباس المطر من سنة لاخرى ، وتفاقم الاوبئة ، وقلة الفتوحات ، أمكـــن لنا أن نتصور الظلام الدامس ، والجور الكئيب الذى عم البلاد فى هـــذا الظرف الرهيب

ولعل الصدفة هى التى جعلت تازا فى هذا الظرف تنعم ــ نسبيا ــ بشىء من الاستقرار الناتج أولا ، عن قربها من مدينة فاس ، عاصمة بنى وطاس بعد أصيلا ، وقد كان من الممكن أن يعرضها هذا السبب للفتـــن وسفك الدماء ، لو لم تقع فى الجانب الشرقى لمدينة فاس اذ بموقعها

(1) الاستقصـــا ج 4 ص 163 و 64 نقلا عن محاضرات اليوسى .

(2) المرجـــع السابق لعبد الله عنـــان ص 241

هذا سلمت من مثل ما كان الجانب الغربى يرزح تحته من زحف وتهديد ، ولا سيما حينما بدأ نجم دولة الاشراف السعديين يبزغ من نواحى الجنوب ، ومن الاسباب الاخرى ضعف شوكة بنى عبد الواد بالمغرب الاوسط ، واشتغالهم عن ناحية تازا بمواجهة دسائس الاسبان وتحركاته فى ضفاف البحر الابيض المتوسط ، ثم خضوع هذه الضفاف من بعد لسلطان الاتراك

ولم ينس السلاطين من بنى وطاس ما كان لمدينة تازا مع آبائهم واجدادهم من ذكريات عذبة ، وايام صافية بيضاء ، فلم يتنكروا لها بالمرة ، ولا انستهم نشوة سلطانهم الجديد ، وظفرهم بمدينة فاس ، ما كان لهذا الحصن الحصين من فضل على توطيد دعائم ملك بنى مرين ، وهكذا فرغم قربها من فاس العاصمة ، ارتفعت رتبة عاملها الى مستوى خليفة سلطانى، وكان من بين الذين تولوا هذه المأمورية ايام ابن يجبش ، ابو العباس احمد الوطاسى ، أخو السلطان محمد بن محمد الشيخ المعروف بالبرتقالى

والمعروف عن ابى العباس هذا ، انه كان محبا للاولياء والعلماء والصالحين ، وقد ركن اليهم وركنوا اليه ، وانس كل منهما بالآخر ، ومن بين هؤلاء العلماء بطبيعة الحال ابو عبد الله محمد بن يجبش التازى ، الذى كان ابو العباس تلميذا له على ما يبدو ، أو درس عليه شيئا من الحكم العطائية كما تدل على ذلك القصة المذكورة بتواتر عن محاكمة الشيخ الغزوانى دفين حومة القصور بمراكش ، حيث اجتمع عليه الناس بنواحى اصيلا التى قصدها بنية المشاركة فى الجهاد ، فتوهم السلطان من امر اجتماع الناس عليه ، وخشى على الدولة عاقبة امره ، ثم امر بالقاء القبض عليه ، وجيء به الى فاس من اجل المحاكمة ولما اطمأن بالجميع مجلس السلطان (وكان فيه صاحب تازا وهو ابو العباس احمد ابن الشيخ اخو السلطان المذكور) سكت الجميع ، وتكلم كاتب السلطان وامام صلاته ، فقال للشيخ ما هذا الذى يذكر عنك ؟ فقال له الشيخ انت لا تتكلم حتى تغتسل من جنابتك ، فاستشاط الكاتب غضبا وهنا تدخل صاحب تازا لانقاذ الموقف بقوله : (ان هؤلاء القوم يعنون بالجنابة غير ما تعنيه العامة)

يشير الى ما فى الحكم ، فقال له السلطان (من أين عرفت هذا ؟) فقال له : (من سيدى محمد بن عبد الرحيم بن يجبش) ففرح السلطان بمعرفة أخيه فرحا عظيما وهكذا استطاع صاحب تازا أن يفهم اخـــاه بلطيف الاشارة ما جعله يعفو عن الشيخ ، ويفهمه فهما دقيقا ثم يقول له من بعد (نحن نريد قربك وأن تكون معنا فى هذه المدينة) فقبل الشيخ الغزوانى وقال (على بركة الله) (1)

(1) الاستقصا ج 4 ص 146 ومرآة المحاسن ص 213 وممتع الاسماع ص 36 .

ابن يجبش كما عرفته

هو أبو عبد الله محمد (فتحا) بن محمد بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن التازى الشهير بابن يجبش ، وقد وجدت أكثر الذين تعرضوا للكلام عليه ، يسقطون اسم محمد ، وكلهم ينسبونه الى مدينة تازة ، وان كان من بعض حفدته الآن من يرد أصله الى عين الحوت بنواحى تلمسان ، حيث قدم سلفه منها الى قبيلة التسول ، بناحية تازا ، ومنها الى المدينة فيما بعد ، ويوجد الآن بهذه القبيلة التسولية ضريح (جبشى) يؤكد هذا القول.

وقد انفرد الشيخ الحضيكى فى مناقبه بتسميته باسم محمد بن عبد الكريم ، وكنت ظننت أن هذا من الاخطاء المطبعية الموجودة بكثرة فى المناقب الحضيكية ، فاذا بى أجده نقل الجميع عن صاحب الدوحة ، الذى يعتبر ابن يجبش من أهم رجاله ، وقد سماه هو الآخر بمحمد ابن عبد الكريم

أما كنيته فقد تعرضت على ما يبدو لمحن كثيرة ، اذ هناك من يكتبها بكاف أو جيم معقودتين ، وهى عند البعض معرفة ، وعند البعض الآخر بدون تعريف ، فيقولون ابن الجبش أو ابن يجبش أو يجيش ، ومنهم من يذهب الى غير هذا وذاك ، كصاحب نيل الابتهاج المغربى ، الذى عده ابن بحبش بالباء قبل الحاء وبعدها ، أما الموجود بين يدى من ظهائر ملوك الدولة العلوية فى الموضوع ، فكلها تذكره بابن الجبش ، وهو اللفظ الجارى على الالسن الآن .ويستثنى مما ذكر من الظهائر ظهير المولى اسماعيل، الذى جاء فيه ابن يجبش بتشديد الجيم وفتحها ، وهو الظهير الاكثر قربا الى

عصر ابن يجبش ، سيما وهو كما يظهر من سياق ما جاء فيه ، قد حرر على غرار ما جاءق ظهير والد المولى اسماعيل ، الشيء الذى يدعو الى التأكيد ، من انها كانت قبل المولى اسماعيل ، وحتى فى ايامه تكتب بجيم مشددة والذى يزيد الامر تأكيدا اننا كلما اقتربنا من عصر ابن يجبش نجدها مشددة الجيم وبدون تعريف ، وكلما ابتعدنا منه نجد الاقوال تتضارب ، والنقط تنتقل من مكان الى مكان

وعندى أن كنية ابن يجبش ليست اول من تعرض لهذا الخلط أو التحريف ، فهذا أبو العباس الجراوى على الرغم من شهرته الذائعة الصيت ، قل أن نجد مؤرخين اثنين متفقين على كتابة كنيته على شكل واحد ، ومرد هذا الى الكاف المعقودة التى كما يقول الاستاذ محمد الفاسى

(التبست على النساخ والمؤرخين بسبب محاولة بعضهم كتابة الجيم جيما معقودة حتى ينطق بها كما يتعين ، اى كرواة ، فبعضهم يكتبها كافا ، والبعض الآخر يكتبها قافا ، ثم تتصحف الكراوى الى الكرارى ثم الى كورائى فتصير كورانى) (1)

وهذا بالضبط ما يمكن ان يقال فى كاف ابن يجبش او جيمه على الاصح ، وزيادة على هذا فاننا اذا وضعنا فى الحساب مشكلة النقط الى جانب حيثيات النسخ القديم ووسائله ، امكن لنا أن نعرف الاسباب التى جعلت نقط ابن يجبش ينقصها الاستقرار وبقطع النظر عما ذكر ، فان بين يدى أبياتا تشتمل على كنيته ينسبها حفدته اليه وهى

ببابى قف وناد يا ابن جبش (اجيبك) مسرعا عزما ببطش
انا البحر المحيط بكل جود اداوى من دنا منى برش
ولا تهتك حدود الله اصلا ولا تقرب مجاورتى بغش

وقد اخذت الكنية هنا مكانا وسطا بين جميع ما سبق من الاقوال ،

---

(1) ابو العباس الجراوى شاعر الخلافة الموحدية ص 4

ومن هنا فلا يستبعد ان يكون لضرورة الشعر دخل فى الموضوع

وبعد فان المرجح عندى هو ابن يجبش بتشديد الجيم وفتحها تتوسط ياء مفتوحة وباء ساكنة ، اذ بهذه الصورة وجدتها فى تقييد بخزانة الجامع الاعظم بتازا ، لصاحبه احمد بن على ، الذى وان كان بدون كنية ولا نسب فانه شديد التحرى فيما يكتب ، ويؤيد هذا ما جاء فى كتاب ممتع الاسماع ، ومرآة المحاسن ، وما جاء فى مناقب الشيخ الحضيكى على لسان مؤلفه وما جاء فيه أيضا على لسان ابى عبد الله محمد الهبطى ، وهو واحد من الذين تلمذوا عليه ، واتصلوا به اتصالا مباشرا ، وكذلك ما جاء فى الاستقصا ، نقلا عن صاحب دوحة الناشر ، الذى يعتبر مؤرخه هو الآخر من أقرب المؤرخين الى أيام ابن يجبش ، وقد تبع هذا صاحب (الاعلام ، بمن حل مراكش واغمات من الاعلام) ، عند كلامه على الشيخ الغزوانى دفين حومة القصور بمراكش ، ومن قبله كان الظهير الاسماعيلى مؤيدا لهؤلاء ، ويضاف الى الجميع ما هو مقيد الآن على النسخة الخطية لكل من كتاب الجهاد ، وارشاد المسافر للربح الوافر ، وما ذيلت به منفرجة ابن يجبش فى التقييد السالف الذكر ، وما أعتقد ان كل هؤلاء المؤرخين متفقون على الخطأ او الضلال

أما اساتذته فمنهم عمه الشيخ أبو الحسن على ابن يجبش دفين تازا ، هذا الشيخ الذى يمكن الاستدلال به وبغيره (1) على أن الرجل ينتمى الى بيت علم وولاية ، وبقطع النظر عن هذا فان ما بين ايدينا من ظهائر التوقير والاحترام لهذا البيت غالبا ما تصف حفدته بأوصاف من هذا القبيل

كما أخذ عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله الزيتونى ، والشيخ أبى محمد عبد العزيز القسمطينى (2) ، وزاد الشيخ الحضيكى ، (انه ادرك

---

(1) وكذلك جده أبو زيد عبد الرحمن بن يجبش دفين روضة أبى الحسن على بن برى بتازا ، وابن يجبش آخر دفين قبيلة التسول ، وفى تازا العليا أيضا زقاق يدعى زقاق الجبشية

(2) مرآة المحاسن ص 191

سلطان الاولياء أبا اسحاق ابراهيم التازى الوهرانى واخذ عنه ، وعاصر محيى الدين والسنة أبا عبد الله محمد بن يوسف السنوسى) (1) ومن خلال هذه الاشارات وان كانت ضئيلة نرى أن الشيخ الزيتونى وان كان دفين المسيلة من بلاد الجريد ، فقد كان رفيقا للشيخ أبى العباس احمد زروق بزاوية بوقطوط من داخل باب الفتوح بفاس التى كان الشيخ زروق بهـا خديما للفقراء ، حيث قدم عليهم من تلاميذة الشيخ الجزولى جماعة مع أبى عبد الله محمد الصغير السهلى ، وصححوا عندهم موت الجزولى (2) وفى هذه الزاوية فيما يبدو كان اتصال ابن يجبش بالشيخين الزيتونى والقسمطينى ، ومن معين روادها اغترف فى بدىء حياته العلمية خصوصا وان من رجالها الشيخ زروق الذى كان بها خديما للفقراء ، وهو على ما هو عليه فى علمى الحقيقة والشريعة وكذلك الشيخ الصغير السهلى ومن قدم معه من الفقـراء

وعلى الرغم من هذا التقارب فاننى لم أجد من اشار الى اتصال ابن يجبش بالشيخ زروق أو بالامام الصغير على الرغم من قرب العهد بين الجميع كما ان اتصال ابن يجبش بزاوية بوقطوط قد يكون بعد رحلة الشيخ زروق الى الديار المقدسة

ثم ان موت الجزولى فى هذا الظرف بالذات قد يكون هو الآخر مما منع ابن يجبش من اخذ مكانه فى كتاب ممتع الاسماع ، وحال من بعد بينه وبين ان يكون فى عداد ما كان للجزولى والتباع من الاتباع

اما اتصاله بالشيخ ابراهيم التازى فيضع لنا علامة استفهام اخرى ، وملخصها ان أبا اسحاق لم يبلغ الى درجة الاستاذية ولا عرفت صديقيته الى أن رحل الى الشرق (3) اذ هناك اتصل بنظيره فى العلم والدين الولى

(1) مناقب الشيخ الحضيكى ج 2 ص 17 وما يليها
(2) ممتـع الاسمـاع ص 11
(3) نيـل الابتهـاج ص 55

الصالح الزاهد الناصح احمد الماجرى (1) ثم لبس الخرقة واخذ حديث المشابكة واتصل بالشيخ ابى عبد الله محمد بن عمر الهوارى الذى كان السبب فى اخذه الى وهران التى عرف بها بخليفة الشيخ الهوارى ومن هنا ايضا امكن له الاتصال بعلماء اجلاء آخرين من امثال خاتمة علماء تلمسان الشيخ ابى عبد الله محمد بن مرزوق ومن خلال ما ذكر نرى ان الخطوات العلمية المهمة للشيخ التازى كانت خارج التراب المغربى ، ولا يعرف عنه فى المغرب الا انه اشتهر بالتازى لولادته بتازا ، وان اصله من بنى لنت من قبيلة التسول ، وانه قرأ القرآن بتازا على العالم الصالح الولى العارف ابى زكرياء الوازغى، وان هذا الشيخ كان يعتنى به على صغر سنه.

ومع اعتبار ان وفاة الشيخ ابراهيم التازى كانت سنة 866 ه ووفاة ابن يجبش كانت سنة 920 ه نرى انه من المستبعد ان يكون ابن يجبش قد أخذ عنه قبل رحلة هذا الاخير اليه وازاء هذا لم يبق الا النظر فى امكانية رحلة ابن يجبش ، ولكن الى اين ؟ ا الى الشرق ؟ ام الى تلمسان فقط ؟ أما تلمسان فقد يرغمنا على الوقوف بها معاصرة ابن يجبش لمحيى الدين والسنة ابى عبد الله محمد بن يوسف السنوسى ، على حد تعبير الشيخ الحضيكى فى مناقبه ، وحتى صاحب نيل الابتهاج فقد ذكر نقلا عن الامام الملالى ان لابن يجبش قصائد فى مدح تآليف الامام السنوسى ومراسلات معه (2)

وقد احتفظ كل من الشيخ الحضيكى وصاحب الدوحة ببعض هذه المراسلات ، ومن خلالها يمكن التعرف على العلاقات الطيبة التى كانت بين هذين الرجلين ، وهى علاقات من البعيد ان تنشأ بينهما بدون سابق تعارف

---

(1) حفيد الشيخ ابى محمد صالح دفين رباط آسفى وممدوح الامام البوصيرى بيائية طويلة مطلعها :

تفا بى على الجرعاء من جانب الغرب ففيها حبيب لى يهيم به قلبى
قريب الى سرى بعيد مرامه فنيت به وجدا على البعد والقرب

الى ان قال

حكى صالحا فى قسمة لماء بينهم وان كان منها صالح كامل الشرب

(المنهاج الواضح فى تحقيق كرامات ابى محمد صالح ص 52 وما بعدها)

(2) نيل الابتهاج ص 334

ولا اتصال ، وفيما يلى مراسلته الاولى التى وجهها الى الامام السنوسى حينما وجه اليه هذا الاخير عقيدته الصغرى ، وهى عندهما بمثابة ما نسميه اليوم بالتقريض :

صاغ الامام الاوحد الحبر الرضى ... عز العلوم ومبطل الشبهات
نجل الكرام محمد بن الشيخ ذو ... الافضال يوسف معدن البركات
الطاهر الاصل الشريف المرتضى ... الصالح المبرور فى الدعوات
دررا تفوق محاسن الدرر التى ... قد تقتنى دخرا الى الفاقات
بل لا يماثل حسنها اذ هى من ... اغلى الوسائل مطلبا للذات
او هى موصلة المريد لما رجا ... من فتح انوار وفيض هبات
وحصوله فى مأمن من خوفه ... وذهاب شك مفسد الحسنات
من كل نوع صاغ منها جملة ... بقواطع البرهان ملتحفات
بهرت عقول العارفين وكل من ... قد انصف الهدى لمختفيات
شهدت له بكامل عقل راجح ... وتمام معرفة وحسن ثبات
وصفاء قلب مع نفوذ بصيرة ... وصفاته يا صاح خير صفات
فالله يحفظه ويبلغ قصده ... ويحله فى أرفع الدرجات

الى ان قال

والعبد يطلب من صفاء كما لكم ... ان تدركوه بصالح الدعوات
فعساه يبلغ ما رجا من ثوبه ... وجميع ما يقضى بخير نجاة
يا رب بلغنى الذى (نويته) ... فى هذه الدنيا وبعد مماتى (؟)
وامنح لنا مما منحت ذوى التقى ... واصفح لنا عن جملة الهفوات

وفى الختام ذيل هذه القطعة بقوله (فجزاكم الله يا نعم السيد عن انفسكم وعن المسلمين بأفضل ما جازى به اولياءه المتقين ، لقد بولغ المجهود فى نصحكم للمسلمين وبينتم ما اشكل على كثير من المتقدمين والمتاخرين ، نظمتم ما كان متفرقا من تلك الدرر ، واظهرتم ما كان مختفيا من تلك الغرر ، فبرزت مقنعة بجلابيب تلك العبارات ، منخرطة فى سلك أساليب تلك الاشارات متمنعة على كل طفيلى لا يقدر قدرها ولا يسلك وعرها ، قائلة

بلسان حالها ، ومعبرة عن مقام من ابرزها فى حسن جمالها بقول القائل

فشأن فحول أهـــل العلم شأنـــى وشـــأن البسط تعليـــم الصغـــار

وقد يبدو فى هذه المراسلة شىء من التكلف غير يسير ، وهو عنـــدى اما راجع الى أن صاحبها نظمها وهو فى بدء حياته الشعرية ، أو انه كما اشار الى ذلك الشيخ الحضيكىكان متأثرا بما للششترى من قطع وزجليات، وهذا الجانب وان كان عندى بعيدا ، فانه لا يخلو هو الآخر من الاهمية ، وذلك نظرا لما كان لقطع الششترى من مكانة فى نفوس هؤلاء القوم ، وعلى راسهم الشيخ زروق الذى خصها بشرح مهم ، ونظرا من جهة اخرى لما عرف عن ابن يجبش من اهتمام بالنسج على منوالها وذلك مثل قوله

خـــرجنـــا واحـــد الصبـــــاح نشاهـــد روضـــــة بهـــيـــــة
واطيـــار تشهـــد يـــا صـــــاح للـــــه بـــالـــوحــــدانـــيــــة

وفى كلتا الحالتين فان مراسلات ابن يجبش مع الامام السنوسى كانت قبل موت ابن يجبش بنحو ربع قرن ، وهى مدة كفيلة بأن يتقـــدم الفكـــر اثناءها ، ويتغير الاسلوب من حال الى حال

ولتصح المقارنة ، فاستمع الى مراسلة ابن يجبش الثانية التى وجهها الى الامام السنوسى ، حينما بلغه هذا الاخير عقيدته الاخرى ، فانها على أى حال اكثر جودة مما سبق

وفريدة صاغ الامـــام المـــرتقـــى العـــالم الحبـــر التقـــى الامجـــد
نجل الكرام الصالحين ذوى العلى الطاهـــر الاصل الشريف محمـــد
بحـــر العلوم ومعدن الاسرار من بين الانـــام وعصره والمـــرشـــد
لو ابصرت عيناك حسن عقيـــدة قد صاغها هذا الامـــام الاوحـــد
لرأيت ما يجلى القلوب من الصدا وينيلها نـــورا حكـــاه الفـــرقـــد
فعليك يا نعـــم الحبيب بدرسهـــا تدرك فوائد دونهـــا لا تـــوجـــد
فى شرحهـــا ظهرت غرائب علمـــه فاقصد وردها فهى نعم المـــورد
عول علـــى كتب الامـــام فانهـــا تغنيك عن طلب الشيوخ وترشد

اذ ما يكون من القلــوب بــروزه ... فالقلب يقبــل ما يقــول السيــد
فالله ينفعــه وينفــع كــل مــن ... قد رام مــا قد صاغــه ويؤيــد
وينيلــه اجــرا عظيمــا دائمــا ... ويحلــه حيــث النبــى محــمــد
فعليــه من رب العلــى صلواته ... ما دام فى أعلــى الجنــان مخلــد
ثم الرضى عــن آلــه مع صحبه ... والتابعين ومن لهــم قــد يسنــد

والمتأمل فى المراسلتين معا يتبين له ان الثانية اجود ، وان كانت اقرب الى النظم منها الى الشعر، وادنى الى اسلوبالفقهاء منها الى وثبات الادباء، وعلى الرغم من ان الخير ما زال أمام ، فان الذى يهمنا الآن هو ان هذه المراسلات، هى دارت بتلمسان بلد الامام السنوسى، أم كان كل من الرجلين مستقرا ببلده ،والكتب والمكاتبات هى التى تغدو وتروح؟ (1) وبالنظر الى الافتراض الثانى ارى انه ليس بالمستبعد ، وذلك نظرا لما كان بين تــازا وتلمسان من اتصال وانفصال ، واختلاف وائتلاف فى شتــى المجــالات العلمية ، ما زالت آثار بعضها شاهدة حتى الآن

ورغم هذا فاننى أرجح كفة الافتراض الاول ، الذى يتلخص فى كون الاتصال بين الرجلين كان مباشرا ، وذلك لعدة أسباب ، من بينها أن نص المراسلتين السابقتين ليس بها ما يفيد ان كلا منهما كان منفصلا عن الآخر ، بل على العكس وخصوصا عند قول ابن يجبش :

لو أبصرت عيناك حســن عقيــدة ... قد صاغها (هذا الامام الاوحــد)

والسبب الثانى انهما معا تلمذا على الشيخ ابراهيم التازى ، وكمــا

---

(1) لم يختص ابن يجبش بمكاتبة الامام السنوسى ، فقد كان الشيخ أبو اسحاق ابراهيم ابن هلال السجلماسى ، هو الاخر يكاتبه ويسأله عن مسائل فقهية وغيرها وبين يدى ضمن مجموع مخطوط رسالة للامام السنوسى يجيبه فيها على عدة مسائــل ويعلمــه بتآليفه التام منها وغير التام ، ومن خلالها يمكن التعرف على أن ابن هلال كان يعرف بالزلماطى ، وان للامام السنوسى زيادة على كتبه المعروفة شرح ارجوزة أبى عبد الله محمد بن العباس سماها (كفاية الطلاب ، فى علم الاسطرلاب) ثم شرح على جواهر العلوم قال عنه الامام السنوسى ، انه (عجيب جدا فى ذلك الفن) ، الا أنه صعب متعسر جدا على الافهام . وتحت يدى للشيخ ابراهيم بن هلال كتاب مخطوط فى نسختين متباينتين يحتوى على فتاوى وتنبيهات ، استهله بقوله (الحمد لله الذى باسمه يبــدا ويستفتح كل ما له بال من الامور ، وبذكره تطمئن القلوب وتنشرح الصدور) .

سبقت الاشارة ، فان هذا الاخير لم يرشح للاستاذية الا بعد ما حج وجاور، ودرس على كبار الشخصيات العلمية ثم رجع الى تلمسان ومنها الى وهران التى اصبح فيها يعرف بخليفة الشيخ الهوارى ، ومن هنا فلا مجال لاخذ ابن يجبش عنه الا بعد الرحلة اليه

واخيرا لا بد من الاشارة الى أن الامام السنوسى أهدى لابن يجبش كتابه الاول، ثم الثانى ،وكانت الاجابة عنهما فى فترتين متباينتين، بدليل تباين مستوى مراسلتى ابن يجبش فى الموضوع وباعتبار أن الامام السنوسى كان من مواليد سنة 832 هـ وشرع فى التأليف وهو ابن تسعة عشر عاما (1) اى فى حدود سنة 851 هـ يمكن القول بأن ابن يجبش قد استقبل كتب السنوسى وهو فى مستهل الشباب (2)

اما رحلته الى الشرق ، فلم اجد من الحجج (المادية) ما يبررها ، هذا مع العلم بأن الجارى على السنة العامة ، هو أنه حج وأعاد ، والجميع متفق على تسميته (امام مكة) ولهم فى هذه التسمية أو معها عدة كرامات يتحدث بها الخلف عن السلف ، والجميع يذكرها بكامل الهيبة والتقديس وهل يمكن لى أن أعتمد على هذه الاشاعات ، بدعوى أن الاشاعة عند المؤرخين كما يقال تساوى نصف الحقيقة ؟ الجواب بالطبع لا ، وان كنت فى قرارة نفسى أنظر الى كرامات الاولياء نظرة تقدير واجلال اما على هذه الصفحات فليس لدى ما أبرز به رحلة ابن يجبش الى الديار المقدسة ، ولم أجد فيما عثرت عليه من مراجع من أشار اليها ، ولا ذكر انه حج أو جاور أو لبس الخرقة ، هذا مع العلم بأن بين يدى بعض حفدته أبياتا يستفاد منها انه قالها بمناسبة سفره لاداء فريضة الحج وهى

استودع اللــه أولادى وأمهــم	والــدار والاهل والابناء والجسدا
والعلم والجــاه والاخوان كلهــم	والصحب والصهر والجيران والبلدا

---

(1) الطب والاطباء بالمغرب للاستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص 45

(2) الامام السنوسى توفى سنة 895 وابن يجبش 920 هـ بمعنى انه عاش بعده ربع قرن .

وكل ما انعـــم البارى على بـــه   فهو الحفيظ لما استودعته أبدا (1)

ورغم صريح العبارة فى هذه الابيات بوداع الاهل والاولاد ، وكل ما انعم الله به عليه الى الابد ، فان المرجح عندى انه قالها بمناسبة سفره من اجل اداء فريضة الجهاد بمدينة أصيلا على اثر احتلالها من طرف البرتغال والذى يؤيد هذا أن وصفه الآتى لمدينة أصيلا وما عاين فيها وفى أسواقها ومساجدها من ويلات كان وصف مشاهدة وعلى العكس من ذلك كتابـــه (ارشاد المسافر للربح الوافر) الذى كما يبدو من اسمه الفه فى السفر ، فهو خال بالمرة من أى وصف لما تحتوى عليه الديار المقدسة من مشاهد وآثار.

وهكذا فاننا من خلال ما سبق نرى أن ابن يجبش تقلب فى شتـــى الميادين العلمية واحتك بالكثير من رجال التصوف وائمة العلم الكبار من أمثال الشيخ ابراهيم التازى والامام السنوسى وقد مر من ذكرهما ما مر ، ثم الشيخين الزيتونى والقسمطينى اللذين يعتبران همزة وصل بينه وبين الشيخ الجليل أبى العباس أحمد زروق ، وكفاه بهذه الاستاذية وهذا الاحتكاك فضلا وشرفا ويكفى أن أشير هنا الى أن مكانة ابن يجبش العلمية ادت به الى التجرد للرد على البيتين اللذين ذكرهما الزمخشرى فى الطعن على اهل السنة ، ولو توصلنا الى هذا الرد لتعرفنا بواسطته على وجه لهذا الرجل جـــديـــد

وعلى اى حال فانا نرى أن جميع من تعرض الى ابن يجبش يذكـــره الى جانب ما عرف عنه من صلاح واصلاح بتعابير تـــدل على أن مكانتـــه

---

(1) هذه الابيات عبارة عن نظم لما جاء فى الحديث النبوى الشريف حيث قال صلى الله عليه وسلم   ما استخلف رجل على أهله خلافة افضل من ركعتين يركعهما اذا أراد الخروج الى سفره فيقول عند التوديع اللهم انى أستودعك اليوم دينى ونفسى ومالـــى واهلى وولدى وجيرانى واهل خزانتى الشاهد منا والغائب وجميع ما أنعمت به على ، اللهم اجعلنا فى كنفك ومنعتك وعياذك وعزك   عز جارك ، وجل ثناؤك ، وامتنع عائذك ، ولا اله غيرك توكلت على الحى الذى لا يموت ، الحمد لله الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرا ، الله اكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة واصيلا

العلمية والادبية كانت من الاهمية بمكان فهو عند صاحب نيل الابتهاج (فقيه أديب ناظم ناثر ، نحوى عروضى) والشيخ الحضيكى يصفه بالامام البارع النحرير الصوفى المحب العاشق ويزيد قائلا (كان رضى الله عنه من أكابر العلماء العارفين وممن غمر فى مشاهدة الجمال والجلال وكان فصيحا ماجدا صوفيا له شأو فى ذلك لا يدرك) وبالجملة يقول الشيخ الحضيكى (فهذا الشيخ نعم الرجل من ساد نأجاد وان اتكأ عليه الزمان كان له نعم الوساد ، وله تآليف جياد حرض فيها على الجهاد فى سبيل الله تعالى وله توشيحات وقصائد ومقطعات رائقة ، وله على بردة المديح تخميس عجيب ، وله فى علم التصوف كلام عال وباع مديد وقدم راسخ يأتى فيه بالعجب العجيب نظما ونثرا وكراماته وفضائله وبركاته عظيمة جمة (1) فى حين أن صاحب الاستقصا نراه يصفه (بالشيخ المتفنن البارع الصوفى) (2) ثم ينقل بعد هذا كلام ابن عسكر فى دوحة الناشر حيث قال (وقفت له على تأليف الفه فى الحض على الجهاد فى سبيل الله فكان مما ينبغى أن يتناول باليدين ، ويكتب دون المداد باللجين أودعه نظما ونثرا)

ولا شك أن هذه الشهرة الكبيرة والفضل المتفق عليه لم يكتسبهما الا بعد كفاح مرير ، وجهاد فى حلقات الدرس والتحصيل طويل ، اذ بهما ذاع صيته وانتشر ذكره وطبقت شهرته الآفاق

وبقطع النظر عن صفاته الخاصة والعامة ، ومكانته فى علمى الشريعة والحقيقة فان العارفين من معاصريه نظروا اليه على انه الصلة الواصلة بينهم وبين من تقدم من الشيوخ سيما وان هؤلاء الشيوخ الذين كانت بينه وبينهم علاقة من قريب أو بعيد ، كانوا يعتبرون من الرجال الذين يبعث الله الواحد منهم على رأس كل مائة سنة فما بالك بهم وقد اجتمعوا كلهم فى ظرف متقارب ، وأمكن لابن يجبش أن يصل وينهل من معينهم المتدفق

---

(1) مناقب الضحيكى ج 2 ص 21 و 22

(2) ج 4 ص 112 .

الرقـــراق (1) ؟

وهكذا نجده ما أن استقر بمدينة تازا ــ مسقط راسه ــ حتى قصده طلاب العلم والمعرفة من كل مكان وارتوى من بحره الفياض عدد من الرواد الذين كان لهم من بعد فى شتى المجالات شأو بعيد ، بل كان من بين تلاميذه من استطاع التأثير على امتداد سير التصوف وتطويره بهذه البلاد وناهيك بأستاذ يشد الرحلة اليه شيخ كأبى عبد الله محمد الطنجـــى المعـــروف بالهبطى (2) ، ليأخذ عنه ثم لم يمكث بجانبه الا قليلا ، نظرا لكونه وجده فى مرض موته (3) والذى يهم الآن انه (قصده فى أول أمره بمنزله بتازا ، فوجده مريضا ، وكان يدخل اليه مع العوام وتأخر يوما عنهم فى الخروج فمازحه الشيخ ابن يجبش فى حكاية معروفـــة) على حـــد تعبير صاحب المـــرآة (4).

ومرة اخرى دخل عليه كما يحكى الشيخ الهبطى نفسه حيث قال (دخلت يوما على أبىعبد الله محمد ابنيجبشفى منزله بتازا وقد تمرضفوجدته جالسا فى فراشه ، فسلمت عليه ، وقلت له يا سيدى ما معنى الوصال ؟ فقال الوصال وما زال يمد لسانه به حتى سقط مغشيا عليه) (5) وقد كان من الممكن أن يجيبه هكذا فيما لو سأله عن معنى الحب أو الهجر أو التجلى أو الاشراق ، وما ذلك الا لانها فى نظره تعابير عطرية تشم ولا تفرك ، ولعل هذا ما أراد أن يلقنه الشيخ لتلميذه ، ان لم تكن هذه على الاصح هـــى طريقته المفضلة فى التربية والتعليم

وقبل الشيخ الهبطى كان من الملازمين لحلقات الدرس أمام ابـــن يجبش تلميذ آخر أو مريد كان له من بعد على التصوف فضل لا ينكر ، واعنى به أبا العباس أحمد بن عبد الواحد الشريف الجوطى المكناسى الشهير بالشبيه

(1) بالنظر الى الاجواء العلمية التى عاصرها الامام السنوسى بتلمسان يمكن لنا ان نصور الحلقات الدراسية التى تقلب فيها ابن يجبش واستفاد منها وافاد
(2) المتـــوفى سنـــة 963 هـ .
(3) ممتـــع الاسمـــاع ص 75
(4) مـــرآة المحـــاســـن ص 15
(5) منـــاقب الحضيكـــى ج 2 ص 17

احد شرفاء مكناسة الزيتون   ووجه اهمية هذا اللقاء يكمن فى أستاذية هذا الاخير من بعد لابى زيد عبد الرحمن بن عياد المعروف بالمجذوب ، وعـــن هذا اخذ الشيخ ابو المحاسن صاحب زاوية مخفية بفاس (اذ لا ينتسب الا اليه ولا يعتمد فى هذا الشأن الا عليه) (1) واعتمادا على هذا النسب دفع الانصاف مؤلف مرآة المحاسن الى الاعتراف بما بين جده أبى المحاسن وبين ابن يجبش من أبوة روحية وذلك فى معرض حديثه على كرامات جد صاحب المرآة حيث قال   (ان صاحب مدينة تازا كان له ولدان نسب أحدهما للاخر ما تقتضى الغيرة قتله بسببه ، ففر المتهم الى روضة الشيخ الولى الشهير ابى عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش رضى الله عنه ونفعنا ببركته، فتبعه أخوه واخرجه وقتله، فأقعد القاتل وتعذر برؤه فجيىء به الى فاس وحمل الى الشيخ (أبى المحاسن) مقعدا لا يقدر على القيام ، فقام ساعة عند الشيخ وقال له   قم ، فقام ومشى على رجليه ولم يبق به شىء مما كان به ، وحضر لذلك جمع كبير من الناس شاهدوا منه آية من آيات الله تعالى ظاهرة للعين ، وزاد قائلا   (وغير بعيد شفاعة الولد عند أبيه وجواز دالته عليه ، فان الشيخ أبا المحاسن أخذ عن الشيخ المجذوب، عن الشيخ أبى العباس أحمد بن عبد الواحد الشريف الجوطى المكناسى الشهير بالشبيه عن الشيخ أبى عبد الله بن يجبش رضى الله عنهم ونفعنا ببركتهم اجمعين) (2)

---

(1) مرآة المحاسن ص 11
(2) مـــرآة المحـــاســـن ص 77

ابن يجبش من خلال قوال المؤرخين

من خلال الاشارات السابقة نجد ان الصفات التى اضفاها بعض المؤرخين على شخصية ابن يجبش تتناول عدة جوانب فهو عندهم (عروضى نحوى ، فقيه ، صوفى ، ناثر) وهناك صفات اخرى وان كانت فى جوهرها تدل على التقدير والاحترام فهى فى نفس الوقت صفات عامة وصالحة لتطلق على أى مثقف كان ، وذلك مثل النحرير البارع المتفنن الذى كان له شأو لا يدرك ومن هنا فاننى سأترك هذا النوع جانبا وسأحاول أن اظهر الى اى حد كان ابن يجبش يتفق مع الصنف الاول من الصفات وليكن البدء بلفظه (العروضى) على الرغم من أنها عند الكثير ليست من النوع المهم ،وحجتهم فى ذلك أن العلم الذى يقرأ ولا ينتفع به هو علم العروض. ولو كان اتقانه أو الالمام به مفيدا لصاحبه ، أو يعين على تنمية الملكة الشعرية لاعان الخليل ابن أحمد الفراهيدى ووضعه على راس لائحة الشعراء واعتمادا على ما ذكر ، فان صفة العروضى ليست فى نظر هؤلاء من ذوات البال ، وعلى الرغم من ذلك فان وجودها عندى الى جانب المترجم له قد تنفع ولا تضر ، ولا أنكر انها كانت من بين ما اعتمدت عليه من الادلة حينما قلت ، ان مراسلة ابن يجبش الاولى مع الامام السنوسى كانت فى بدء حياته الشعرية ، والا فلا يتصور من الرجل العروضى أن يقع فى مثل ما وقع فيه ابن يجبش فى تلك المراسلة من تكلف ؟

اما النحو فقد كان الوصف به الى عهد قريب يحسب له الف حساب .

الا أنه الآن ويا للاسف ذاهب للاندثار ولم يبق الوصف به ولا حتى بالعروض معمولا به ، وذلك نظرا لكون الواضح من النحو ومبادىء القواعد قد اغلق الابواب فى وجه المتن والشرح والحاشية ، ومن هنا فلا مجال للخوض عند البعض فى هذه النقطة هى الاخرى مع العلم بأن وجودها الى جانب المترجم له قد ينفع هو الآخر ولا يضر ، وبيان ذلك أن النحو والعروض بلا شعر احسن بكثير من الشعر بلا نحو ولا عروض ، أما اذا اجتمع الجميع فى شخص واحد كما اجتمع عند ابن يجبش ، فهذا ما يدفعنا الى الجزم بأن صاحبنـــا لم يرسل الكلام حوله جزافا

واذا ما انتقلنا الى ابن يجبش الفقيه نجد أن برنامج هذه الصفة كان فى الزمن القديم يتطلب من صاحبه أن يكون دائرة معارف أو قريبا منها على الاقل ، اذ عليه زيادة على ما يتعلق بالفقه ومذاهبه من اختلاف وائتلاف أن يكون ملما بأسرار البلاغة والتفسير والحديث وعلم الكلام وشىء من السيرة النبوية وما يتبعها من تاريخ الايام الاولى للاسلام على اقل تقدير واعتمادا على ما سيأتى لابن يجبش من انتاج فاننى أعتقد انه كان فيما ذكر طويل الباع ، قوى الذراع ، والا لما جاز له بأى حال من الاحوال أن يتصدى للتدريس فضلا على أن يوصف من طرف من ارخوا له بصفة فقيه ، اقول هذا وانا أكاد اقتنع بأن وصف ابن يجبش بالفقيه يكفيه ، الا أن جانبه الشعرى منعنى من الوقوف به عند هذا الحد وكيف لا يمكن لى أن ازيد وحرب الاعصاب بين الفقهاء والشعراء ما زال لها فى كل ناد رنين ؟ وملخص هذه الحرب أن طائفة من الفقهاء وعلى راسهم الامام الشافعى كانوا وما يزالون ينظرون الى الشعر والشعراء نظرة شزراء وكذلك كان الشأن وما يزال بالنسبة لبعض الشعراء فهم ينظرون الى الفقهاء نظرة لا تخلو من التحفظ والارتياب. ورغم ما قد يمكن أن يراق حول هذه النقطة من مداد ، فان الذى يهم الآن هو أن التضلع فى الفقه وما يتعلق به من أصول وفروع لم يسبق له على ما أرى أن عطل موهبة ولا أفسد لشاعر من الشعراء ملكة بل على العكس فان الشاعر الفحل هو الذى يدخر كل شىء ثم يستعين من بعد بكل شىء

على الانفاق   وما اظن ان كبار شعرائنا الاقدمين وحتى المحدثين قد خرجوا عن هذه القاعدة وان من يلقى نظرة على ديوان المتنبى (مثلا) سيجد ان صاحبه كان بأسرار الفقه خبيرا وهذا ما يمكن ان يلمس فى قوله

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحل دم الحجـاج فى الحـرم

وقـولـه

واخ لنـا بعـث الطـلاق اليـة   لا عللـن بهـذه الخـرطـوم
فجعلت ردى عـرسـه كفـارة   عن شربها وشربت غيـر أثيـم

وقـولـه :

أو حلفوا بالغمـوس واجتهـدوا   فقولهم خـاب شائلـى القسـم

وقـولـه :

ففى تغرم الاولى من اللحظ مهجتى   بثانيـة والمتلف الشىء غـارمـه

وابو العلاء المعرى هل تصرف فى هذين البيتين بغير تعابير الفقهاء ؟

سبح وصل وطف بمكـة راكعـا   سبعين لا سبعا فلست بنـاسك
جهـل الديانة من اذا عرضت له   أطمـاعه لـم يلـف بالمتمـاسك

وابن عطية الشاعر المغربى الكبير بأى نوع من الالفاظ تصرف فـى هـذا البيت ؟

قلت اسمحوا لى أن أفـوز بنظرة   ودعوا القيامة بعـد ذاك تقـوم

والحسن اليوسى صاحب النفس الشعرى الموهوب ، واحد الشعـراء الافذاذ الذين يفخر بهم الشعر المغربى حتى الآن ، هل كان قبل وبعد الا استاذا من اساتذة الزاوية الدلائية ؟ وما لنا نذهب بعيدا وبجانبنا شاعر الحمراء الذى قل من معاصريه من يعرف انه كان يستظهر مختصر خليـل عن ظهر قلب ؟ وقد استطاع به وبغيره أن يستعين على التجوال ، فثاب

من (توبته) (1) وتلاعب بألفاظ الحلال والحرام والجناة والنار (2) ثم عرج على ليلة القدر ، فصاغ بها وبشهر الصوم أروع تشبيه فى المديح حيث قال فى محمد الخامس طيب الله مثواه

رايت ملوك الارض شرقا ومغـــربا واصبحت منهم بالعيان على خبـــر
هم مثل شهر الصوم عزا وانمـــا محمد فيمـــا بينهم ليلـــة القـــدر

وبعد ، فاننى من خلال ما سبق كنت اهدف الى القول بأن الفقه للشاعر يمكن له هو الآخر ان ينفع ولا يضر وانما الضرر فى الحقيقة يكمن فى عدم اهتداء الشخص الى كيفية اضفاء المرونة والحيوية على ما تحتوى عليه ابواب الفقه من تعابير والفاظ

وبقطع النظر عما ذكر ، فاننا لو فرضنا جدلا أن تائية ابن يجبش الآتية تناولها بالنقد اديب لا خبرة له بآراء الفقهاء فى الجهاد ، ولا معرفة له بما ورد فى موضوعه من احاديث وآيات فانه من اول وهلة سيحكم على القصيدة بانعدام الوحدة وذلك حينما يرى أن صاحبها انتقل فجأة من التحريض على الجهاد الى الكلام على ذم البخل والبخلاء ، ويخصص لهذا الموضوع عدة أبيات يحث فيها جمهور المسلمين على البـــذل والسخـــاء فيقـــول (3)

ولا تبخلـــوا بالمـــال وهو لربكـــم وأنتم لـــه فالبخـــل شر سجيـــة
فمن كان ذا مال ولم يك ذا ندى فذلك ممقـــوت خبيـــث الطـــويـــة
لكونه لم يبـــذل لمـــولاه مـــا لـــه أساء بـــه الظن الرديىء السريـــرة
ولم يعلم الممقوت مـــا قد أصابه وما فاته مـــن كـــل خير ونعمـــة

---

(1) بعد رجوعه من الديار المقدسة سنة 1937 نظم قصيدته التى يقول فى مطلعها
(تبت من توبتى فهات اسقنيها)

(2) والاكثر صلة بالموضوع قوله
آه علـــى هـــذا الـــزمـــان واهلـــه آه علـــى مـــن فيـــهـــم يمتـــار
نـــار الجحيـــم بقلبهـــم ولســـانهـــم جنـــات عـــدن تحتهـــا الانهـــار

(3) ومثل هذا يقال ايضا فى النثر حيث نراه فى كتاب الجهاد خصص قسطا مهما منه لـــذم البخـــل والبخـــلاء .

فان الكريم الرازق الخلق كلهـم — يحب الكريم الطبـع ازكى محبـة
يدر عليـه الرزق ما دام منفقـا — ويدعو له الاخوان افضل دعـوة
ويعطيه فى الدنيا جميـع مـراده — ويرضيـه فى الاخرى بأعظـم منية
فشكر ذوى الامـوال لله بذلهـا — الى مستحق فى الامـور المهمـة

ان أول سؤال يتبادر الى الذهن عند هذه الابيات هو ، ما هـى علاقة هذه بتلك ؟ ولماذا كان الشاعر يصف السواحل المغربية وما يبيت فيها للمسلمين من ويلات ؟ فاذا به انتقل فجاة الى الكلام على المل ؟ الشيء الذى يمكن أن ينظر اليه على انه استطراد تأباه القصيدة الشعرية ، وتنبو عنه الاذواق وتتجافاه قرائح الشعراء وعلى العكس من ذلك فيما اذا وضع أمامه ما ورد فى القرآن من آيات لها علاقة بالجهاد فانه سيجد معظمها ورد مقترنا بالحث على الانفاق وبذل المال واعدوا لهم مـا استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما (تنفقوا) من شىء فى سبيل الله يوف اليكم وانم لا تظلمون » « لا يستوى القاعدون من المومنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله (بأموالهم وانفسهم) فضـل الله المجاهديـن بأموالهم وانفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنـى » « لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى » ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » انما المومنون الذين آمنـوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم فى سبيه اللـه أولئك هم الصادقون » وما ذلك الا لان المال قوام الجهاد ، ولولا السخاء به لما كان للمسلمين فى غزوة تبوك ذكر جميل ، ولولاه ايضا لمـا أمكـن لاى جيش من جيوش العالم باسره أن يتقوى أو يقوى على الصمود ، فضلا على أن يتحقق علـى يديه التفوق أو الانتصار

ثم ان ابن يجبش ليست هذه هى الناحية الوحيدة التى التفت فيها هذه الالتفاتة (الفقهية) على حد تعبير بعض الادباء وانما له اشارات

الطف منها واخف وذلك مثل قوله (1)

ايا من يريد الكون فى المقعد الاسنى تقدم تنل منـا الزيادة والحسنى
وتحظى بما ترجوه منـا وترتقـى لا على مقام لا يضـام ولا يفنـى

فخالف هوى النفس المؤدى الى الردى ولا تلتفت شيئا من العرض الادنى
ودع عنك دار الحزن والكرب وارتحل لدار سرور كـل خير بها يجنـى
وسارع الى سكنى الجنان لخاطب وهى تنادى يا خليلى قـد طبنـا
فبادر الينا واغتنم طيب وصلنـا فانا بأسرار المحبيـن قـد بحنـا
بترك الذى يفنى تسير الى المنـى بصبر قليل تدرك الغرض الاسنى
فنسـأل مـولانـا بجـاه نبيـه بلوغ المنـى والعفو عما بدا منـا

ووجه اللطف فى هذه القطعة يتجلى فيما اشتمل عليه مطلعها مـن ترصيع طريف ، وما صاحب هذا الترصيع من جناس وما اشتمل عليه البيت كله من اشارات من طرف خفى للتحريض على الجهاد ، واخيرا كانت آية (الحسنى وزيادة) حاملة معها للسامع اكثر من معنى ، وشاهدة من جهة اخرى على ان ابن يجبش كان حتى فى ميدان الشعر شديد الوثبات

ولا ننسى بعد ما اشتمل عليه هذا البيت

وسارع الى سكنى الجنان لخاطب وهى تنادى يا خليلـى قد طبنـا

من اشارة الى قوله تعالى « سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنات عرضها السماوات والارض » اما قوله (فانا بأسرار المحبين قد بحنا) فانها وثبة اخرى ولكنها صوفية وبما ان الامر هكذا فلا يسعنى ازاءها الا ان اتلطف حتى أخرج من شعابها بسلام ، والا فأنى لى ان استقصى ما اشتمل عليه هذا البيت من نفس صوفى رائع ، وما ورد بين ثناياه ، أو اندس على الاصح ، لاهل العشق من اسرار ؟ اقول هذا مع اعتبار ان مكان هذه القطعة كان من الافضل ان يكون اثناء الكلام على الجانب الصوفى عنـد ابن يجبش ، وقد ارغمنى على الاستشهاد بها هنا ما اشتملت عليه مـن

(1) هذه القطعة وردت فى كتاب الجهاد لابن يجبش

دعوة (ضمنية) للملاءمة بين الفقهاء والادباء ، وقد أحرز ابن يجبش في الجانبين معا على حصة الاسد ، وستبقى وثبته الصوفية هذه زيادة على ذلك ، صالحة للاستدلال على ما كان لصاحبها من قدرة على التحليق هنا وهناك

وفيما يلى قطعة اخرى بعيدة عن موضوع الجهاد ، ولكن الذى دعا الى أدراجها هنا هو أن فيها من الفقه للادباء بقدر ما فيها من الادب للفقهاء وقد التزم صاحبها بدء كل بيت من ابياتها بأحد حروف قوله تعالى « أدعونى أستجب لكم » وهو التزام لم يكن ابن يجبش من السابقين اليه ، خصوصا وان قطعة (1) المعتمد على نفس النسق ، قد سارت بذكرها الركبان واهم ما بين القطعتين من الفوارق يتلخص فى اشتمال قطعة ابن يجبش على ابتهال روحى صرف والاخرى قيلت فى هيام المعتمد بن عباد بحظيته اعتماد ، وقديما قيل (كل يغنى على ليلاه)

ادعوني استجب لكم

الى الله اشكو ما الاقى من الاسى فهو الذى يعفو عن العبد أن اسا
دعوته لى فهو المجيب لمن دعا عسى ابلغ المامول من فضله عسى
عليه اعتمادى فى جميع مطالبى ولكن قلبى من ذنوبى قد قسا
وحقك لا اشكو لغيرك فاقتى وفضلك أرجو فى الصباح وفى المسا
ندمت على ما فات فاصفح بثوبة وسامح عبيدا ضيع العمر فى عسى
يرجى من الرب الكريم نواله ويساله فى وحشة القبر مؤنسا
أمولاى فارحم ذلتى وتضرعى فقد صار قلبى بالمعاصى مدنسا
سالتك بالمختار فامح جرائى ولا تبعثنى يوم حشر منكسا

---

(1) تتميما للفائدة اذكر قطعة المعتمد التى سار فيها على هذا النسق

اغائبة الشخص عن ناظرى وحاضرة فى صميم الفؤاد
عليك السلام بقدر الشجو ن ودمع الشؤون وقدر السهاد
تملكت منى صعب المرا م وصادفت ودى سهل القياد
مرادى لقياك فى كل حين فياليت انى أعطى المراد
اقيمى على العهد ما بيننا ولا تستحيلى لطول البعاد
دسست اسمك الحلو فى طيه والفت منه حروف (اعتماد)

تعــودت من فضل الكريم اجابــة فمهما دعوت الله كربــى تنفســا
جعلته دخـــرى واعتصامى وعدتى فهو الذى غذا وهـــو الـــذى كسا
به أستعين الدهر فى كل حاجــة ومن يستعن بالغير قد صار اخرسا
له الحمد والشكر المبين فمن بنــى عليه فقـــد وافى الصواب واسسا
كمـــا بدأ الاحسان منك تفضـــلا فتممه بالرضـــوان منك تـــأنســـا
مددت يدى فامنن بمـــا قد طلبتـــه ايا من علا عـــن نقصنا وتقدسا

نهضة واسبابها

ليس الغريب ان تنجب مدينة تازا او رباطها على الاصح فى ميدان التصوف رجلا كابن يجبش وانما الغريب فى الحقيقة هو ما يحتوى عليه هذا الاقليم من رجال كبار فى هذا الباب ، وما انجب من اقطاب كان لهم على التصوف أثر لا ينكر فهذا أبو العباس القطب الشهير بزروق (1) البرنوسى الاصل الفاسى الولادة والنشأة المسراتى الوفاة وابوه الشيخ زروق دفين الفلالقة قيادة باب المروج بدائرة تايناست ثم القطب الشهير والصوفى الكبير ابو اسحاق ابراهيم ابن محمد بن على التسولى الاصل التازى الولادة والنشأة نزيل وهران ودفينها (2) وهو غير ابراهيم التازى العالم

---

(1) للشيخ زروق القطب من التاليف ما يلى 1 ــ تعليق على شرح البخارى 2 ــ جزء فى علم الحديث 3 ــ النصيحة الكافية 4 ــ اعانة المتوجه المسكين على طريقة الفتح والتمكين 5 ــ النصح الانفع 6 ــ الاصول فى الفصول 7 ــ عدة المريد 8 ــ قواعد التصوف 9 ــ تحفة المريد 10 ــ الروضة 11 ــ مزيل اللبس عن اسرار القواعد الخمس 12 ــ منهاج حزب البحر 13 ــ اصول التصوف 14 ــ فهرست 15 ــ كناشة 16 ــ شرح الارشاد 17 شرح الرسالة الكبير 18 ــ شرح الرسالة الصغير 19 ــ شرح القرطبية 20 ــ شرح الغافقية 21 ــ شرح المباحث الاصلية 22 ــ شرح الحكم العطائية (فى أربع وعشرين نسخة) 23 ــ شرح الحزب الكبير 24 ــ شرح مشكلات الحزب الكبير 25 ــ شرح الحقائق والرقائق للمقرى 26 ــ شرح قطع الششترى 27 ــ شرح الاسماء الحسنى 28 ــ شرح مراصد ابن عقبة 29 ــ شرح العقيدة القدسية 30 ــ شرح عقيدة الغزالى ، هذا عدا الكتب التى الفت فيه أو تناولت مؤلفاته بالشرح أو التحليل

(2) ابراهيم التازى عالم فحل ، وشاعر مقتدر وصوفى كبير انظر ترجمته كاملة فى نيل الابتهاج والنجم الثاقب فيما لاولياء الله من المفاخر والمناقب وروضة النسرين فى مناقب الاربعة الصالحين لابن صعد ثم مناقب الاربعة رجال المتاخرين للامام السنوسى .

السفير المعروف بابن ابى يحيى (1) ثم ابو عبد الله محمد بن محمد ابن منصور العامرى التلمسانى (2)

وابو العباس احمد البويعقوبى الشهير بالملوى (3) والفقيه الجليل ابو العباس أحمد بن فتوح (4) دفين تازا والشاعر ابو العباس احمد الحبيب اليعقوبى الومغارى (5) دفين الرشيدة بناحية تازة وجده القطب الشهير ابو يوسف يعقوب الومغارى (6) وابو الحسن على بن داوود (7) دفين مرنيسة والشيخ محرز الفجيجى نزيل تازا ودفينها (8) والشيخان ابو على ابن يجبش عم المترجم له وجده ابو زيد عبد الرحمن ابن يجبش دفين روضة أبى الحسن على بن برى (9) ثم هذا الاخير ايضا وتلميذه أبو زيد عبد الرحمن المعروف بابن العشاب ، الى غير هؤلاء من الرجال الذين

---

(1) ابن ابى يحيى التازى العالم توفى بفاس سنة 748 هـ انظر ترجمته فى الديباج المذهب وفى الجزء السابع من نفح الطيب فقد ذكر مع الغرباء من أساتذة لسان الدين ابن الخطيب

(2) محمد بن محمد بن منصور العامرى التلمسانى يعرف بابن الحاج ، وهو صاحب الهمزية التى يصف فيها المراحل التى يقطعها الحاج من تازا الى الديار المقدسة والتى استهلها بقوله

ازمع السير ان دهت أدواء لشفيع الانام فهو الدواء
ذاك ان تستطع اليه سبيلا فلدى المستطيع يقوى الرجاء

(3) ابو العباس احمد بن محمد البويعقوبى الشهير بالملوى نزيل ضفة وادى ملوية ودفينها فيما بين بركين واوطاط ومقامه الصوفى ومكانته العلمية يعرب عنهما هذا الدعاء العجيب (اللهم يا من قامت بوجوده الموجودات فظهرت ذاتها بذاته وصفاتها بصفاته ، فلا هى هو ولا هى غيره ، هى هو باعتبار وغيره باعتبار ، يا من تجلى فى جبريل والماء والثلج وفى النواة والجريد تجل لى بما تسكننى به تحت مجارى أقدارك وحققنى بحقائق اهل القرب واسلك بى مسالك اهل الجذب حتى أدركك بالوجود ولوازم الوجود) وله فى مناسك الحج كتاب ما زال مخطوطا (يسر الله طبعه) استهله بقوله : (الحمد لله المبدىء المعيد) وقد كان حيا فى أوائل القرن الثانى عشر هـ

(4) ابن فتوح كان حيا فى أواسط القرن الثانى عشر له كتاب التعريف المنيف فى مناقب الشيخ الصالح بن المعطى وجده القطب أبى عبيد ، وله فى الشعر مقصورتان الاولى فى الشيخ ابى عبد الله محمد الشرقى والثانية فى نسب أبى القاسم بن محمد الزعرى الولى الشهير ، انظر دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 2 ص 412

(5) له فى الامداح النبوية قصائد رائعة

(6) من شرفاء أمغار أصحاب رباط تيط بناحية الجديدة انظر ترجمته فى كتاب التشوف الصغير

(7) أبو الحسن سوسى هشتوكى من أصحاب الشيخ ابى الشتاء الخمار مات ولم يترك عقبا

(8) الشيخ محرز بن محمد بن على بن احمد بن ابى عبد الله محمد بن يعقوب من شرفاء فجيج

(9) دفين تازا والمتوفى سنة 731 هـ وهو صاحب كتاب الدرر اللوامع فى قراءة نافع .

لا يحصون عددا (1)

والذى يطيل التفكير فى اسباب هذه النهضة يجد من بينها

1) اقتران اسم مدينة تازا بالرباط ، فهى لا تكاد تذكر غير مضافة اليه وبالرجوع الى الصفة التى نشأت عليها الرباطات من أول يوم وما ورد فى شأنها من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تدرك بعض الاسباب التى جعلت من مدينة تازا ملتقى لكبار العلماء والزهاد واهل التطوع والجهاد فى سبيل اللـــه

2) وحتى ممر تازا الشهير جغرافيا كان من بين الاسباب التى عرفتها بكثير من رجال العلم والدين واهل الزهد والتصوف والصلاح وخصوصا منهم من كان يقصدها وهو فى طريقه الى الديار المقدسة حيث يعرج عليها ويتصل برجالها أو يمكث فى رحاب رباطها ما شاء الله له أن يمكث ، وبهذا التلاقى والاحتكاك يكون من الامر ما يكون وهذا ما يشير اليه ابن يجبش نفسه فى كتابه (ارشاد المسافر للربح الوافر) حيث يقول الحمد لله الذى وسم عباده بالعجز والافتقار وجعلهم متقلبين فى قبضة القهر آناء الليل واطراف النهار ، كتب ارزاق بعضهم عند بعض ، وسلط عليهـــم بواعث الحرص على جلبها من سائر الاقطار ليتصل كل واحد بما سبق له فى أم الكتاب وما جرت به الاقدار)

3) نشاط ثلاث دول فى هذا الاقليم من اهم واعظم الدول الاسلامية على الاطلاق ، الاولى دولة الادارسة التى ابتدات مسيرتها المظفرة من اوربة بالبرانس وذلك بمعونة زعيمها اسحاق الاوربى الذى له مع المولى ادريس الاول مآثر لا يتجادل فيها اثنان والثانية دولة بنى مرين وقد سبقت الاشارة الى خطوات بعض ملوكها وعلاقتهم بهذه الناحية اما الدولـــة الثالثة فهى هذه الدولة العلوية الوارفة الظلال اذ من المعلوم أن مؤسسها

(1) وقد ابلغهم البعض الى اربعين شيخا ولكنه اقتصر على من دفن بمدينة تازا امـــا النازحون عنها مع ما يشتمل عليه الاقليم فحدث ولا حرج

وموطد أركانها هو المولى الرشيد الذى طاف أرجاء البلاد كلها واخيرا أنهى جولته الاستطلاعية بالاتصال بأحواز تازا بالشيخ أبى عبد الله محمد اللواتى الشهير بحبه لآل البيت وبينما المولى الرشيد مقيم عنده ذات يوم اذ راى رجلا ذا هيأة من مماليك وأتباع وخيل وهو يصطاد كهيأة الملوك فسأل عنه فقيل له هذا ابن مشعل من يهود تازا فانصرف المولى الرشيد وجعل مدية فى فمه وجاء الى الشيخ اللواتى فلما رآه الشيخ على تلك الحال أعظم ذلك وقال له (المال والرتبة لك يا سيدى فما الذى دهاك) ؟ قال تأمر جماعة من عشيرتك يسيرون معى حتى افتك بهذا اليهودى غيرة على الدين. فوافقه اللواتى على ذلك واستعان المولى الرشيد بمن استعان وقتل اليهودى فى بعض خلواته داخل منزله (1)

وعلى الرغم مما فى مكان اليهودى من خلاف فان الذى يهم هو أن المولى الرشيد استأصل دابر هذا الخطر اليهودى غيرة منه على الدين وشفقته منه على ما يحاك للاسلام فى غيبة عن أهله وما زالت آثار الرشيد بضواحى الرشيدة شاهدة بعظمته وما زالت آبار السلطان التى أمر بحفرها بناحية المريجة تدور على كل لسان واليها يشير ابو عبد الله محمد العامرى السابق الذكر فى رحلته التى يصف فيها المراحل التى يقطعها الحاج من تازا الى الديار المقدسة بقوله

فاذا ما جاوزت تازا فاملل ومن بعد تفرطا فيفاء
ثم فى ابن مسامح ثم منه للمريجات وهى أرض فضاء

4) ويضاف الى هذه الاسباب قربها من فاس عاصمة العلم والعمل من زمان وكذلك الشأن بالنسبة لتلمسان التى توجد بينها وبين مدينة تازا علاقات علمية وسياسية و (عائلية) متينة ، وتشابه فى التاريخ كبير

5) وهناك من يقول بأن مدينة وجدة سميت بهذا الاسم ، نظرا لاجتماع اهل الوجد بها ، وان صح هذا فيمكن أن يضاف هو الآخر الى ما ذكر

---

(1) الاستقصا ج 7 ص 30

من الاسباب (1)

6) واخيرا وليس بآخر ، فقد كان للجامع الاعظم بتازا أثره الكبير فى ازدهار الحياة الفكرية بهذه البلاد ، كما أهله موقعه الحساس ليلعب الدور المنوط به كجامعة اسلامية ، كان لزاما على رجالها أن يواكبوا سير المجامع العلمية فى كل من فاس وقرطبة وتلمسان ، وأن يتعدوا هذا النطاق الى بقية الاقطار الاسلامية الاخرى كما فعل عيسى بن عمران باشبيلية ، وابناؤه ببجاية وتلمسان ، ثم الجزنائى شعيب بتونس ، وكل من ابراهيم التازى دفين وهران بالحرمين ، وسميه ابراهيم التازى دفين فاس بغرناطة.

ومن اللازم ان اشير الى أن تاريخ تأسيس هذا الجامع يعود الى أيام الموحدين على يد عبد المومن بن على سنة 542 هـ ولكن بشكل ابسط مما هو عليه الآن ، وتبعا لما كان لبنى مرين فى هذه المدينة من نشاط ، فقد اتجهت عنايتهم الى توسيعه والزيادة فيه ، زيادة تجعله أهلا لما انيط به وبرجاله من مهام وبقطع النظر عن الآيات البينات من جميل النقش وبديع الزخرف ، التى يتحلى بها المنبر والمحراب (2) وما يليه ، فقد توج الجميع بالثريا النحاسية البديعة الصنع ، والتى يبلغ وزنها 32 قنطارا ، وعدد كؤوسها 514 ، كما بلغ مجموع ما انفق عليها وعلى ما زيد فى الجامع ثمانية الاف دينار ، ورغم أن هذه الثريا نحاسية ، فقد نقش فى أعلى دائرتها ما يلى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، الله نور السموات

(1) فى خزانة الجامع الاعظم بتازا وثيقة تؤكد هذا الرأى وانظر مناقشة فى الموضوع فى كتيب الانتصار فى نقض ابى جندار ص 10

(2) ولروعة هذا المحراب وعظمة الثريا بجانبه لم يتمالك بعض الشعراء أن عدهما من مفاخر تازا حيث قال :

يكفيك يا تازا فخرا ... بمسجد يتباهى
قل نظيره حسنا ... فضله لا يتناهى
محرابه والثريا ... حاز العلى وحواها
قد ابدعت فيه عنزا ... يكفى الفتى أن يراها
أحسنت يا ابن فتوح ... اتقانها فكفاها
تاريخها رشد خير ... لمن تولى بناها
يا رب صل وسلم ... على حبيبك طه

والارض الى نصف الآية الثانية بعد هذه ، وفى اسفلها نجد الثريا تتحدث عن نفسها بما نقش على لسانها من أبيات هذا نصها

يا ناظرا فى جمالى حقــق النظــرا	ومتعى الطرف فى حسنى الذى بهرا
انا الثريا التى تازا بهــا افتخرت	على البلاد فما مثلى الزمــان يرى
افرغت فى قالب الحسن البديع كما	شاء الامير ابو يعقوب اذ امــرا
فى مسجد جامــع للنــاس ابدعــه	ملك اقــام بعــون الله منتصــرا
له اعتنــاء بعــون اللــه يظهــره	يرجو به فى جنان الخلــد ما ادخر
فى عام أربعــة تسعون تتبعهــا	ست المئيــن من الاعوام قد سطرا
تاريخ هذى الثريا والدعــا لابــى	يعقوب بالنصر دابا يصحب الظفرا

هذا بالاضافة الى الثريا الثانية التى هى عبارة عن ناقوس جلب من احدى الكنائس الاسبانية ، وهو من أكبر الاجراس الكنائسية واعظمها ، ويلى ما ذكر أربع رخامات شمسية لاحصاء أوقاة الصلاة ، ثم عدد آخر من اللوحات الزليجية التى نقش عليها الكثير من الحقائق والبيانات والى عهد غير بعيد كان هناك أسطرلاب دقيق الصنع ، بديع الشكل ، وقد ضاع ويا للاسف من جملة ما ضاع من نفائس وأعلاق ، من خزانة الجامع التى لم يبق الآن من مخطوطاتها سوى 49 مصحفا و 32 تفسيرا 109 من كتب الحديث ثم 212 من كتب الفقه والطب والتاريخ والنحو والتصوف ، ومع الصنف الاخير ، توجد بعض مؤلفات الشيخ زروق ، التى شاهدت البعض منها ضمن مجموع ، والبعض الآخر مستقلا

وباختصار ، فهذه نظرة خاطفة كان لا بد منها حول هذا الجامــع الاثرى العتيق ، وما يحتوى عليه من نفائس وتحف ، جعلته قبلة الزوار واهل العلم والمعرفة من كل مكان ، وليس ابن يجبش الا واحد مما ذكر من الرجال الذين كان لهم بفضل هذا المسجد اكثر من ذكر ، كما ساعدت ظروف هذا الاقليم المشار الى بعضها فيما سبق ، على تكوين شخصيتهم العلمية ومركزهم الثقافى المرموق ، فأضافوا بجهادهم المتواصل ، الى الخزانة الاسلامية انتاجا قد يكون بالنسبة للواحد منهم قليلا من حيث الكم،

ولكنه فى مجموعه يكون موسوعة علمية لا يمكن ان يستثنى منها حتى انرياضيات (1) الشيء الذى يمكن ان يكفل لهذا الاقليم الوقوف على تدميه، وذلك فيما اذا فكرت وزارة الشؤون الثقافية فى خلق نظام اللامركزية فيما يتعلق بشؤون الفكر

وتبعا لما يتعلق بهذه النهضة من اسباب ، وما أنجبته هذه البقعة الخصبة من رجال ، رايت تتميما للفائدة أن أشفع ما سبق بقصيدة (على لسان رباط تازا) نظمتها بمناسبة زيارة السيد وزير الشؤون الثقافية والتعليم الاصلى لمدينة تازا فى غضون شهر يونيه 1971 وكان الهدف منها لفت النظر الى ما يحتوى عليه هذا الاقليم من نهضة ، وما يشتمل عليه هذا الرباط من مآثر وآثار

رباط تازا بى التاريخ يزدان ... وقلب ابنائى بالآمال ملآن
نهفو ونرقب من يحيى مآثرنا ... منكم كما يرقب الولهان ولهان
هذى الاكف اليكم مدها ادبى ... شعر ، ونثر ، واسجاع والحان
ومعجزات لها الآثار شاهدة ... وما سوى هذه زور وبهتان
فاسأل بربك تازا عن مآثرها ... فانها لذوى الآثار خزان
من حولها انبثق التاريخ واحتضنت ... ادريس فى ساحتى دار واخوان
وزغردت له قبل الناس أوربة (2) ... والدمع من كثرة الترحيب هتان
وفى بلاط ابى يعقوب ما اكتملت ... الا بعيسى (3) تغاريد والحان
قاضى القضاة ابو الابناء اربعة (4) ... وكلهم لابى يعقوب اعوان

---

(1) لابن هيدور التازى شرح تلخيص أعمال الحساب لابن البناء ، انظر حاشية التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 22 كما يوجد بخزانة القصر الملكى العامر بالرباط تحت عدد 5455 كتاب الاكسير فى الهندسة لابى العباس احمد المعروف بابن القاضى أحد احفاد موسى بن ابى العافية صاحب مكناسة التى توجد على بعد بضعة كلمترات من مدينة تازا (انظر الزاوية الدلائية ص 86 وما بعدها)

(2) أوربة قبيلة بالبرانس بضواحى تازا

(3) هو ابو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميشى التسولى دفين تازا والمتوفى سنة 578 هـ

(4) وأبناؤه الاربعة هم موسى وطلحة وعلى ويوسف وما من احد منهم الا تولى القضاء على حد تعبير صاحب المعجب ص 246 وابوهم كما قال ابن الابار فى التكملة (كان من الراسخين فى العلم قائما على الاصول والفروع اديبا شاعرا خطيبا مفوها من رجال الكمال) وصاحب المعجب يصفه بقوله (كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم ، وكان خطيب مصقعا ، وبليغا لسنا وشاعرا مفلقا مشاركا فى كثير من العلوم

حيث ابن رشد له الحمراء شاخصة   حيرى ، وفكر بنى الانسان حيران
وحيث للشعر رواد ، واصغرهم   اقل ما لـه فى الميدان ديوان
عصر لحكمته تهتاج قرطبة   وتشرئب لها مصر وبغدان
وابن الطفيل (1) ابو بكر له سمة   ترنو اليها بملء العين يونان

* * *

قولوا لتونس ردى ما اخذت فلى   فى قعر بحرك أبطال وفرسان (2)
غرقى هناك ، ولكنى أحن لهم   وكيف لا وهم للعلم أركان ؟
كم فاخرت بهم فاس واخوتها   وهم بفاس يواقيت ومرجان ؟
كانت بهم حلقات الدرس من قدم   تسمو وكان لها من ذكرهم شان
اين الطبيب شعيب(3)ضاع واسفى   ان ضاع من شعره الرقراق الوان ؟
والعالم الماجد ، السطى(4)بجانبه   كأنه وهو فى المحراب ايمان
شيخ ابن خلدون يكفينا ونحن لنا   مع ابن خلدون آثار وبنيان
وان تازة مذ كانت مساجدها   وهى للعلم والآداب ميدان
صان الرشيد واسماعيل حرمتها   وهز اعطافها المولى سليمان
وتوج الحسن الثانى حضارتها   وفى الحضارات اشكال والوان
به تيمنت الاوطان وانطلقت   تبنى ، شعارها تشييد وعمران
فاستشهد الصنع فى تازا وساحتها   يجبك عن حسنها المكنون (حسان)
قصورها الشامخات الشم من قدم   كأنها لمعانى الفن اعلان
وراس مائها جار فى جوانبه   طوفان شلاله الفياض هيمان
فاخضر مربعه الفينان ، وانتظمت   فيه الى جانب الجنات افنان
كأنما الحسن فى (ادمام) (5) مكتمل   وفى (الرشيدة) و (الجوزات) فتان

---

(1) ابن رشد وابو بكر بن الطفيل فيلسوفان شهيران
(2) اشارة الى اربعمائة عالم ذهبوا مع السلطان أبى الحسن المرينى وغرقوا بشاطىء تدلس بتونس : انظر نفح الطيب ج 8 ص 120
(3) الجزنائى الطبيب الشاعر الكاتب وقد تقدم الالماع اليه
(4) ابو عبد الله محمد السطى   انظر الاشارة اليه فيما سبق
(5) ادمام والرشيدة والجوزات ثلاثة امكنة تمتاز بالجمال الطبيعى الخلاب .

ملوية كـم تملى مـن نفـائسه ... فى سفح (بركين) (1) عباد ورهبان
الى المضاجع ما اشتاقت جنوبهم ... ولا استراحت لهم بالليل اجفان
كأن من مائه الفضى قد نسجت ... للنسك أردية بيض وقمصان
وفى مصبه هام الناس وانتعشت ... من شدة الوجد أرواح وابدان
فكان يحيى (2) اذا يدعو لمأثرة ... لباه مفخرة الدنيا ابركان (3)
والعالم الصوفى التازى (4) بجانبه ... وهو من نصرة التوحيد نشوان
من (التسول) رعاها الله فهى به ... سكرى ، ووهران حتى الآن سكران
أعطيت وهران ابراهيم وهو بها ... كما بى اليوم ما أعطت تلمسان
سلو تلمسان عمن منهم عرفت ... وضم من صلحاء القوم بستان (5)
من مثل زروق (6) ، فيما يستدل به ... وهو للبحث والتأليف عنوان
وللتصوف فرد ، لا يضارعه ... فيما يفوه به ، انس ولا جان ؟ ؟
أو كابن يجبش(7)فى الهيجاء وهو له ... مع الصليبية الهوجاء أشجان
مع السواحل حيث البرتغال له ... على الضفاف مع الاسبان سلطان
تازا بها انتعش الاسلام وانطلقت ... منها لفردوسنا المفقود نيران
غرناطة المغرب الاقصى ومسجدها ... من عهد غرناطة حى ويقظان
سما بها منذ كان المسلمون بها ... أعز مما عليه اليوم اسبان
ومن دخائره العظمى خزانته ... ومن رجالاته (قس) و (سحبان)
كالاسد كانوا لعمرى فى عرينهم ... وما تعذر أن يبقوا كما كانوا
وكالشياطين أهل الفن من قدم ... والكل يشهد أن الكل فنان

---

(1) بركين قرية جلية بضواحى تازة ، ذكر فى ناحيتها من الاقطاب ورجال التصوف الشىء الكثير وذلك مثل أبى العباس البويعقوبى الملوى السابق الذكر ، والشيخ ابى القاسم المعلاوى الشهير بازروال وجد الشرفاء الازرواليين الشهيرى الذكر بالمغرب والشيظ مبارك بن وحشى نزيل ملل والشيخ ابى العباس أحمد بن بختى وغيرهم وقد ذكرت منهم طائفة مهمة فى كتاب التشوف الصغير فليمد اليها من يشاء

(2) ضريحه شهير بوجدة والخلاف حوله كثير وبعض الاراء حوله تقول انه من الحواريين

(3) ابو الحسن الشهير بابركان احد اساتذة الامام السنوسى والمتوفى سنة 895 هـ

(4) الشيخ ابراهيم التازى الصوفى دفين وهران سبقت الاشارة اليه عدة مرات .

(5) اشارة الى كتاب البستان فى صلحاء تلمسان

(6) الشيخ زروق سبقت الاشارة اليه

(7) ابن يجبش هو المترجم له فى هذا الكتاب

ومـــا الذيـــن مضـــوا الا أقلهـــم وفى القليـــل لقب المـــرء سلـــوان
والمغـــرب العربى الحـــر من قدم آختـــه أدمغـــة كثـــر وأزمـــــان
نتممـــوا صنع من فاتـــوكـــم فهم من فرط حبكـــم صـــم وعميـــان
وابنوا الهياكـــل للآداب وانطلقـــوا وكلكـــم يا عباد اللـــه اخـــوان
هذا تراث حمـــاة الضاد يرقبكـــم وأنتم لـــه بعـــد اللـــه اعـــوان

ابن يجبش الصوفي

ولنعد بعد الى تصوف صاحبنا ، لنرى كما يقول الشيخ الحضيكى (انه كان له فى هذا الميدان شأن لا يدرك ، كما كان من العاشقين الذين لا يفارقون السماع ساعة ، وهو فى علم التصوف صاحب الكلام العالى والباع المديد والقدم الراسخ الذى يأتى فيه بالعجب العجيب نظما ونثرا).

ويكفى للدلالة على ذوقه الصوفى السليم وحاسته المرهفة حـــواره السابق مع الشيخ الهبطى حينما سأله عن معنى الوصال ، وقد كشف القناع شيئا ما عن اتجاهه الصوفى ونفســه الشعرى فيه ، وذلك فيما ورد من اشارات فى قطعته السابقة

أيا من يريد الكون‌فى المقصد الاسنى   تقدم ، تنل منا الزيادة والحسنى

اما الآن فاننا سنلتقى معه فى قصيدة اخرى من القصائد التى أعتقد اننا سنطلع بواسطتها على جوانب اخرى من جوانب الهيام بحب الله ، وسنرى كيف استطاع صاحبنا أن يسخر الفاظ الحب والغـــرام لفائـــدة التصوف وأن يظهر فيها بمظهر العاشق الكبير ، والموله الخبير بأسرار الحب ودسائس الغرام   ولكن اى حب يقصد واى غرام ؟ ؟ ذلك هو ما ستتولى الاجابة عليه قصيدته المنفرجة بخفة بعض أبياتها وجيماتها الوهاجة وأسلوب صاحبها الاخـــاذ

والجدير بالذكر أن قصيدة (المنفرجة) لم تكن من مبتكرات ابن يجبش ولا من وحى خياله ، وانما كان يسير فيها على نسق نظيره فى العلم

والولاية والصلاح ابى الفضل يوسف المعروف بابن النحوى ، فاليه يرجع الفضل فى تعاطى ابن يجبش لهذا النوع من المعارضة ومن هنا كان لزاما على ، لتتم عناصر المقارنة ، ان اشير الى ان ابن النحوى هذا كان فى بلاده كالغزالى (1) فى العراق علما وعملا وانه كان مجاب الدعوة حتى كان يقال (نعوذ بالله من دعوة ابن النحوى) وقد كان معاصرا للحافظ الزاهد ، ابى الحسن على بن حرزهم (2) الذى قال عنه رغم جلالة قدره (أوصانى ابى ان اقبل يد ابى الفضل متى لقيته ، ولو لقيته فى اليوم مائة مرة (3) هذا وقد كان لابن النحوى تجاه احراق كتاب الاحياء للغزالى ، قصة لخصها صاحب الاستقصا بقوله (ذكر صاحب التشوف بسنده عن أبى الحسن على بن حرزهم قال لما وصل الى فاس كتاب أمير المسلمين على ابن يوسف بالتحريج على كتاب الاحياء ، وأن يحلف الناس بالايمان المغلظة ان كتاب الغزالى ليس عندهم ، ذهبت الى ابى الفضل استفتيه فى تلك الايمان ، فأفتى انها لا تلزم ، وكانت الى جنبه اسفار فقال لى هذه الاسفار من كتب الاحياء ، وودت انى لم انظر فى عمرى سواها) وزاد صاحب الاستقصا قائلا (وكان ابو الفضل قد أنسخ كتاب الاحياء فى ثلاثين جزءا ، فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا) (4)

ومن أسباب نظم ابن النحوى لمنفرجته أن بعض أهله شكا اليه الضيق

---

(1) وحتى الغزالى فقد أورد له الشيخ النبهانى فى كتابه شواهد الحق ، فى الاستغاثة بسيد الخلق (ص) 296 ابياتا من منفرجة بينها وبين منفرجة ابن النحوى شبه كبير الشىء الذى يدعو الى الاعتقاد بأن الغزالى كان من كبار السباقين لهذا الباب كما ساق النبهانى أيضا أبياتا من منفرجة ابن النحوى ونسبها الى الامام أبى عبد الله محمد أحمد بن محمد الاندلسى القرشى نقلها على حد تعبيره من كتاب (سعادة الدارين) وفيما يتعلق بمنفرجة ابن النحوى يمكن مراجعة كتاب أدب الفقهاء للاستاذ عبد الله كنون ص 14 وجذوة الاقتباس لابن القاضى ص 436 ونيل الابتهاج ص 349 والاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام ج 5 ص 325 وعنوان الدراية ص 326 الا ان محقق هذا الكتاب اشار فى هامشه الى ما فى نسبتها لصاحب الترجمة من خلاف وقد قدمت منفرجة ابن النحوى للمقارنة نظرا لما بينها وبين الانتاج المغربى ورجاله من اتصال

(2) هو ابو الحسن على بن حرزهم يتصل نسبه بسيدنا عثمان رضى الله عنه من أكابر عظماء فاس وعلمائها الاجلاء ورغم مشاركته فى علوم الشريعة فقد كان ميالا الى التصوف وتوفى بفاس سنة 559 هـ

(3) نيل الابتهاج ص 330

(4) الاستقصا ج 2 ص 74

من أحد المتظلمين ، وبعد نظمها بيسير ورد كتاب من الظالم بالتلطف (1)

وليس ابن يجبش أول من تناول هذه المنفرجة بالمعارضة ، وانما تناولها كثيرون ، بعضهم بالمعارضة أو الشرح ، والبعض الآخر بالتخميس، وقد استهلها ابن النحوى بهذه الابيات

اشتـدى ازمـة تنفـرجـى قـد آذن ليلـك بـالبلـج
وظـلام الليـل لـه سـرج حتـى يغشـاه ابـو السـرج

ومن الذين تناولوها بالتخميس ، أبو محمد عبد الله بن نعيم الحضرمى القرطبى ، (2) المتوفى سنة 636 هـ والملاحظ انه هو الآخر كان قبل ابن يجبش بما يقرب من ثلاثة قرون ، ومما جاء فيها قوله فى تخميس البيتين السابقين

لا بـد لضيـق مـن فـرج والصبـر مطيـة كـل شـج
وبـدعـوة احمـد فابتهـج اشتـدى ازمـة تنفـرجـى
قـد آذن ليلـك بـالبلـج

يـا نفـس رويـدك لا حـرج وتقـى باللـه عسـى فـرج
وكـذا مـا ضـاق لـه فـرج وظـلام الليـل لـه سـرج
حتـى يغشـاه ابـو السـرج

وقد كتب ابن النحوى منفرجته مع وصية ابتداها بقوله بعد البسملة الحمد لله الحفيظ ، هذا ما أودع العبد يوسف الرب ، الذى خلق الاشياء ورزق الاحياء وملك العالمين وحفظ السماوات والارضين الخ (3)

والجدير بالذكر اننى ما اتيت بما اتيت به حول ابن النحوى ومنفرجته، الا لالقى بعض الضوء على مكانته فى العلم والولاية ، وعلى شهرة منفرجة ،

---

(1) نيـل الابتهـاج ص 350
(2) عنـوان الداريـة ص 325
(3) بقية الرسـالة توجد فى عنوان الدارية ص 332

وما كان لها ولصاحبها فى نفوس الناس من عناية وتقدير وناهيك برجل كانت له حول احراق كتاب الاحياء مكاتبة مع سلطان زمانه ، امير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وذهب اليه ابو الحسن بن حرزهم يستفتيه ، وهو على ما هو عليه من المعية ومكانة علمية ما زال اسمه من اجلهما مضرب المثل عند الناس حتى الآن

ورغم هذا فقد أوصاه ابوه بتقبيل يد ابن النحوى متى لقيه ، ولـــو لقيه فى اليوم مائة مرة ؟ ان رجلا كهذا جدير بالتقدير ، وجدير كذلك بأن يكون لابن يجبش قدوة ، وأن تكون منفرجته موضوع المعارضة من طرفه

وقبل الدخول فى المقارنة بين القصيدتين ، كان من الانسب ان اتعرض لفن المعارضة ، بشىء من القيل والقال ، نظرا لما فيه من تقليد وجمود ، ولكننى خشيت ان اتعرض للوم من طرف (الامراء) من اهل الادب العربى ، خصوصا وأن منهم من شارك فى البيعة بامارة الشعر لشوقى وما زال على قيد الحياة وهل كان شوقى زيادة على الامارة فى الشعر الا اميرا من امراء هذا النوع من التقليد ؟ وعليه فلا لوم عليك يا ابن يجبش فقد (اخذها عنك عكاشـــة) ولا اقول سبقك بها ، لان عصره متأخر عنك ، ولانه زيادة على ذلك كان يعيش فى فجر النهضة وعصر النور والكهرباء ، أما أنت ، فقد عشت فى عصر الركود والظلمات ، ولعل هذا هو السبب الذى جعلك تخلف فى هذا الباب واحدة ، فى حين ان مخلفات شوقى فيه تعــد بالعشـــرات

وفيما يلى منفرجة ابن يجبش وتليها من بعد منفرجة ابن النحوى

اشتــدى ازمــة تنفـــرجــى	قــد ابــدل ضيقــك بالفـــرج
مهمـــا اشتـــدت بــك نـــازلــة	فاصبر ، فعسى التفريـــج يجــى
مـــولاك ارغـــب فجـــابتـــه	للمضطـــــريـــــن علــى درج
والـــح عليـــه بمســـالـــــة	فهـــو الجـــواد فاســال وهـــج
واخلـــص فيمـــا تـــدعـــوه وقـــل	يســـر عســـرى ، وازل حرجــى

لا حيلـــــة لا قـــوة لـــى الا بـــك يـــا محيـــى المهـــج
نفســـى قنطـــت لمـــا مـــرضـــت يـــدهـــا بسطت لـــك مـــن وهج
يـــا ذا الكـــرم ، بـــك معتصـــم مـــن ذى الـــم بـــى ممتـــزج
مـــولاى عبيـــدك فـــى كـــرب نفس كـــربـــا عـــن قلب ســـج
ضاقـــت حيلـــى ، امـــن وجلـــى، بلـــغ املـــى ، عجـــل فـــرجـــى
اذهـــب المـــى ، وازل سقمـــى ، ثبـــت قـــدمـــى ، واقم حججى
بـــرد حرقـــى ، وازل قلقـــى ، حســـن خلقـــى ، وابـــن سرجـــى
مـــن تشف شفى ، من تكف كفى ، فاللطف خفـــى ، فمســـاه يجـــى
بلـــغ اربـــى ، وازل تعبـــى عجـــل طلبـــى ، واجب لهجـــى
وارحم ضعفـــى ، واغفر زللـــى واسمح عمـــا بـــى مـــن عـــوج
واردد عنـــى مـــن يحســـدنـــى مـــن ذى حقـــد أو منـــزعـــج
مـــا اسعـــد مـــن نـــال منـــا ه ، ومـــن يطمـــع فيهـــا يهـــج
ويخـــالف مـــا يهـــوى ، ويســـا بـــق مـــن يرقـــى فـــوق السرج
مـــن جاهـــد نفســـه فـــى عمل يـــرضـــاه حبيبـــه يبتهـــج
وينـــال غـــدا رتـــب الاحبـــا ب ويحظـــى بالمحيـــا البهـــج
مـــن يطمـــع نيـــل مـــودتـــه مـــن بـــاب رضـــاه اذن يلـــج
ويخـــاطـــر فى نيـــل المقصـــود بنفســـه مـــن دون الحـــرج
بمتـــابعـــة المختـــار امـــام الخ ـــلـــق غـــدا يـــوم الـــوهـــج

* * *

بـــادر بـــرضى المحبـــوب تفـــز بجميـــع القصـــد وتبتـــهـــج
فى خـــدمتـــه ، افنـــى جســـدى فعســـى يبـــرينـــى مـــن سمجى
ويحلينـــى بحلـــى الاحبـــا ب ، ويعصمنـــى فأكـــون نجـــى
ويـــدنينـــى لمـــقـــامـــهـــم فهـــو المـــامـــول لمبـــتـــهـــج
وهـــم الاكيـــاس بمـــا فعلـــوا لمـــا اختـــاروا بـــذل المهـــج
ورضـــوا بالـــدون مـــن الفـــانى محبـــوب الكـــل مـــن الهمـــج
فهمـــوا مقصـــود اشـــارتـــه لـــم يشغلهـــم حســـن الـــدعـــج
ولـــه صدقـــوا ، وبـــه نطقـــوا لمـــا سبقـــوا ، للمـــنـــعـــرج
ولـــه عرفـــوا ، وبـــه كلفـــوا حتـــى تلفـــوا ، خـــوف الفـــرج

غــرقــوا فــى بحـــر محبتـــه ... فاستخلصهـــم مـــن كــل شجـــى
شربوا ، سكروا ، غابوا ، ذكروا ، ... طربوا ، ظفروا ، بعلـــى الـــدرج
فبحضـــرتهـــم ، مـــع سيـــدهم ... مـــن بـــرحتهـــم ، صبح البلـــج
لمـــا عرفـــوا ، ما قـــد طلبـــوا ... هـــان المتـــروك مـــن السمـــج
فبحـــرمتهـــم ، وبخـــدمتهـــم ، ... ومحبتهـــم ، سهـــــل نهجـــى
واقطـــع عنـــى مـــــن يقطعنـــى ... عـــن بابك مـــن فتـــن الهـــرج
وامنـــح لعـــبـــدك بغـــيـــتـــه ... وانقـــذ بفضلـــك مـــن لجـــج
واعنـــه علـــى مرضاتك وافتـــح ... للســـائـــــل بـــــاب الفـــــرج
بشفيـــع الخلـــق وسيـــــدهـــم ... يـــا عالـــم سرى فـــى خلـــج
فعليـــه صـــلاتـــك دائـــمـــــة ... وصحـــابتـــه ابـــــدا لحجـــج

وفيما يلى منفرجـــة ابن النحوى

اشتـــــدى ازمـــــة تنفـــرجـــى ... قـــــد آذن ليـــلـــك بالبـــلـــج
وظـــلام الليـــل لـــــه ســـــرج ... حتـــى يغشـــاه ابـــو الســـــرج
وسحـــاب الخيـــر لهـــا مطـــــر ... فاذا جـــاء الابـــــان تجـــى
وفـــوائـــد مـــولانـــا جـــمـــــل ... لســـروج الانفـــس والمهـــج
ولهـــــا أرج محيـــــى أبـــــدا ... فاقصـــــد محـــيـــا ذاك الارج
فلـــربتمـــا فـــاض المـــحـــيـــا ... ببحـــور المـــوج مـــن اللجـــج
والخلـــق جميعـــا فـــى يـــــده ... فـــذوو سعـــة وذوو حـــــرج
ونـــزولهـــــم وطلـــوعـــهـــم ... فـــالـــى درك ، وعلـــى درج
ومعـــايشهـــــم وعـــــواقبهـــم ... ليســـت فـــى المشـــى على عوج
حكـــم ، نسجـــت بيـــد حكمـــت ... ثـــم انتسجـــت بالمنـــتـــســـج
فاذا اقتصـــدت ثـــم انعـــرجـــت ... فـــبـــقـــصـــد وبـــمـــنـــعـــرج
شهـــدت لعجـــائبهـــا حجـــــج ... قـــامت بالامـــر علـــى الحجـــج
ورضـــى بقضـــاء اللـــه حجـــى ... فعلـــى مـــركـــوزتـــه فـــعـــج
واذا انفتحـــت ابـــواب هـــــدى ... فاعجـــل لخـــزائنهـــا ولـــــج
واذا حـــاولـــت نهـــايتهـــــا ... فاحـــذر اذ ذاك مـــن العـــرج

لتكون من السباق اذا ... ما جئت الى تلك الفرج
فهناك العيش وبهجته ... فلمبتهج ولمنتهج
فهج الاعمال اذا ما ركدت ... فاذا ما هجت اذا تهج
ومعاصى الله سماجتها ... تزدان لذى الخلق السمج
ولطاعته وصباحتها ... انوار صباح منبلج
من يخطب حور العين بها ... يظفر بالحور وبالغنج
فكن المرضى له بتقى ... ترضاه غدا وتكون نجى
واتل القرآن بقلب ذى ... حزن وبصوت فيه شجى
وصلاة الليل مسافتها ... فاذهب فيها بالفهم وجى
وتاملها ومعانيها ... تأتى الفردوس وتفترج
واشرب تسنيم مفجرها ... لا ممتزجا وبممتزج
مدح العقل الآتيه هدى ... وهوى متول عنه هج
وكتاب الله رياضته ... لعقول الخلق بمندرج
وخيار الخلق هداتهم ... وسواهم من همج الهمج
واذا كنت المقدام فلا ... تجزع فى الحرب من الرهج
واذا ابصرت منار هدى ... فاظهر فردا فوق التبج
واذا اشتاقت نفس وجدت ... الما بالشوق المعتلج
وثنايا الحسناء ضاحكة ... وتمام الضحك على البلج
وعياب الاسرار اجتمعت ... بأمانتها تحت العرج
والرفق يدوم لصاحبه ... والخرق يصير الى الهرج
صلوات الله على المهدى ... الهادى الناس الى النهج
وابى بكر فى سيرته ... ولسان مقالته اللهج
وابى حفص وكرامته ... فى قصة سارية الخلج
وابى عمرو ذى النورين ... المستحيى المستحيا البهج
(وابى حسن فى العلم اذا ... وافى بسحائبه الخلج)
(يارب بهم وبآلهم ... عجل بالنصر وبالفرج) (1)

(1) ما بين قوسين لا يوجد فى عنوان الدارية

واذا بـــك ضـــاق الـــدرع فقـــل   اشتـــدى أزمـــة تنفـــرجـــى

من خلال ما سبق نرى أن المعارضة تتجلى فى كل من المطلع والبحر والقافية وحتى عدد الابيات نجده متقاربا ، أما الموضوع فيختلف شيئا ما ، واثناءه نرى ابن النحوى يحوم حول الخميرة الاولى للتصوف ويقدم النصيحة تلو الاخرى مشيرا الى بعض الآيات القرآنية من قريب او بعيد واسلوبه وان لم يسلم من بعض القيل والقال اسلوب متضلع بالموضـــوع خبير ، ومنفرجته بصفة عامة نرى أن حظها من الجولات الصوفية أقل مما هو عليه الشأن عند ابن يجبش وقد يكون مرد هذا الى أن التصوف لم يختمر بعد أو لم يحتك فى ميدانه بمثل ما احتك به ابن يجبش من أمثـــال زروق والتازى والسنوسى وما كان لهم وللجزولى والغزوانى والتباع من تلاميذ ومريدين وأتباع ، اذ من معين هؤلاء اغترف ابن يجبش ومن خطراتهـــم الروحانية ارتشف ولكن بالقدر الذى مكنه من المزج بين الحقيقة والشريعة كما ساوى من بعد بين السيف والقلم وبالجميع جرد نفسه للدعوة الـــى تقويم الدين بالدنيا والدنيا بالدين فكان صالحا ومصلحا فى آن واحد

وليس معنى هذا أنه ذو باع فى التصوف قصير ، وانما كان كما يبدو من خـــلال الجـــزء الاخير مـــن منفرجته ، ذا وثبات حلق بها ، أو حلقت به على الاصح ، الى مصاف القوم العارفين   فهو تارة عاشق مولـــه ، واطوار تائه بحب الله ظمآن   وفى كلتا الحالتين يتلاعب بالالفاظ ، وينـــام عن شوارها ملء الجفون   هذا مع العلم بأنه لم يسلم هو الآخر من الوقوع فى مثل ما وقع فيه ابن النحوى من تعثر واقواء

ولعل طبيعة فحوى المطلع ، دفعت ابن يجبش الى التخلص للدعاء ، والاكثار منه لتيسير العسير وازالة الحرج والضيق   فى حين أن ابن النحوى كان هنا أكثر منه تفاؤلا ، ولهذا نراه تخلص بسرعة من الازمة التى عوض ظلماتها بالبلج ، ثم أردفها بهذا البيت العجيب

وظـــلام الليـــل لـــــه ســـــرج   حتـــى يغشـــاه ، ابـــو الســـرج

ووجه الاعجاب بهذا البيت ، انه يذكر بأروع ما ورد فى السمر الليلى للعباد من آيات قرآنية ، وفيه من هذا القبيل اشارات لا يتذوقها الا الذين تجافت جنوبهم عن المضاجع ، فأجهدوا ابدانهم ، وتغلبوا على لذة النوم وجاذبية الفراش ، ثم تواطات حواسهم او كما قال ابو بكر بن العربى (توافق عندهم السمع لعدم الاصوات ، والبصر لعدم المرئيات ، والقلب لفقد الخطرات) وهنا يصبح الظلام الدامس سراجا منيرا ، وصاحبه يتأتى له أن يغشاه أبو السرج ، والى هذا بالضبط يشير كل من قرأ (وطـــأ) بكسر الطاء من قوله تعالى : « ان ناشئة الليل هى اشد وطأ وأقوم قيـلا ». وما اشار اليه ابن النحوى الا جزء من عشرات الاجزاء مما ينشأ بالليل عند عشاق السمر   ومع من يسمر هؤلاء العشاق يا ترى ؟ وبأى لفظ من الفاظ الحب يتهامسون ؟ أبالصلاة وحدهـــا ليستنير جبين أصحابها مما ينشأ على وجوههم من علامات من اثر السجود ؟ أم بها وبالوضوء المشتق من الاضاءة كما يقال ؟ أم باضافتهما معا الى القيام بالليل وقرآن الفجر ، وهو المشهود على وجوه أصحابه الذين يبعثهم الله يـــوم القيامـــة غـــرا محجلـــين ؟ ؟

ارايت الآن ــ وما اظن اننى قد استقصيت ــ كم هى انواع السرج التى تنشأ بالليل ؟ وهل رايت معى الى اى حد استطاع ان يوجز ويصيب ؟ وأن يجمع بين الاصابة والايجاز ، وبين الاسباب والمسببات فى شطر بيت وجيز ؟ ؟ اذا علمت هذا ، فمن باب الاضافة الى المعلومات ، وجب ان اشير الى أن ابن النحوى ، كان من الرجال الذين تتمثل فيهم الثقافة المغربية فى عصر المرابطين ، وهو العصر الذى سخر منه اهل (التمدن) سامحهم الله ، ورموا تراث اهله الفكرى بالضحالة والعقم والجفاف   الشىء الذى انتقلت عدواه الى صاحب كتاب الشعر والشعراء بفاس ، (1) فانكر وجود

---

(1) هو عبارة عن مسامرة لابى العباس بن محمد (فتحا) النميشى الحسنى المولود سنة 1890 القاها باحدى ثانويات فاس سنة 1924 وطبعت فى نفس السنة على الحروف فى جزء وسط (انظر دليل مؤرخ المغرب ج 1 ص 39)

هذا التراث بالمرة ، ولله فى خلقه شؤون

ونعود بعد هذا الى ابن يجبش ، لنرى انه لم يتخلص من أزمتـــه بالسرعة التى تخلص بها ابن النحوى ، وانما انتقل منها الى الحديث عن النفس ، وهى عندنا وعنده اما لوامة أو امارة بالسوء

اما المطمئنة فهى عند ربها راضية مرضية ، ولو لم يكن الامر كذلك لما تعرض لذكر ما الم به منها من مرض ، وكيف لا ، وهو يعيش معها فيما بين حرب وكرب وحرق وقلق ؟ ؟

نفسى قنطـــت ، لمـــا مـــرضت　　　يدهـــا بسطـــت ، لك مـــن وهج
يـــا ذا الكرم ، بـــك معتصـــم　　　مـــن ذى الـــم ، بـــى ممتـــزج
مـــولاى عبيـــدك فـــى كـــرب　　　نفس كـــربـــا عـــن قلب ســـج
ضـــاقت حيلـــى ، امـــن وجلى　　　بلـــغ املـــى ، عجـــل فرجـــى

وبعد هذه الآهات يلتفت الى الدنيا ــ التى لم ينس نصيبه منهـــا ــ فيطلب النجاة فيها من حقد الحاقدين وأحابيل الحساد ، وهما صفتان لم يذمهما احد بمثل ما ذمهما به القرآن ، ويكفى للاشعار بما فيهما من بشاعة واستهجان ، أن سورتيهما فى القرآن تعرف بالمعوذتين

وفى الجزء الاخير من المنفرجة ، يفتح ابن يجبش باب التصوف على مصراعيه ، فيعظ ، ويبهج ، ويشوق ، ويهيج ، ولكن بأسلوب لم يتجاوز به حدود المعقول　 ومن هنا كان غرامه عذبا ، وخطراته الروحانية تغـــرى بالارتشاف　 فالوصول الى الحقيقة عنده هين لين ، وهى نفسها ذات معالم واضحة ، فلا كلفة تحيط بها ولا عناء ، ولا اغراق فى القول والعمل ولا التواء ، وهذا على ما أظن هو التصوف الصرف ،ودعوة الصوفيين اليه بأسلوب كهذا ، كفيلة بأن تجعل بينهم وبين الذين عادوهم منهم مودة

من جاهـــد نفســـه فى عمـــل　　　يـــرضـــاه حبيبـــه يبتهـــج
وينـــال غـــدا رتـــب الاحبـــا　　　ب ويحظـــى بالمحيـــا البهـــج

* * *

بادر بــرضى المحبــوب تفــز بجميــع القصـــد وتبتهـــج

ولامر ما ، وقع كل منهما فى هذا الاقواء الواضح ، ويشاء القدر أن يكون فى لفظة واحدة ، وهذا ما يدعو الى تقبله منهما حتى ولو كان مـــن قبيل اللحن الصريح ، وهو عند ابن النحوى وقع فى قوله

فكــن المــرضى لـــه بتقـــى تــرضـــاه غـــدا وتكون (نجى)

وعند ابن يجبش فى قوله

ويحلينـــى بحلـــى الاحبـــا ب ، ويعصمنـــى فاكون (نجى)

ثم ان ابن النحوى ، تعرض فى آخر منفرجته الى ذكر الصحابة ، وخصوصا منهم الخلفاء الراشدين ثم ذكر أسماءهم واحدا اثر واحد ، فى حين أن ابن يجبش اكتفى بقوله

بشفيـــع الخلـــق ، وسيـــدهم يـــا عالم ســرى فـــى خلجـــى
فعليـــه صــلاتــك دائمــــة وصحــابتـــه ابــد الحجـــج

ولكننا قبل هذا نراه ابتداء من قوله

وهـــم الاكيـــاس بمـــا فعلـــوا لمـــا اختـــاروا بــذل المهـــج

يخطو خطوات صوفية عامة ، وهو بهذا التعميم ، ان كان يتغنى بما يتغنى به أهل التصوف بصفة عفوية ، فذلك الى سياق القصيدة أقرب وان كان يقصد به عموم الصحابة ، وهذا عندى هو المرجح فهو على هذا ، من الذين يقولون بنشأة التصوف فى الاسلام الى ما قبل الحسن البصرى ، ومن هنا فان الجزء الاخير من قصيدته يجب أن يعاد فيه النظر ، وذلك ابتداء من قوله :

ورضـــوا بالـــدون من الفانـــى محبـــوب الكـــل مـــن الهمـــج
ولـــه صدقوا ، بـــه نطقـــوا لمـــا سبقـــوا ، للمنعـــرج

وذلك لانها ، أو لان الوصف بها على الاصح لاهل الصفة أقرب ، اذ هم الذين أحصروافى سبيل الله يريدون وجهه، والى هذاكان يشير ابنيجبش،

الى جانب ما اظهرته هذه الطائفة فى فجر الاسلام من ضراوة واستبسال اقول هذا من غير أن أخرج من الحسبان ، ما ينطوى عليه بعض أبياته من اشادة يبذل المهج والارواح ، وهذا ما يدخل فى صميم اختصاص ابن يجبش الذى يمكن تلخيصه فى التحريض على الجهاد

ويمكن أن يستثنى مما سبق قوله

غرقوا فى بحر محبته	فاستخلصهم من كل شجى
شربوا ، سكروا ، غابوا ، ذكروا	طربوا ، ظفروا ، بعلى الدرج
فبحضرتهم ، مع سيدهم	من برحتهم ، صبح البلج

ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن الانصاف يفرض على أن أشير الى انفراد ابن يجبش بهذه الابيات الدالة على أكثر من معنى ، والجامعة بين ثناياها أهم ما فصله الشيخ الجزولى من صفات العارفين الذين : (أصلحوا ، فلما أصلحوا أخلصوا ، فلما أخلصوا قربوا ، فلما قربوا دخلوا ، فلما دخلوا نزلوا واستقروا ، فلما استقروا تمكنوا وطلبوا ، فلما طلبوا وجدوا ، فلما وجدوا شاهدوا ، فلما شاهدوا دهشوا ، فلما دهشوا ، طاشوا ، فلما طاشوا ماتوا ، فلما ماتوا عاشوا ، فلما عاشوا تكلموا مع الحى الذى لا يموت ، فلما تكلموا استأنسوا) (1)

وكأنى بابن يجبش قد نظر الى كل هذه المعانى بطرف خفى فصاغ منها أبياته التى حتى وان كانت معناها مستقاة مما ذكر فانها ـ داخل المنفرجة ـ بمثابة احدى السجدات ولا اقول بمثابة يا أرضى ابلعى ماءك ، ويا سماء اقلعى ، وكيف لا ؟ وصاحبها كان فيها أديبا بليغا ، وصوفيا فحلا ، وشاعرا يلعب باللفظ والمعنى ، ويسخرهما لما يشاء كما يشاء ولو لم يكن ذلك كذلك ، لما استطاع أن يجمع تلك الدرجات الست فى بيت واحد لا ركاكة فيه ولا تنافر ولا التواء

---

(1) ممتع الاسماع ص 22

تخميس البردة

ومن المنفرجة ننتقل الى تخميس البردة الذى أشار اليه صاحب الدوحة بقوله (وله فى بردة المديح تخميس عجيب) وقد تم العثور عليه بواسطة الاستاذ السيد ادريس بن الاشهب الذى له بالتراث التازى غرام منقطع النظير

هذا وان تعلق ابن يجبش بالمدائح النبوية غير غريب ، وانما الغريب فى الحقيقة هو أن لا يكون من السباقين فى هذا الباب ومرد هذا الى علاقته بالشيخ ابراهيم التازى دفين وهران ، الذى لم تظهر صديقيته كما قال صاحب نيل الابتهاج ، الا بعد ما اتصل بأبى العباس أحمد الماجرى ، حفيد الشيخ ابى محمد صالح دفين رباط أسفى ، (1) وقد سبقت الاشارة الى أن هذا الاخير مدحه الامام البوصيرى بقصيدة بائية سبقت الاشارة الى مطلعها ، ويوجد نصها الكامل بكتاب المنهاج الواضح ص 152 ومن هنا نرى أن الصلة بين الامام البوصيرى وبين رجال التصوف من اهل المغرب لم تكن منقطعة هذا بالاضافة الى شهرة البردة التى طبقت الآفاق ، والتى دفعت الكثير من رجال العلم والادب والتصوف ، الى شرحها والنسج على منوالها ، ثم الى ترجمتها فيما بعد الى الفرنسية والانجليزية والالمانية ، (2) وحتى

(1) ابو محمد صالح دفين رباط اسفى من رجال القرن السادس الهجرى وفى رباطه يقول لسان الدين ابن الخطيب (رباط اسفى ، لطف خفى ، الظاهر مالكى ، والباطن حنفى).
(2) انظر قصة الادب فى العالم القسم الثانى من الجزء الثانى ص 465 .

أبن خلدون ، فقد ألف فى الموضوع كما قال الشيخ الحضيكى (1) شرحا بديعاً دل على ثقافته وادراكه وغزارة حفظه (2)

أما الشعراء الذين تناولوها بالمعارضة والتربيع والتخميس فحدث عنهم ولا حرج ، وآخر من عارضها ــ فيما نعلم ــ أحمد شوقى فى نهج البردة الذى ادخلت عليه ام كلثوم تحويلا جذريا حيث عملت على نقله من صفوف المادحين فى المساجد والزوايا الى أمواج الاثير وكان لها من بعد فى هذا الباب اتباع ومقلدون ، وما تخميس البردة الذى نقدم اليوم جزءا منه لهذا العالم المغمور ، الا فيض من غيض وقليل من كثير مما جادت به قرائح الشعراء والكتاب فى هذا الباب ، وقبل تقديمه اشير الى أن ابن يجبش كان فى بعض ابياته يسير خلف الامام البوصيرى وفى البعض الآخر يحالفه التوفيق فيأتى بالحكمة والموعظة الحسنة من غير تنافر مع ما تتطلبه خواتم صدور ابيات البردة من تغيير فى اللفظ والمعنى وهو تغيير لا يتأتى الصمود معه لمطلق الشعراء ولا سيما اذا اعتبرنا مقدار أبيات البردة المزمع تخميسها وادخلنا فى الحسبان أن صاحب التخميس كان لزاما عليه قبل الاقدام على انجاز مشروعه أن يكون ملما بأسرار السيرة النبوية وما يحيط بها من وقائع واحداث وذلك ليكون التخميس مشتملا على زيادات فى المعنى بدلا من ان يكون عبارة عن تكرار لما قاله البوصيرى فى الموضوع وذلك مثل قول بعضهم

أمن تلالىء برق من سنى علم ؟ أمن تناشق ريح دب من حرم ؟
أمن تلامع نور من دجى ظلم ؟ أمن تذكر جيران بذى سلم ؟
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم ؟

حيث نلاحظ أن الاشطار الزائدة على البردة تكاد تكون معها متحدة المعنى بخلاف ابن يجبش الذى نجده ينحو بأشطاره مناحى أخرى تختلف معناها قليلا او كثيرا مع معنى البيت المراد تخميسه ثم تلتقى معه فى الاخير

---

(1) مناقب الحضيكى ج 2 ص 284

(2) ولشدة عناية ابن خلدون بها ، فقد جعل متنها جزءا من الهدية التى قدمها الى تيمورلنك ، واضاف اليها مصحفا رائعا ، وسجادة انيقة واربع علب من حلاوة مصر الفاخرة (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ص 377)

فى تلاؤم شعرى وان لم يكن تاما فى بعض الاحيان فانه فى سائر الاحوال غير متنافر مع الغرض (البوصيرى) المطلوب وليكن البدء بالمطلع لنرى ابتداء منه الى اى حد يتفق مع ما ذكر ، وكم هو الفرق بينه وبين التخميس المشــار اليــه اعــلاه

يا من له همة من اعظم الهمــم   وجسمه قد غدا فى غايــة السقم
ومقلــة العين لم تفتر ولم تنــم   امن تذكر جيران بــذى سلــم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وهناك مأثرة اخرى يمكن ان تضاف الى هذا التخميس وهى تتمثل فى استقلال بعض اشطار ابن يجبش ، وأبياته فى اغلب الاحيان ، واشتمالها على معنى تام يمكنها من فصلها عن البردة ، ثم وصلها بها من بعد ، وذلك فى مثــل قولــه :

كيف اصطبارىوانى قد فشىخبرى   وبــان للناس ما اخفيت من اثرى

وقــولــه :

شيب الفتى ان بدا بالموت ينذره   لكى يطيب بذكر المــوت مصدره

وقــولــه

اتى الى الخلق فى اعلام موكبه   مبينا باجتهــاد حســن مذهبــه

ومن خلال هذه الابيات وغيرها ، ارى ان رائحة التصوف تعبق من جميع الجهات ، وكذلك الامر بالنسبة لما يتبع هذا من الفاظ الوجد والصبابة والشوق ، وما يتلاءم معها من نكوص عن الدنيا ، وتنقيص من شأنها ، واستخفاف بزخرفها ، وما يتبعه من زينة ولعب ولهو ، وهذا أيضا ما يمكن ان يلمس فى قولــه

رفقا بنفس بصدق الوجد هائمــة   أما تراهــا بدنيــا غير ناعمــة

وقــولــه :

والمتقى لم يــزل من ربــه حــذرا   ودائمــا بــرداء الحب متــزرا

وليس من قبيل الصدفة ، ان نرى أبن يجبش يصطاد من المحسنات البديعية ما يضمن لابياته الرنين العذب ، والموسيقى المتوخاة ، فيجنس ويطابق ، ويعرج احيانا حتى على لزوم مالا يلزم ان اقتضى الحال ، وهذا ما يمكن للقارىء ان يلمسه داخل التخميس منبثا هناك وهناك

وبعد ، فهذه اضواء كان لزاما على ان اقدم بها هذا التخميس ، وهى وان لم تكن كافية ، فانها على الاقل كفيلة بانارة السبيل لمن يريد التجوال مع ابن يجبش فيما جادت به قريحته من امداح ، وما اضفى على السيرة النبوية من حلل موشاة بجميل النظم ورفيع النفس الصوفى الفواح

يـا من له همة من ارفع الهمم — وجسمه قد غدا فى غاية السقم
ومقلة العين لـم تفتـر ولم تنم — أمن تذكر جيـران بذى سلـم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

رفقا بنفس بصدق الوجد هائمـة — امـا تراها بدنيـا غير ناعمـة
هل ذاك من حرقة فى القلب كاتمة — ام هبت الريـح من تلقاء كاظمة
واومض للبرق فى الظلماء من اضم

اردت ان تخفى الوجد الذى ثبتـا — وتكتم السر كى ترقى لمن قنتـا
تبدى لنا ان منك القلب ما هفتـا — فما لعينك ان قلت اكففا همتـا
وما لقلبك ان قلت استفق يهـم

جوانح الصب بالاشواق تضطرم — والسهل خالفه والصبر منعـدم
لم يستطع كتمه والدمع منسجـم — ايحسب الصب ان الحب منكتم
مـا بين منسم منه ومضطـرم

قد بان للخلق ما قد كان فى القلل — فاخلع عذارك تمنح اشرف الحلل
الى متى تختفى بالعجز والملـل — لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل
ولا ارقت لذكـر البـان والعلم

صدق المودة فى الاحشاء قد سكنا — وذاب منه جوى ما فيك قد كمنا
لولا اشتياقك ما لقيت فيه عنـا — ولا اعارتك ثوبى عبرة وضنـا
ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم

يا من جفونه من طيب الكرى سهرت ومن جوانحه من شوقه اتقدت
أردت انكـــار أوصاف عليك بدت فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت
به عليك عدول الدمـــع والسقم

نومى جفا مقلتى والشوق أتلفنى أذاب منى الحشا والدمع أغرقنى
وددت من زارنى ان لا يفارقنى نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى
والحب يعترض اللـــذات بالالـــم

زاد اشياقى وما مللت مقـــدرة وسطوة الحب جاءتنـــا مجـــددة
فى وصف اهل الجفا بالصبر منذرة يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة
منى اليك ولو أنصفت لم تلـــم

كيف اصطبارى وانى قد فشا خبرى وبان للناس ما أخفيت من أثرى
قد ضقت ذرعا بما لقيت من كدر عادتك حالى لا سرى بمستتر
عن الوشاة ولا دائـــى بمنحسم

يا عاذلى كف عما أنت تصنعـــه فمن يرد خدعتى فالله يقمعـــه
علمت ما أنت طول الدهر تجمعه محضتنى النصح لكن لست أسمعه
ان المحب عن العذال فى صمـــم

دع عنك لومى ولا تجنح الى جدل فليس لى بعدهم فى الخلق من بدل
لا آمن الدهر من بالنصح يقصد لى انى تهمت نصيح الشيب فى عذلى
والشيب أبعد فى نصح عن التهم

احبتى لقديم العهد قـــد حفظت والنفس عنهم لنهج الحق قد محضت
كيف احتيالى وأفعالى قد حفظت فان أمارتـــى بالسوء ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهـــرم

والمتقى لم يزل من ربه حـــذرا ودائمـــا بـــرداء الحـــب متـــزرا
ونفس مثلى لم تظهر لـــه اثـــرا ولا أعدت من الفعل الجميل قرى
ضيف ألم براس غير محتشـــم

شيب الفتى ان بدا بالموت ينذره لكى يطيب بذكـــر الموت مصدره

وما يشين بحسن الفعل يستره لو كنت اعلم انــى مــا أوقــره

كتمت سرا بدا لى منه بالكتــم

نفسى طغت وتعدت فى عمايتهـــا لم ترتجع للهدى من سوء عادتها

ناديت لما عصتنى فى استجابتها من لى برد جماح من غوايتهـــا

كمـــا ترد جماح الخيل باللجــم

مهما ترد تهرها عن سوء جفوتها وترتقى للعلا من قبح قسوتهـــا

لكى تنال المنى من طيب شهرتها فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتهـــا

ان الطعام يقوى شهوة النهــم

ان شئت تدرك من نال المنى وعلا وترتجى أن ترى فى قصدك الاملا

خالف هوى النفس بالتدريج منتقلا والنفس كالطفل ان تهمله شب على

حب الرضاع وان تفطمه ينفطم

لا تقف نهج الهوى واجهد لتخلفه لا تطمعن فى العلا حتى تخليـــه

وتدر نفسك مهما كنت معليـــه واصرف هواها وحاذر أن تواليه

ان الهوى ما تولى يصمى أو يصم

نفس الجهول بما تهواه هائمــة لم تلتفت غيره بل هـــى دائمــة

على الذى تشتهى بالحرص قائمة وراعها وهى فى الاعمال سائمــة

وان هى استحلت المرعى فلا تسم(1)

---

(1) نكتفى بهذا القدر من التخميس نظرا لاشتمال الباقى على اخطاء .

ابن يجبش الشاعر

بقطع النظر عن المنفرجة ، وتخميس البرد ة، وما معهما من قطع ، فانني ارى ان الجانب الشعرى عند ابن يجبش يتمثل فى تائيته العصماء ، او قصيدته فى التحريض على الجهاد كما يحلو للبعض ان يسميهـــا ، تلك التائية التى لا يسعنى ازاءها الا ان استغيث بطرف زرقاء اليمامة ، لابصر ما وراء تلك العمامة وكيف لا وصاحبنا كما يبدو من خلالهـــا ذو نفس شعرى طويل ، زيادة على انه يتأجج صدره غيرة على ما ضـــاع فى ذلك انتاريخ من اطراف الوطن الجريح

وياليت ابن الفارض لم يسن لرجال التصوف سنة النظم على روى التاء ، اذ لو لم يكن ذلك كذلك لترك لنا ابن يجبش عدة قصائد فى نفس الموضوع ، وقد قلت قصائد، لان الطول هو الآخر موروثمن امام العاشقين، اوليست تائيته هو الآخر تشتمل على اكثر من ثمانمائة بيت ؟ فلماذا لا تشتمل تائية صاحبنا على مائة وتسعة وستين بيتا على الاقل ؟ ؟ ؟

ولعل من حسن حظ الادب والتاريخ ، ان موضوع التائيتين يختلف ، على الرغم من ان الزمان الذى نظمت فيه كل منهما كان فى كل من المشرق والمغرب عصر ركود ادبى ناتج عن كون سراج المسلمين اصيب هنا وهناك بشىء غير يسير من الخفوت ، وخلافا لما ذكر احمد امين فى مثل هذا الموضوع ، من ان المسلمين اذا خرجت من ايديهم امور الدنيا ، لجأوا الى امور الدين ،

ومن بينهم الادباء بطبيعة الحال ، فان ابن يجبش قد خرج عن هذه القاعدة ، اذ لم يركد كما ركد غيره ، ولا عرف اليأس أو الاستسلام الى قلبه سبيلا ، وها هو كتابه فى الجهاد خير دليل على ما نقول ، وها هى تائيته فى الموضوع ، وخصوصا منها ما يتعلق بالوصف يمكن الاستشهاد بها على انه شارك فى المعركة بالقدم والقلم ، وانه يتكلم فى الموضوع كلام خبير وعندى أن هذه هى نقطة الاختلاف بينه وبين ابن الفارض ، اما ائتلافهما فقد كان بالطبع فى ميدان التصوف ، كما كان لكل منهما فيه اتباع واشياع ، ولهما ايضا عليه يد لا يدركها الا الراسخون فى هذا الباب

ثم ان تائية ابن يجبش يمكن للباحث ان يجزئها الى عدة اجزاء : الاول وكما يبدو من خلال المطلع وما يتبعه من ابيات ، وكما يبدو ايضا من خلال بعض الابيات المنبثة هنا وهناك ، فقد خصصه لوصف حالته النفسية وما كان يشعر به من حيرة وقلق ، ازاء ما كان يتخبط فيه الوطن من اخطار ، وهو فى هذا الجزء ثم الذى يليه ، كان يتكلم كلام الشاعر الحائر المترنح الملتاع ، فلا يقر له قرارا ، ولا يعرف السلو الى قلبه سبيلا

ابى القلب سلوانا ومن لى بسلــــوة ونومى جفا من اجل ما بى مقلتى
وصرت حليف الحزن مما كتمتـــه وبين ضلوعى مثل كـــى بجمـــرة
وللقلب مــــا بين الجوانح زفـــرة ودمعى على الخدين يحكى لمزنتى
ولم استطع صبرا وكيف يصح لى وقد هتكت من ديننا كل حرمة ؟ ؟

وللقارىء أن يتأمل بامعان مدلول هذه الابيات ، وم انتطـــوى عليه من انات وزفرات ، وان يتأمل على الخصوص فقرات البيت الرابع وما فيه من استفهام ، وما اشتمل عليه من سؤال وجواب ، وما يتبع الجميع من حيرة تجعل المستمع يطأطىء الراس اجلالا امام صدق هذه الحاسة الشاعرية المتفرجة المعطـــاء

ولم استطع صبرا وكيف يصح لى وقد هتكت من ديننا كل حرمة ؟ ؟

اما الجزء الثانى فقد لمح فيه الى اسباب هذا الحزن وبواعث البكاء .

وما يسيطر على صاحبهما من حسرة وأسى ، وقد لخص ذلك فى نقطتين الاولى اشتغال جمهور المسلمين بالتعلل والمنى ، واسعاف الشيطان فيما اراده ، مع الميل الى نهج الطباع الخسيسة ، وما ينطوى تحتها من خيانة ومكر وتناحر ، وانانية ، الشىء الذى كان من اهم معطياته ارعاب السواحل بالاعداء ، واخذ جل البلاد البهية ، وهذه هى النقطة الثانية الناتجة بطبيعة الحال عما وصف به المسلمين من صفات

وانتم شغلتم بالتعلل والمنى   تبعتم مراد النفس فى كل لذة
واسعفتم الشيطان فيما اراده   وملتم الى نهج الطباع الخسيسة
فصرت اذا ادعو وارغب راجيا   ولى فى الذى ارجوه اصدق حيلة
واندب اهل الجد والعزم قائلا   عليكم بنصر الدين يا خير امة
وقوموا بجد للعلا فلقد طغوا   عليهم من القهار اعظم لعنة
وقد جمعوا مالا يقدر وصفه   وراموا لكم اخفاء كل خديعة
فكيف يكون الامر من حال مكرهم   وقد طمعوا فيكم بادراك فرصة
ولم يقنعوا مما سبوا من بلادكم   واخوانكم فى حين تلك القضية

ولعل مدلول البيت الاخير ، هو الطامة التى كانت تشغل بال هذا الاسد الهصور ، وبيانها ان الاعداء لم يقنعوا مما سبوا من البلاد ، خصوصا وانه كان على علم تام بما آلت اليه دولة المسلمين بعد سقوط بغداد ، وما كان عليه أمر الاسلام أيام الحروب الصليبية ، وما استحالت عليه حال المسلمين من مناوشات وتفرقة وشقاق أيام ملوك الطوائف ، واخيرا ما زال جرح الاندلس لم يلتئم بعد ، وها هو العدو قد بدأ يزحف شيئا فشيئا ليخضع لسيطرته ما تبقى من رقعة الاسلام ، فاقتطع أكادير ، والبريجة ، وطنجة ، وآنفا ، واخيرا وليس بآخر ، احتل مدينة أصيلا ، التى لم يجد المسلمين وقت الدفاع عنها الا هدمها واحراقها ثم خرجوا منها مدحورين ، كل هذه أشياء ، كانت تحز فى نفسه ، وكان قلبه ازاءها يضطرم اضطراما ، وهذا ما ادى به الى أن يصرخ ويقول

ولم يقنعوا مما سبوا من بلادكم   واخوانكم فى حين تلك القضية

ثم يستغيث ويتوسل من بعد ويقول

ايا أولياء النصر يا آل غـــريبنـــا بكم تضرب الامثال فى كل بلـــدة
وانتم هم الشجعان فى شدة الوغى وأنتم هم الابطـــال عند الحقيقـــة
فكيف يضيع المستجير بجاهكـــم وأنتم مـــلاذ الخـــائـــف المتشبث

ثم ان الجزء الموالى من القصيدة ، ساق فيه وصفا حيا لما كانت عليه حالة أصيلا ابان الاحتلال البرتغالى ، وهو وصف يمكن أن يوضع به الى جانب أبى البقاء ، صالح بن شريف الرندى فى نونيته الشهيرة ، ووجه الشبه بينهما يتلخص فى أن كلا منهما سلط عدسته على ما آلت اليه حالة المساجد من خراب بعد العمارة ، وظلام دامس بعد ما كان يشع فيها من نور وايمان فبينمـــا يقـــول الاول

تبكى الحنيفية البيضاء من اسف كما بكى لفـــراق الالف هيمـــان
على ديار مـــن الاسلام خاليـــة قد اقفرت ولها بالكفـــر عمـــران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهـــن الا نـــواقيـــس وصلبـــان
حتى المحارب تبكى وهى جامـــدة حتى المنابر ترثـــى وهى عيـــدان

يقـــول الثـــانـــى

فقصـــة آصيـــلا عرفتم جميعهـــا وما فعل الاعداء مـــن شر غـــدوة
واضحتعلى الاسلام تبكى رسومها كذى سكن قد صار فى دار غربة
مساجدها تبكى على فقد اهلهـــا كأن لم يكن فيها مـــردد ســـورة
صوامعها قد عطلت عن اذانهـــا كأن لم يكـــن فيها اذان مصوت
مجالس اهل العلم يا صاح بدلت بتلبيـــس رهبـــان ورجس الاقسة

وعلى الرغم من أن النفس الشعرى عند أبى البقاء كان أهم مما هو عند ابن يجبش ، فان صاحبنا استطاع مجاراته ، وخصوصا فى وصـــف حالة العائلات ، وما آل اليه أمر الولدان الذين تفرقوا عـــن أمهـــاتهم ، والزوجات اللائى حيل بينهن وبين ازواجهن ، ثم بلغ القمة فى الوصف عند ذكر العذارى البارزات للعيان بعد طول الاحتجاب ، واستمتاع الاعداء بما

اضفى الله عليهن من حسن وجمال وكانى به هنا كان عالما نفسانيا اكثر منه شاعرا وصوفيا ومؤرخا ، ذلك أن الغرض الاسمى عنده هو التحريض على الجهاد ، واى اسلوب للتحريض اقوى من هذا الوصف الجامع المثير ؟

فلو ابصرت عيناك حال خــروجهم بكيت الدما مــن بعد انفاد عبــرة
تفرقت الولــدان عــن امهاتهــا كذا كل زوج حيز عن كل زوجــة
وادمعهــم تجــرى على وجناتهــم لما نالهم مــن فقدهــم للاحبــة
وصار العدا يستمتعــون بحسنها واظهر منها كل حســن وبهجــة
وابرزت العذراء بعد احتجــابهــا وادمعهــا تهمــى بأعظم زفــرة
ولم تستطع منهم فرارا بنفسهــا فاعظم بهــا مــن حرقة مستكنة
تكاد قلوب الخلق عند استماعهــا تفطــر مما نالهم مــن مصيبــة
فكيف يطيب العيش بعد لعــاقل وكيف تلذ النفس بعــد بشهوة ؟
فما العيش بعد الذل الا سفاهــة وضعف يتين عنــد اهل البصيرة

ثم ان ابا البقاء كان فى نونيته يبكى بكاء اليأس ، لانه كــان يبكــى الاندلس ، والروح منها قد بلغت الحلقوم ، وجمهور المسلمين فيها يتخبط بين امرين احلاهما مر ، الفرار او الاحتضار ، وعلى العكس من هذا ابن يجبش الذى كان يبكى بكاء الطامع فى فكاك المسلمين مما هم فيه من الكرب العظيم ، والعذاب الاليم ولهذا اصطبغ اسلوبه بصبغة الخطاب ، بدلا من الاقتصار على الاخبار ، كما فعل أبو البقاء ، حيث كان يتحدث وآثــار الاستسلام بادية على محياه

وبعد وصف ابن يجبش المليىء بالحسرة والاسى وبعد هذا البكــاء المر ، الذى ما اظن الا انه كان يقصد به لفت النظر الى ما اضحى عليه حال المسلمين ، وبعد ما هيأ النفوس باستعراض ما اصيب به المسلمون مــن تعذيب وتنكيل ، شرع فى الجزء الموالى فى استنهاض الهمم ، وتحــريض جماهير المسلمين على الالفة والاتحاد ، ووقوفهم فى صفوف متراصــة ، تجاه ما يحاك لهم من مؤامرات ، وما يبيت لبلادهم من هول وهوان وهنا نراه يقصد التنويع فى التعبير ، فتارة يتوسل بحرمة الاسلام ، وتارة يشير

الى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية الواردة فى الموضوع ، واطـوارا يذكر جموع المسلمين بما كان عليه الآباء والاجداد من شجاعة واستبسال ، وما جبلوا عليه من انفة وايثار ، وهو فى جميع الحالات يستصرخ فلا يجف له جفن ولا يهدأ له هدير :

اما فيكم يا معشر الخلـق رافـة   فاخوانكم ضاقت بهم كـل حيلة ؟

* * *

فكم ذا التعامى والتغافـل عنهـم   وقد قنطوا ممـا بهم من مشقة ؟

* * *

الا من له فى الديـن عزم وقـوة   ويذهب عنا ما بنـا من معـرة ؟

الا من يبيع النفس فىطلب العـلا   ويرغب فى نيل الامور السنيـة ؟

ولعل من الاوتار الحساسة التى اكثر من الضرب عليهـا فى هـذا المضمار ، هو التذكير كما قلت آنفا ، بما كان عليه الاجداد من شجاعة ، وخصوصا فى شبه الجزيرة العربية ، وما تبع أيام ازدهارها من فتوح ، وما أعقب تلك الفتوح من حضارة ما زالت آثارها شاهدة فى جميع انحاء المعمـور

وقد يقال بأن التذكير وحده بحضارة كهذه ، وبأسلوب كالذى ساقه ابن يجبش ، قد لا نعدم من أهل الفكر من ينظر اليه الآن نظرة استهجان ، وحجتهم فى ذلك ، ان المسلمين وخصوصا فى امورهم الدينية ، يجب ان يقفوا موقف هجوم ، أما ما دام موقفهم الغامض يتلخص فى الدفاع ، الا وهم دائما مهاجمون ، ولنا فى حملات التبشير المنظمة وغير المنظمة عبرة يا اولى الالباب ان التذكير بماضى الاجداد غير كاف للنهوض بكيان أمة ، وحسم ما اصيبت به دواخلها من امراض وعاهات

وكأنى بابن يجبش قد فطن لهذه الظاهرة ، وما ينتج عنها فى نفـوس البعض من عجرفة وغرور ، فتدارك الامر بسرعة ، ورجع الى الاعتـراف والمجاهرة بما اصيبت به رقعة المسلمين من امراض ادت بها الى الضعف فى كل مظهر من مظاهرها ، ولا مفهوم هنا للضعف المادى ، وانما حتى

المعنوى الذى ينطوى تحته الضعف فى العقيدة ، وهذا بالطبع اخطر الاضرار ، اذ عنه ينتج التفسخ واللامبالاة ، وتفسد الاخلاق ، وتصبح النفوس غير قادرة الا على الزينة والتجمل ، وما يتبعهما من ضروب اللهو والعبث والمجون وما على هذه الشاكلة كان المسلمون الاولون ، وليس بهذا امرنا الله فى كتابه العزيز حيث قال « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » والى هذا نرى ابن يجبش يشير بقوله

أعدوا لهم من قوة كل عدة ... وصولوا عليهم باجتهاد وحرقة
ولا تدبروا عند القتال فمن يمت ... شهيدا ينل من كل خير ونعمة
وادرك رضوان الاله ولم يذق ... من الموت حاشا مثل ايلام نحلة

ثم ان من مظاهر الضعف والانحلال التى تنخر كيان الامة الاسلامية ، وتتركها كثوب ضم سبعين رقعة ، التفرقة والاختلاف وما يتبعهما من تناحر وشقاق ، والى هذا يشير بمرارة فيقول

أيا معشر الاسلام يا امة الهدى ... ترقوا الى أعلى مقام الاخوة
فقد شاع فى الاقطار حال افتراقكم ... وما بان فى الاسلام من سوء ثلمة
فلم يطمع الملعون فيما اصابه ... من القوم الا باختلاف وفرقة
على البر والتقوى جميعا تعاونوا ... وما هو الا باجتماع والفة
فهذا لسان الحال يدعو مخاطبا ... لمن فيه من اهل الوفا بعض همة
ومن فيه ايمان ومن فيه رافة ... ومن فيه للاسلام اعظم غيرة
ولم يرض للدين القويم اهانة ... ولم يحتمل ذلا لشر الخليقة

اللهم انى قد بلغت ، ولعلنى قد بلغت فى وقت يرى فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر ، وهو وقت ما احوج المسلمين فيه الى الاصغاء لمثل هذه الزفرات

وبعد هذه الصيحة ، نراه يستعرض عاهات اخرى كان لها فى صفوف المسلمين اسوأ الآثار وذلك مثل الظلم

لان يد المظلوم مهما يمدها ... لمولاه لم ترجع اليه بخيبة

تأمـل ديـار الظـالمين وحالهـم وما قد لقوا من شر موت وحسرة

وعلى العكس من ذلك العـدل

فبالعدل ان تحكم وبالحق ان تقـم تكن لك فوق الخلق أعظم صولة
وتحظـى بعـز لا يضام وتجتنـى ثمار الهدى فى كل حين ولحظـة

وعند تعرضه للكلام على البخل ، يقف ازاء تعدد مثالبه وقفة طويلة ثم ينتقل الى الكبر والحسد ، وما يكمن فيهما من اضرار ، وهكذا يمكـن ان يقال بانه كان بخطواته هذه كأنه يريد ان (يضع دستورا فى الاخلاق ومنهاجا شاملا لما ينبغى ان تكون عليه المجتمعات الاسلامية من صبـر ومصابرة وتعاطف والفة وتراحم واخاء) اما ان يكون هذا مشرق والآخر مغرب فذلك هـو الخـراب

واخيرا فلا ادعى أن ابن يجبش كان فى كل جولاته الشعرية بعيدا عن الفتور ، وانما كان أحيانا يسمو ببعض الابيات ، أو تسمو به لتضعه فى مصاف الفحول من شعراء لغة الضاد أما حينما يجشم نفسه مؤونة الحث على التمسك بالفضائل الخلقية ، أو حينما يحاول تذكير مواطنيه بالجنـة والنار ، والحلال والحرام ، فانه لا يسف عن مواقف المصلحين الذين يهتمون قبل كل شىء بجمال الفكرة ، قبل اهتمامهم بجمال اللفظ وهل كان أبـو العتاهية واضرابه فوق هذا المستوى ؟ والمعرى وهو على ما هو عليه ، هل كان شاعرا فى اللزوميات ؟ وابن الفارض هل يوجد فى تائيته ما يوجد فى قصائده الاخرى من نفس شعرى أخاذ ؟

وما لنا نذهب بعيدا وأمامنا فى المغرب خير مثال يمكن الاستدلال به فى هذا الباب ؟ ذلك هو الاستاذ علال الفاسى (تغمده الله برحمته) صاحب هذا المطلع العجيب وقد قاله فى قصيدة رثى بها فقيد لبنان المرحوم رياض الصلح عليه وعلى أيامه السلام

ذكـراك تفعـل فـى الجبـل فعـل العقيـدة فـى البطـل

وقد عبرت عنه بالمطلع العجيب ، لانه لو صدر مثلاً من شاعر ماجن كأبى دلامة ومن فى معناه ، لكان اسخف بيت على الاطلاق ، وبما انه قيل فى رجل بينه وبين العقيدة والبطولة اكثر من صلة ، وصدر ايضا من رجل لا يقل قيمة عمن ذكر ، فانه اكتسى صبغة اخرى ، واصبح فى نظرى من أروع ما قال علال فى ميدان القريض ، وانطلاقا من هنا أود أن أقول ان الالفاظ قد تكتسب الحركة والروعة والجلال ، حتى ولو كانت غير شعرية وذلك اذا خرجت من أفواه أفراد تتصف شخصياتهم وتصرفاتهم بالروعة والجلال وعلى العكس مـــن ذلك الكلمـــات الحية ، فانها بمجرد صدورها من شفاه اهل الدعابة والمجون ، الا وتصاب بالبرودة والذبول ولكم أن تتصوروا وقع ألفاظ الهدى والتقوى والعفة والمروءة والعقيدة والبطولة وهى تنسب فى أبيات مثلا لابى نواس أو للملك الظليل ، فكيف ستتقبلها الآذان ، أو سيكون موقعها فى النفوس ؟ وعلى العكس من هذا ابن يجبش واضرابه الذين يعتبرون فى نظرى شعراء حتى ولو نظموا بالدارجة ، لماذا ؟ لانهم كانوا ملتزمين ، ولان كل واحد منهم كان ذا رسالة كرس حياته من أجل الذود عنها ، والمغامرات فى سبيلها ، وانني لاكاد اجزم بأن هؤلاء هم الذين استثناهم الله تعالى فى سورة الشعراء بقوله « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » وقليل ما هم ، وظن الناقد أن الجميع شعراء ، ولما استفاق من غفوته استغفر ربه وخر راكعا وأناب ؟ !

ابن يجبش الناثر

ليس بين أيدينا من نثر ابن يجبش ، الا ما سنتعرف عليه من خلال كتابيه الاول فى الجهاد ، والثانى (ارشاد المسافر للربح الوافر) ، وكل منهما لا يرتفع عن مستوى كراسة من الحجم المتوسط الا بقليل وكتاب الجهاد كما يبدو من سياق مقدمته ، قد اقترحت عليه الكتابة فيه ، ولذلك نراه يقول فى مستهله (فتح الله لنا ولك ايها الراغب فى نيل ما تأمله من جميع المطالب والمآرب ، فانك لم تزل تحضنى وتستحثنى على انشاء جملة مختصرة جامعة بين نثر ونظم) وقبل الدخول فى الموضوع يشير على عادة القدماء فى تواضعهم المحمود ، الى عدم اهليته لما طلب منه فيقول (كيف يطلب من مثلى ان يؤلف ويملى ؟ وقد قال بعض العارفين رضوان الله عليهم أجمعين ، كل كلام يبرز الا وعليه كسوة القلب الذى منه برز ، وهذا معيار صادق ينبغى أن يخاف منه ويحترز ، وأنى لى بمثل هـذا المقام ، وبى مما اقترفته من الآثام أمراض وأسقام ؟؟) وهذه ما هى فى الواقع الا اعترافات لها عند العقلاء أكثر من مدلول ، ويكفى أن نشير الى انها حصن حصين كثيرا ما يحول بين الكاتب وبين الوقوع فى مزالق الكبرياء وزهو الغرور ، وكل كلام لصقت به هذه العاهة الا ويحرم حول اللسان ، فان تجاوزه فالى الآذان ، أما صاحبنا ، فهو يريد بحديثه أن يصل الـى شغاف القلوب ، ومن أجل الوصول الى هذه الغاية ، يجب أن يخرج الكلام من القلب ، والا بقى الجميع حبرا على ورق .

وبعد الحمد والشهادتن ، على الطريقة الخطابية المعهودة مع التزام السجع وما يتبعه من احتفال ببراعة الاستهلال ، يقع الشروع فى التحريض على الجهاد مباشرة ، واثناءه يبدو ابن يجبش كالاسد الهائج ، يسوق الآيات والاحاديث ، ويضرب المثل تلو المثل ، تارة يتأوه واطوارا يستغيث وكأنه بأحاديثه يستنفر جيشا ، أو يستحث خطاه للدخول فى معركة القتال ، فاستمعوا اليه وقد بدأ خطابه مشفوعا بالعدد الوافر من علامات الاستفهام: (عباد الله ، ما هذه الغفلة العظيمة ، التى أضحت على القلوب مقيمة ، وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ أما علمتم أن أعداءكم ، باحثون عليكم ، منشغلون بكل حيلة فى نيل الوصول اليكم ، قد جمعوا من العدد مما لا يحصى له عدد ، وارسلوا جيوشهم وعيونهم فى كل بلد ، ليخبروهم بما عندكم من عدة ، وما أنتم عليه من قوة وشدة ؟؟)

وبعد الامعان فى التهويل ، واشعار الجميع بالخطر الداهم ، والهجومات المبيتة ، ينتقل الى وصف أسرى المسلمين ، وما هم فيه من كرب عظيم ، وعذاب اليم ، فيقول (قد ابدلوا بعد العز والفرح ذلا وحزنا ، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى ، فكم اوثقوا بالسلاسل والحديد ؟ ؟ وهم كل يوم فى عذاب شديد ، وصاروا من جملة المماليك والعبيد ، كانوا بالامس أغنياء آمنين ، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين ، انتهبت اموالهم ، وتغيرت أحوالهم ، فرقت عنهم نساؤهم ، وأخذت منهم بناتهم وأبناؤهم ، وصار الكفرة يتنافسون فى بيعهم بالاثمان ، وجعلوا يفرقونهم فى سائر البلدان ، ويريدون أن يفتنوهم فى دينهم ، ويفسدوا عليهم قوة يقينهم فما هذه الغفلة عن اخوانكم يا معشر المسلمين ؟ ؟) وبعد ما يأتى فى هذا الباب بالعجب العجاب ، ويذهب فى وصف أسرى المسلمين كل مذهب ، ينتقل الى الآيات القرآنية والاحاديث النبوية ، وما اكثر ما أورد منها وما ورد ، وحينما يخشى الملل من كثرة الاستطراد ، يتنهد ويعود الى التعليق على بعض الآيات ليوضح ما تحتوى عليه من درر ، وما يكمن فى فضل الشهادة من فضل وأثر ، فيقول مثلا عند قوله تعالى « ان الله

أشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » فيا لها من مبايعة ، ما أعظم ربح صفقتها ، ويا لها من تجارة ، ما اسرع نجاح نفقتها ، ربحت والله أيها البائع فى بيع ما أحل لك بيعه مما عندك من الودائع ، وحصلت على الاكسير الاعظم الذى لا تخاف نفاذه ، وظفرت بما رمته من كيمياء الشهادة وكيف لا والشهداء مخصوصون بدرجات عالية ، ومقامات سامية ؟ أجسامهم لا تبلى ، وأرواحهم عند الملك الاعلى ، فى النعيم الدائم يتقلبون ، وبرضوان مولاهم مستبشرون ، لا يخافون فتنة فى القبور ، ولا يحزنهم الفزع الاكبر ، يوم ينفخ فى الصور

ثم هو لا يكتفى بهذا القدر ، فنراه يلجأ الى القصص ، ليعطى بواسطته صورا محسوسة كقصة أم ابراهيم الهاشمية ، وما اشتملت عليه أبياتها الرائعة من رقة وجمال ، وما اتصفت به هذه الغادة الحوراء من غنج وحسن ودلال ، الشيء الذى يمكن الاستدلال به على أن صاحبنا زيادة على اطلاعه الواسع ، كان يتوفر على ذوق أدبى سليم ، ما كان له بدونه أن يختار هذه القطعة ويتوفق فى الاختيار

غادة ذات دلال ومرح ... يجد الناعت فيها ما اقترح
خلقت من كل شيء حسن ... طيب فالليث فيها مطرح
زانها الله بوجه جمعت ... فيه أصناف غريبات الملح
وبعين كحلها من غنج ... وبخد مسكه فيه رشح
ناعم تجرى على صفحته ... نظرة الملك ، ولالاء الفرح
اترى خاطبها يسمعها ... اذ تدير الكأس طورا والقدح ؟
فى رياض مونق نرجسه ... كل ما هبت له الريح نفح
وهى تدعوه بود صادق ... ملىء القلب به حتى طفح
يا حبيبا لست أهوى غيره ... بالخواتيم يتم المفتتح
لا تكونن كمن جد الى ... منتهى حاجته ثم جمح
بى من حبك ما لو انه ... وازن الحب جميعا لرجح

وقبل ان نسكر مع الشهداء بروعة هذه الحسناء ، وجب أن نشير

الى أن ابن يجبش لو أكثر من هذا الصنف رغم ما فيه من اغراء ، لابتعد بتحريضه عن النطاق الشعبى ، ولوجد نفسه فى تناقض كبير مع قوله

فيـا منشدا ذا النظـم ناد محرضا   بجـد وعـزم عنـد كل مدينـة

ولما أعياه النثر وما يتبعه من وعد ووعيـد ، لجـأ فى الاخير الى الشعر ، لانه فى نظره أوقع فى النفوس ، واقرب لان يصغى اليه وتنحط اليه الرؤوس ، فغلب عليه الحال ، ونطق اللسان وقال

ابى القلب سلوانا ومن لى بسلوة   ونومى جفا من أجل ما بى مقلتى

وبعد انهاء القصيدة وقد مر التعليق عليها ، يشرف منها على ختام الكتاب باللجوء الى الدعاء الى جيوش المسلمين ، ولكن بأسلوب أشـد وقعا مما سبق ، وكأنى به اثناءه لما أعياه الامر ، واحكمت على جل القلوب اقفالها ، اراد بدعائه المر ، أن يشفى الغليل ، خصـوصا وأن جمـوع المسلمين اذا اصيبت بما أصيبت به من خذلان وضعف وتفرقة ، فلا مانع من أن يهزوا مثله اكف الضراعة الى الله ، ويسلقوا جموع الاعداء بألسنة حداد   وذلك مثل قوله   (اللهم يا من له القـوة والاقتـدار ، والعـزة والانتصار ، ويكون النهار على الليل ، والليل على النهار ، اللهم انك تعلم حال اخواننا المومنين ، المأسورين فى يد أعدائك الكافرين ، وما هم فيه من الكرب العظيم ، والعذاب الاليم ، فهىء اللهم بفضلك لفكاكهم سببا ، واظهر لخلقك فى ذلك من لطائف قدرتك عجبا ، انك على كل شىء قدير ، يا نعم المولى ويا نعم النصير ، اللهم ان آمالنا فى فضلك عظيمة ، واعمالنا غير مستقيمة ، فلا تحرمنا من فضلك وكرمك ، بما ضيعنا من حقوقك وانتهكنا من حرمك ، اللهم اجعل الخذلان فى ركبهم ، وركب دوابهم ، ورد كيدهم فى نحرهم ، واذقهم وبال أمرهم ، واجعل بأسهم بينهم ، وانصرنا عليهم يا خيـر النـاصريـن)

وبعد هذا وذاك لا ينسى الدعاء للسلطان ، لانه زيادة على ما كان بينه وبين أخيه من اتصال أثناء اشتغاله بتازة كخليفة سلطانى ، فانه يعلم

مسبقا أن السلطان ظل الله فى أرضه ، وأن الدعوة المستجابة يجب أن تجعل للامام ، لانه اذا صلح امنت البلاد والعباد ، أو كما قال عبد اللـــه ابـــن مبـــارك

الله يرفـــع بالسلطـــان معضلـــة عن ديننا رحمـــة منه ودنيـــانـــا
لـــولا الخليفة لم تأمن لنـــا سبل وكـــان أضعفنـــا نهبا لاقـــوانـــا

ولهذا نراه يهز اكف الضراعة الى الله ويقول (اللهم انصر من قلدته النصر فى مصالح عبادك المسلمين ، واجعله رحمة على المومنين ، ونقمة على الكافرين ، اللهم اجعل دولته من أعظم الدول ، والحقه بدرجة اهـــل العدل مـــن الائمـــة الاول)

وعلى الرغم من أنه فى دعائه هذا كان عباسيا ، لانه لم يسم السلطان، فان ملوك الدولة العلوية وعلى رأسهم المولى اسماعيل ، كانوا أول مـــن اعترف لهذا البطل بالفضل ، وقابلوا احسانه باحسان قبل أن نعثر له فى ظهائر التقدير والاحترام على نظير (1)

ارشاد المسافـــر للربـــح الوافـــر :

ويلى رسالة الجهاد كراسة أخرى ، فى السفر كما يفهم من العنوان أعلاه ، وهو موضوع وان لم تبق له اليوم نفس الاهمية التى كانت عنده من قبل ، نظرا لتوفر وسائل السفر ، وخلو اسفار اليوم من الصعوبات والمشاق التى كانت تعترض المسافرين فى تلك الازمنة الغابرة ، فان أهميته ترجع الى الناحية التاريخية ، وذلك حينما يعطينا مثلا صورة واضحة لما كان على المسافر أن يتخذ من استعداد وما يجب أن يبتدىء به من مقدمات، وكيف لا وهو مسافر ، والمسافر فى عرف الاقدمين عرضة للتلف والمخاوف والاخطار ، وقد لا تكون عودته الا بعد مرور عدة سنوات يؤلف اثناءها ، ويجاور ويزاول التدريس فى أهم العواصم العلمية ، هذا بالاضافة الى اداء

(1) سأعود من بعد الى القاء نظرة على هذه الظهائر

فريضة الحج وما يتبعها من مشاهدات ومواقف روحية ، لا يسع الانسان ازاءها الا أن يكتب ويعيد ، وان يسجل ارتساماته حولها شعرا ونثرا وما اكثر ما خلفت لنا تلك المشاهد من شعر ونثر ، وما أكثر ما كان لها كذلك من تداخل مع ما اصبح يسمى اليوم بفن الرحلات وما هذه الاخيرة فى الحقيقة الا جزء من تلك الاسفار البعيدة المدى ، والتى قد يكون من بين الدوافع اليها زيادة على الحج وطلب العلم والاكتشاف ، أسباب سياسية وغيرها مما لا يتسع الى استيعابه مثل هذا التعليق (1)

ويكفى هنا أن أشير الى أن (ارشاد المسافر للربح الوافر) قد يعتبر من الاجزاء المتممة لباب الرحلة ، ان لم يكن كمقدمة لها ، وهو وان كان حجمه لا يرتفع عن مستوى الكراسة ، ضمنها عدة نصائح تتعلق بالموضوع، فان أسلوبه فيه – وخصوصا فى المقدمة – لا يخلو من جاذبية بلاغية تشعر القارىء ببعد الكاتب عن الهدوء النفسى ، وهذا شأن ابن يجبش فى اغلب ما يكتب ، وكأنه يريد ان يصل الى الاعماق بأسلوبه الهائج وبلاغته الدائمة الهدير وكأنى به يقصد الى ذلك قصدا ، اذ غالبا ما يسكب اهم ما يملك من زفرات ، اما فى خواتم ما يكتب أو فى المقدمات ، وهذا أسلوب فى الكتابة مهم ، ووجه أهميته أن القارىء يحب أن يصدم فى بداية الكتاب بأهم ما يمكن أن يصدم به ، ليعلم منذ البدء أنه مقبل على شىء ذى بال ، وكذلك الشأن فى الخواتم ، التى يجب أن تكون قوية الصدى ، لانها آخر ما يودع القارىء من الكتاب ومثل هذا لمسناه فى كتاب الجهاد بدأ وختاما ، ونلمسه الآن فى مقدمة ارشاد المسافر حيث يقول

(الحمد لله الذى وسم عباده بالعجز والافتقار ، وجعلهم متقلبين

(1) تحتوى الخزانات العامة بالمغرب على اكثر من 150 رحلة وازيد من 250 فهرسا كلها لرجال مغاربة ونحوها من الكناشات والتقاييد ، ولم يطبع من الجميع الا النزر اليسير اما الخزانات الخاصة فحدث ولا حرج ولست أدرى مع هذا الغنى المطلق الى متى ونحن نتشبه بالفقراء (!)

فى قبضة القهر آناء الليل وأطراف النهار ، كتب أرزاق بعضهم عند بعض ، وسلط عليهم بواعث الحرص على جلبها من سائر الاقطار ، ليتصل كل واحد بما سبق له فى أم الكتاب ، وما جرت به الاقدار ، نحمده سبحانه على ما أنعم علينا من نعمه الغزار ، ونشكره على ما اسدى الينا من مننه التى لا يأتى عليها انحصار ، ونشهد أن لا الاه الا الله وحده لا شريك له ، الفعال لما يريد بمحض الاختيار ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى بنوره أشرقت الانوار ، وبمحبته واتباع سنته تطهرت من أدناسها القلوب والاسرار ، ورفعت عنها الحجب والاستار صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الذين بذلوا جهدهم فى اتباع سنته فى الحضر والاسفار ، وانتصروا بانتصاره اى انتصار ، صلاة تكون لنا فى الدارين أمانا من جميع المخاوف والاوعار ، وتحلنا ببركة جواره فى دار القرار ، وسلم كثيرا) (1).

ويمكن القول بأن ارشاد المسافر هذا ، كان متداولا بين الناس قبل اليوم ، اى قبل ان تكون وسائل الطبع والنشر متوفرة بالشكل الذى هو عليه الآن ، وذلك لاننا نجد الاشارة اليه ، والاعتماد عليه فى كتاب مناسك الحج (2) لابى العباس أحمد البويعقوبى الملوى السالف الذكر

وبقطـع النظر عمـا يتعلق بموضوع السفر فان فى هـذا الكتيب فوائد ذات صلة بالادب والتاريخ وذلك مثل ما ورد فيه من اشارات الى بعض الكتب واصحابها كابن الجلاب الفهرى وكتابه روح الشعر وروح

---

(1) نكتفى بهذا القدر من ارشاد المسافر وذلك لعدة اسباب من بينها بالطبع ما يتبـع ذلك مـن مصاريف

(2) مناسك الحج كتاب مخطوط فى نحو 285 صفحة من الحجم المتوسط وهو نفسه له علاقة بالسفر بدليل قول صاحبه (وبعد فهذه مناسك أردت بعون الله وضعها لنفع نفسى وللقاصر مثلى الفاتر ، وتذكرة للحاج المسافر تحتوى على ثمانية أبواب ، تفاؤلا ورجاء ان يدخلنى الله تعالى مع أحبتى وجميع المومنين من ابـواب الجنـة الثمانية) وهو كتاب مفيد فى بابه ، والفصل السابع والثامن منه لهما صلة بالرحلات الحجازية ، وقد بقى ذكره على صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى سدد الله خطاه .

الشحر ، وهو غير أبى القاسم المالكى البغدادى صاحب كتاب التفريع والمتوفى سنة 387 وكابن الفرس وكتابه غريب القرآن ، وعبد الرحمن بن البناء التلمسانى ، والفقيه الصالح ابى عبد الله محمد ابن الفتوح التلمسانى نزيل مكناسة الزيتون (1) الى غير هذا من الاشارات التى لا تخلو من الاهمية والفائدة

(1) المتوفى سنة 818 هـ

القيمة التاريخية والادبية لكتاب الجهاد

لكتاب الجهاد الآتى نصه ، وضمنه التائية ، قيمته التاريخية والادبية، ولكل منهما اهميته لدى المؤرخين والادباء ، اما الجانب الاول ، فما زال لحد الآن محاطا بكثير من الغموض ، وقد يكون من بين اسباب ذلك ان الدولة الوطاسية لم تعمر طويلا ، أو لم يكن لها من المجد والعظمة ما يكفل لها وفرة الزبناء بالدرجة التى كانت لجميع الدول المتعاقبة علـــى المغرب وحتى ذووا الاختصاص فى الموضوع ، فلم يمروا على هـــذه الحقبة من التاريخ الا مر البخلاء ، ولو تلت مر الكرام كما يقال ، لكنت فى حاجة الى الاستدلال على ما كان لهؤلاء القوم من سخاء فى هذا الباب

واننى اقصد هنا التاريخ الخاص بهذه الدولة ، اما ذكرها مدرجة فى تاريخ المغرب العام ، فحدث ولا حرج ، ولكن هذا الحديث لا يبتعد عن الحوادث العامة الا لماما ، ولهذا السبب بقى الكثير من اسرار احتلال السواحل المغربية غامضا ، باستثناء ما ارخ له صاحب الاستقصا وغيره ، وهو فى الغالب منقول عن (مانويل) (1) الذى يكاد ويا للاسف يعد المرجع الرئيسى لتاريخ هذا الاحتـــلال

وقد يعثر القارىء عند ترجمة هذا الشخص أو ذاك ، ولدى تعرضه لولى او شاعر ، على جملة أو جملتين لها صلة بالموضوع ، ولكن دون هذا

---

(1) ذكر صاحب الاستقصا ان هذا المؤرخ كان ينقل الغث والسمين والرخيص والثمين انظر ج 4 صفحــة 71

وذاك خرط القتاد كما يقال ، اذ يحتاج المؤرخ الى جمع المئات منها ليكون موضوعا متحدا ، أو ليلقى الضوء على أحد الجوانب من هذه الناحية المدلهمة العجفاء ؟ ؟

وقد نجد من بين الذين تصدوا لتاريخ هذه الفترة (أبا عبد الله محمد الكراسى) فى نظم سماه (عروس المسائل فيما لبنى الوطاس من الوسائل) (1) كما أن لابى عبد الله محمد بن محمد بوراس العسكرى كتاب (ذيل القرطاس فى ملوك بنى وطاس) ، ومن الذين استوعبوا الكلام على هذه الدولة على حد تعبير صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 1 ص 169 أبو عبد الله محمد بن محمد بن على الدكالى فى جزء وسط سماه (ضوء النبراس لدولة بنى وطاس) وهذا بالطبع عدد غير كاف ، اذا قيس بما الف حول دول اخرى (2) ومن هنا ازدادت قيمة كتاب ابن يجبش ، خصوصا وانه يعطينا نظرة عن

1) موقف هذه الطبقة من أهل الفكر فى المغرب ، وانها كانت أثناء هذه المرحلة مخالفة لما كان عليه الامر عند الكثير ، سواء فى الاندلس او الشرق ، ذلك ان هذه الحملة المنظمة من طرف أمثال ابن يجبش ، وأبى عبد الله محمد البهلولى قل أن نعثر لها على نظير ، وقد يقال بأن لاهل الاندلس فى الموضوع الشىء الكثير فأقول

ان أغلب ما قيل كان اما على الصعيد الرسمى أو كان لصاحبه فيه من الاهداف الشخصية ما افقده معنى التحريض

2) كما انه يعطينا نظرة عامة على ما وصلت اليه البلاد من انحطاط

---

(1) ذكر صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 2 ص 423 ان للكراسى هذا رجزا فى تاريخ الدولة الوطاسية فرغ منه فى ذى الحجة متم سنة 970 هـ استهله بقوله :
(الحمد لله العزيز القادر عالم كل وارد وصادر
يقع فى نحو ثلاثمائة من الابيات
(2) اشير الى ان الكتب التى الفت حول الدولة العلوية مثلا تفوق المائة والكل مخطوط ولست ادرى الى متى سيبقى الكل مخطوطا على الرغم من اننا ندعى الفقر ، وندعى الضحالة فى الادب والتاريخ !!

اجتماعى ، نتج عنه اليأس الذى كان يؤدى الى الاستسلام ، لولا أن تدارك الله الامر على يد دولة الاشراف السعديين ثم العلويين وقد فصل اليوسى فى محاضراته هذا الانحطاط بتطويل فليعد اليه من يشاء

3) ثم ان المسلمين كما يبدو من قول ابن يجبش

وقد أرعبت تلك السواحل منهم وصاروا يؤدون الخراج كجزية

كانوا يؤدون للبرتغال خراجا منظما ، وهذا الخراج قد فصلته بعض الوثائق البرتغالية التى تم العثور عليها مؤخرا ، وهى وثائق وان كانت فى حاجة الى الغربلة ، فانها جد مهمة (1)

4) كما أن قول ابن يجبش

ولم يقنعوا من ما سبوا من بلادكم واخوانكم فى حين تلك القضية

يؤكد رغبة المحتل فى المزيد من التطاول والاحتلال وقد جاء فى الوثائق المشار اليها أعلاه ، ما يؤكد وصول جيوش البرتغال الى أبواب مراكش وحتى الاسوار الفولاذية التى حصنوا بها ما احتلوا من مدن تدل على أنهم كانوا يفكرون فى الخلود

5) كما أن فى الكتاب عدة اشارات الى ما كان عليه أمر الجاسوسية المنظمة من طرف الخصوم ، تلك الجاسوسية التى كان لها فى هذا الاحتلال اكثر من اثر ، وكأنى بابن يجبش قد شعر بها وتعرف على ما يكمن فيها من خطر ،خصوصا ووضع المغرباذ ذاك كان على ما كان عليه من تدهور

---

(1) ذكر الاستاذ التازى سعود فى محاضرة القاها فى المدة الاخيرة ببلدة مكناس بعنوان (البرتغال والمقاومة المغربية) انه تم العثور على وثائق برتغالية فى الموضوع ، تعرض فيها الى نوع الخراج الذى يؤديه المغاربة ، وخصوصا من ميناء آسفى ، الذى كان من جملة ما يؤديه سنويا ، الف سمكة من نوع الشابل ، وهذا ما يمكن أن يكون مخالفا للواقع ،لان عاصمة الشابل من قديم هى أزمور فى الجنوب ، وعلى ذكر هذه المدينة ، اشير الى اننى لست بمتفق على العدد الخيالى الذى ذكر فيها من مساجد وابراج ، اللهم الا اذا كان يقصد رباط أزمور بكامله فهذا كلام آخر ، وعلى اى حال فان مثل هذه الثغرات هى التى دفعتنى من قبل الى المطالبة بالغربلة والتمحيص

وانحلال ولهذا نراه يقول ولعل هذا من خصائص هذا الكتاب (أمـــا علمتم أن أعداءكم باحثون عليكم ، مشتغلون بكل حيلة فى نيل الوصول اليكم ؟) الى ان يقول (وارسلوا جواسيسـهم وعيونهم فى كل بلـــدة ليخبروهم بما عندكم من عدة) ويقول (لم تبالوا بما اتفق عليه مناذلال دين سيد المرسلين ، واخذ عباد الله المومنين ، فلما عرفوا جميع أحوالكم ، وما انتم عليه من عدم اهتمامكم واشتغالكم ، طمعوا ، لا بلغ الله لهم أملا فى نيل المراد) ، الى آخر هذه الاشارات التى لا تخلوا من عبر وعظات

اما القيمة الادبية ، فلا يمكن أن تخفى على كل ذى ذوق سليم وقد فطن لها من قبل صاحب دوحة الناشر حيث قال فى تعليقه على هذا الكتاب (ينبغى ان يتناول باليدين ، ويكتب دون المداد باللجين) وان المتأمل فى التائية السابقة — وهى جزء من الكتاب — يجد فى بعض أبياتها من الروعة ، وفى البعض الآخر من الجمال والقوة ، ما يجعله يضعها ولا يبالى امام ما جادت به قرائح شعراء النكبة من قريض ، مبتدئا بهوامش نزار وهمزيته ، ومعرجا بعد على كل معطيات الادب الحماسى ، سواء ما قيل منه قبل احراق المسجد الاقصى او بعده ، اقول هذا وانا على يقين من اننى لم استمع لحد الآن الى من استطاع ان يترنح ترنح ابن يجبش حيث قـــال

ولم أستطع صبرا وكيف يصح لى وقد هتكت من ديننا كل حرمة ؟ ؟

فياليت المسجد الاقصى أحرق قبل هذا الاوان ، او ياليت ابن يجبش كان من معاصرى هذا الاحتراق ، اذا لما اكتفى بالمداد ، اما دم الفؤاد فقد يراق ، اما على الاوراق او فى ساحة الاحتراق ، وقد ثبت ان جاد بهما فى حوادث اصيلا بلا حدود ، ومن هنا صح لى ان اضعه فى طليعة مـــن اشتهروا بالسيف الى جانب الشهرة بالقلم وهل كان من اول هؤلاء الا أبو فراس ، وهو الذى كان يرسل الانات والزفرات من أجل الفكاك من الاسر ؟ اما صاحبنا فقد كان يرسلها من اجل فكاك المسلمين من أعداء المسلمين ، ولهذا كان الفرق بينهما كالفرق بين انسان يريد الخير لنفسه ،

وآخر يريده للناس ولهذا ايضا سبق للنقاد ان عابوا على أبى فراس قوله (اذا مات ظمآنا فلا نزل القطر) ، أما صاحبنا فهو عند النقاد مجهول ، لانهم لم يتعرفوا بعد على انتاجه ، ولو عرفوه لوضعوه بلا اشارة الى جانب ابى العلاء المعرى حيث يقول

فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

وأما الجانب الوطنى فقد كنت ساغض الطرف عنه ، لانه عند امثال ابن يجبش من المسلمات ، ولكننى وجدت نفسى مضطرا لاقول حوله كلمة ، ذلك أن ابن يجبش كما يبدو من خلال ما سبق ، كان ذا حاسة وطنية قل أن يوجد لها مثيل ، ومن تتبع الكتاب من الالف الى الياء ، يستطيع ان يدرك الى اى حد اثر انهزام المسلمين فى هذا الاسد الجريح ، والى اى حد بكى واستبكى ، ووقف واستوقف ، وهو بين هذا وذاك شاكى السلاح متدمر غضوب الا ان هذا التدمر وذلك الغضب ، لم يكونا من اجل اصيلا وحدها ، او من اجل احتلالها مع ما احتل من السواحل المغربية فقط ، وانما كان الامر عنده أدهى من ذلك وأمر ، وكيف لا والامر فى نظره ليس الا نهاية لبداية تمتد جذورها الى ايام الحروب الصليبية وما صاحبها من محن ومناوشات ولعل هذا ما جعلنى أعطيه صفة الوطنية بتحفظ راجع الى ان الاسلام فى نظر أمثال هؤلاء القوم لا وطن له ولا حدود وما على امة المسلمين الا ان تعترف بهذه الحقيقة وتعمل من اجلها ، والا فالويل ثم الويل لمن اكل يوم اكل الثور الابيض ؟

التحريض على الجهاد

وبعد ما سبق ، فلا ادعى ان ابن يجبش قد اختص بالكتابة فى الجهاد ، أو انفرد بالتحريض عليه ، اذ بقطع النظر عن الآيات القرآنية انواردة فى هذا الباب ، وكذلك الاحاديث النبوية ، وما تعرض له الفقهاء والمفسرون وأهل الحديث ، نجد قبل ابن يجبش وبعده من تعرض للكتابة فى الجهاد وافاد ، بل ان منهم من اتى فى الكلمة القصيرة أو الخطبة بما لا يمكن ان يتضمنه كتاب ، وعلى راس هؤلاء الامام على كرم الله وجهه، الذى ما زالت بلاغته تنبض بالحركة ، وما زال نهجه فى التحريض يدعو الى السير ، ويحث الناس على الاستنفار ، (فمن تركه رغبة عنه البسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، وديث بالصغار والقماء وضرب على قلبه بالاسداد) (1)

وقبل أن نتقدم عند كتاب المغرب الاقصى تطالعنا خطبة طارق بن زياد بتعابيرها الواضحة ، وتتشبيهاتها الواقعية ، وذلك فى مثل قوله (واعلموا انكم فى هذه الجزيرة اضيع من الايتام ، فى مأدبة اللئام) ، ثم ينتقل من بعد الى المقصود فيعد ويعظ ، ويعطى من الامثلة ما كفل له التوفيق فيما قام به من بعد من حملات (واعلموا انكم ان صبرتم على الاشق قليلا ، استمتعتم بالالذ الارفه طويلا ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن

---

(1) نهج البلاغة ج 1 ص 63

نفسى ، فما حظكم فيها بأوفق من حظى ، وقد بلغكم ما نشأت عليه هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور ذوى الملوك والتيجان، وقد انتخبكم الوليد ابن عبد الملك أمير المومنين من الابطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة اصهارا واختانا ، ثقة بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الابطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته، واظهار دينه بهذه الجزيرة (1)

وعلى الرغم مما راج حول هذه الخطبة من قبل وقال ، فانها على اى حال من أروع ما يمكن الاستشهاد به فى باب الجهاد ، وهى زيادة على ما فيها من صور ادبية رائعة ، تشتمل فى نفس الوقت على حض رائع، واستنفار بطولى مثير

ومن بعد هذين النموذجين ، يمكن أن نجزىء من تناولوا الكتابة من المغاربة فى هذا الباب الى طائفتين   الاولى خصص أصحابها الجهـــاد بكتب مستقلة ، وذلك على غرار ما صار عليه ابن يجبش   ومن بين هؤلاء المهدى بن تومرت ، الذى نسب اليه صاحب النبوغ المغربى كتابا (2) فى الجهاد ، لم نعثر منه وياللاسف حتى على بعض الفقرات ، ولو تأتى ذلك لاطلعنا فى هذا الباب على نوع من التحريض جديد

ثم أبو القاسم التجيبى السبتى ، وهو من رجال القرن الثامن الهجرى، فقد جمع أربعين حديثا فى الجهاد دونها فى كتاب   كما أن من رجال هذا القرن أيضا أبا سعيد الرعينى الفاسى ، الذى له فى الموضوع كتاب (المهاد فى الجهاد) وللشيخ الهادى السجلماسى كتاب (فلك السعادة فى فضل الجهاد والشهادة) وللسفير المغربى احمد الغزال رحلة الى اسبانيـــا بعنوان   (نتيجة الاجتهاد فى المهادنة والجهاد) وقد الفه فى أيام السلطان

---

(1) نفـــح الطيب   ج 1 ص 225
(2) النبـــوغ المغـــربـــى   ص 159

سيدى محمد بن عبد الله ، كما الف فى أيام هذا السلطان أيضا كتاب (الحلل البهجة فى فتح البريجة) خصصت الخاتمة منه للكلام على فضل الجهاد

والطائفة الثانية التى تطرق اصحابها للكتابة فى هذا الباب ، كان ما كتبوه بعيدا فى مضمونه عن التحريض ، ولكن له صلة وثيقة بالجهاد ، اذ له صلة ببعض جوانب القوة لدى الامة أو الجيش ، سيما والقرآن يقول فى سورة الانفال واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم » ومن مفهوم هذه الآية وغيرها انطلق فوج آخر من المؤلفين يكتب فى الموضوع، ومن هؤلاء أبو العباس أحمد العرائشى التمسمانى الريفى ، الذى نجد له كتاب (روضة الجهاد الفائق ، لمن أراد الغزو بالصواعق) يتكلم فيه على كيفية تعمير المدافع والمهارس بالبارود ، وكيفية قذفها على العدو وهو رجز استهله بقوله

حمدا لمن الهمنا سبحانه ذو الحول والقوة والاعانة

ثم كتاب (نزهة الناظرين ، وتعليما للمجاهدين ، واعانة على أعداء الله الكافرين) الفه صاحبه فى أيام السلطان سيدى محمد بن عبد الله ، وتكلم فيه هو الآخر على صناعة البارود ، وكيفية قذف القنابل وما يتبع ذلك مما كان العمل جاريا به فى ذلك الابان ، ولابى العباس أحمد ابن محمد المرنيسى المتوفى سنة 1277 هـ تأليف فى نظام العسكر وكيفيته والادلة على ذلك ولابى عبد الله محمد بن عبد القادر الكردودى كتاب (كشف الغمة فى بيان أن حرب النظام واجب على هذه الامة) تكلم فيه على أحدث النظم التى يجب أن تتخذ للجيوش وقد طبع سنة 1885 م (1)

ومما يدخل فيما سبق من التأليف (نظم فى علم الرماية والركوب

---

(1) لعل اهمية هذا الكتاب تعود الى أن الفاصل الزمنى بين ظهوره وبين ظهور كتاب الجنرال دكول (نحو الجيش المحترف) لا يتجاوز خمسين سنة ، وقد أحدث هذا الاخير كما هو معلوم تطورا ملموسا فى أساليب التنظيمات العسكرية الحديثة أيام الحرب العالمية الثانية ، فهل بين هذا وذاك من ايحاء !!

على الخيل) ثم كتيب (الرياضة في الاسلام) الاول لابى عبد الله محمد ابن محمد بن عبد الكريم الخمسى ، تكلم فيه على الرماية والركوب على الخيل وما فى معناهما ، والثانى لابى عبد الله محمد بن أحمد العبدى الكانونى ثم الاسفى ، وهو وان كان خاصا بالرياضة كما يفهم من العنوان ، فان الرياضة بجميع فروعها ما هى فى الواقع الا وسيلة من وسائل القوة عند الامم ، حتى ان من المفسرين من قال تعليقا على قول الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » بأن من حق الابناء على الآباء تعليمهم القراءة والكتابة والسباحة والرماية ، ومن هنا فان العناية بجميع أنواع الرياضة عناية بأحد الاجزاء التى تهدف اليها الامم بواسطة التجنيد والى الذين قالوا بأن فكرة التجنيد مستوردة هى الاخرى ، اهدى هذا الراى معززا بما يمكن أن يستنتج من الآية السابقة من اشارات

وهناك طائفة ثالثة خلفت فى هذا الباب اما خطبة أو قصيدة أو كلمة، وذلك مثل طارق بن زياد كما أسلفنا ، وعبد الله بن ياسين ، ومالك بن المرحل والمنصور المرينى وغيرهم

ومن غير المغاربة الذين كتبوا فى الموضوع أذكر على سبيل المثال ، كتاب (حلية الفرسان ، وشعار الشجعان) لابى الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن هديل الاندلسى ، و (تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس) له ايضا ، وهو ينقسم الى قسمين ، الاول فى الجهاد ، والثانى فى الخيل والسلاح ، وكتاب (يقظة الناعس فى تدريب المجاهد الفارس) ، و (تهذيب الامعان ، فى الشجاعة والشجعان) ، و (راحة القلوب والارواح ، فى الخيل والسلاح) ، وكتاب (جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى) للرئيس ابى يحيى بن عاصم الغرناطى شارح التحفة ولابى محمد عبد المجيد ابن ابى البركات الصدفى الطرابلسى المتوفى بتونس سنة 684 هـ كتاب (مذكى الفؤاد فى الحض على الجهاد) ، ثم تاريخ الخميس للديار بكرى ، ويتبع ما سبق ، كتاب لابى اسحاق ابراهيم بن أحمد بن غانم الاندلسى سماه (العز الذائع ، فى المجاهدين بالمدافع) كما أن

صاحب التراتيب الادارية (1) ساق زيادة على ما سبق قسطا مهما ، وذلك مثل كتاب الخيل ، للحسن بن عرفة ، وكتاب (جر الذيل من علـــم الخيل) للحافظ السيوطى ، وللشمس محمد بـــن الامير عبـــد القـــادر الجزائرى كتاب (الصافنات الجياد) ، وهو مطبوع ، وله اختصار مطبوع أيضا ، وللشمس محمد بن محمد البخشى الخلوتى (رشحات المداد ، فيما يتعلق بالصافنات الجياد) ، وهو موجود بالمكتبة الخديوية بمصر وللحافظ ولى الدين ابى زرعة العراقى المصرى (فضل الخيل وما جاء فيها من الفضل والنيل) ، وللحافظ سراج الدين محمد بن رسلان البلقينى (قطر السيل ، فى أمر الخيل) لخصه من تأليف الحافظ الدمياطى وزاد عليـــه أشيـــاء

ولعل أكثر الكتب طرافة فى الموضوع كتاب (بستان الدول) للوزير لسان الدين بن الخطيب ، ووجه الطرافة فيه أنه يشتمل كما جاء فى نفح الطيب (2) ، على شجرات عشر (أولها شجرة السلطان ، ثم شجرة الوزارة ، ثم شجرة العمل ، ثم شجرة الجهاد ، وهى فرعان اسطول وخيول) الى آخر ما فى البستان من شجرات ، وهو بكامل الاسف كتاب غير موجود ، وحتى صاحبه لم يتمه ، لان (حادث الدولة) على حد تعبيره قطـــع عنـــه ذلك

وهناك قصائد أخرى ، وكلمات قيلت على اثـــر مأساة الاندلس ، وما صاحبها من حزن وأسى ، ولكنها كانت فى الغالب اقرب الى الاستغاثة والاستعطاف منها الى التحريض على الجهاد هذا بالاضافة الى بعدها عن الصفة الشعبية وصبغتها بالصبغة الاستقراطية فى الغالب ، وذلك مثل السينية الشهيرة لابى عبد الله بن الابار القضاعى والتى مطلعها

ادرك بخيلـــك خيل الله أنـــدلسا ان الطريق الـــى منجاتهـــا درسا

---

(1) جزء 1 صفحـــة 331
(2) نفح الطيب ج 9 ص 303 و 305

فهى موجهة الى أبى زكرياء بن ابى حفص ، وعلى الرغم من أنها وجدت الآذان الصاغية ، فانها لا يمكن لها أن تخرج عن نطاق الاستغاثة ، وبعيدة فى نفس الوقت عن التحريض على الجهاد

ومما يدخل فىهذا الاطار ايضا قول بعضهم

نادتــك انــدلس فلب نــداءهـــا　　واجعــل طواغيت الصليب فداءها

فانه مع ما سبق ، لا يخرج عن نطاق المكاتبات الرسمية هذا بالاضافة الى أن البعض من الاقلام قد شرق ، والبعض الآخر قد غرب ، فبينما نرى من سبق يكتبون الى الحفصيين وابن الخطيب يتوسل الى جيرانه بالعدوة الاخرى ، نجد من بينهم من يتعدى كل هذا فيكتب الى ابى يزيد خـــان العثمانى ويتوسل اليه ثم يخاطبه بخير خليفة

ســـلام كـــريـــم دائـــم متجـــدد　　اخص به مولاى خير خليفـــة (1)

الشيء الذى ان دل على شيء فانما يدل على سوء التنسيق وعـــدم جمـــع الكلمـــة

وعلى العكس من هؤلاء ابن يجبش الذى نراه يوجه كلامه الى من يعنيهم أمر هذا الاحتلال ، ويتوسل اليهم تارة بالاولياء ، واطوارا بالانبياء والاصفياء ، وقطبهم امام الورى الآتى بأفضل ملة

واصحابه والتابعيـــن وتـــابـــع　　وبالقطب والابدال من كـــل ملـــة

ثم هو لا يكتفى بهذا القدر ، فيستعطف أهل الرأفة والايمان ، وأهل الغيرة من المغاربة ، ويطلب من الذين وقفوا على نظمه أن يتجولوا فـــى المدن والقرى مستصرخين ، شارحين نكبة المسلمين للمسلمين

فهذا لسان الحال يدعـــو مخاطبا　　لمن فيه من أهل الوفا بعض همة
ومن فيه ايمـــان ومن فيه رأفـــة　　ومن فيه للاســـلام أعظم غيـــرة

---

(1) انظر الباقى فى أزهار الرياض ج 1 ص 109

ولم يرض للدين القويـــم اهانـــة ولـــم يحتمل ذلا لشـــر الخليقـــة
فيـــا منشدا ذا النظم ناد محرضا بجد وعـــزم عنـــد كـــل مدينـــة
وجل فى البوادى والقبائل صارخا عسى يستفيق القلب من سوء سكرة

وعلى هذا النحو يسير فى النثر حيث يقول (الا من فيه غيرة ؟ الا من يبرد حر هذه الجمرة ؟) ويقول (أين أرباب العدة ؟ أين أصحاب البأس والشدة ؟ أين أسود الرجال ، الموثرون لرضوان ذى العظمة والجلال، الذين لا تدركهم دهشة ولا خوف عند القتال ؟ أين من يهجر النوم والرقاد ؟ أين من يترك الاهل والاولاد ؟ هل من بائع نفسه من الله ؟ هل من مستوجب جزيل الثواب من مولاه ؟ هل من باذل فى سبيل ربه مهجته ؟ هل من مظهر لمولاه بأسه وشدته ؟ هل من مخالف نفسه الامارة ؟ هل من منفق ماله فى أعظم تجارة ؟) الى غير هذا وذاك من الصيحات التى لو صدر مثلها من أهل الفكر بالندلس لغالبوا القدر ، ولكـــان منهم فى هـــذه الرقعـــة الاسلاميـــة خير كثير

موازنات

(1)

ولنعد بعد الى مناقشة ابن يجبش على ضوء من كتبوا فى الجهاد ، فنرى بادىء ذى بدء ، ان المقارنة بينه وبين الامام على لا تصح ، لان هذا أقل ما يقال عنه انه خريج مدرسة الرسول ، ومن هذه المدرسة استمد أصول البلاغة ، وتعلم الضرب فيها بأكثر من سهم ، ومن هنا ففحولته فى هذا الباب لا يوجد لها نظير

(2)

أما طارق بن زياد فقد قال ما قال ، وهو على أبواب المعركة ، وقاله بوصفه قائدا لجيش معين ، فى حين أن صاحبنا كان يحاول بما قــال ، استنهاض الهمم وجمع كلمة الامة ، ودفع المتطــوعين منهــا للجهــاد والاستشهــاد

(3)

واذا ما وضع الى جانب كل من ابن ياسين والمهدى بن تومرت ، نجد أن صفات الدعوة والتحريض متوفرة فى الجميع ، ومن بين هذه الصفات الوعظ والارشاد ، مع الدعوة الى تقويم الدين بالدنيا والدنيا بالدين هذا مع اعتبار أن كلا من ابن يجبش وابن ياسين كانا ينتميان الى رباط ، وهذا

ما يتلاءم مع طبيعة الدعوة الى الجهاد ، فى حين أن المهدى يمتاز عنهما بأفكاره الفلسفية وتعاليمه المهدوية ، التى استطاع بواسطتها أن يؤلب الناس ضد دولة ليقيم على انقاضها دولة اخرى ، وهذا ما لا يمكن أن يكون فيه على اتفاق مع كل من ابن يجبش وعبد الله بن ياسين الذين كانا يدعوان الى الالفة والاتحاد وجمع كلمة المسلمين

وعن الاثنين يختلف ابن يجبش فى كون القصد من تحريضه ، هو العمل على استرجاع ما ضيع المسلمون من بقع اسلامية بسبب ما هم فيه من غفلة وتواكل وخذلان ، وكل ذلك تحت راية السلطان الذى يدعو له بالنصر والتمكين ، ويرجو من الله (أن يجعل دولته من أعظم الدول ، ويلحقه بدرجة اهـ لالعدل من الائمة الاول) فى حين أن كلا من الآخريـــن كان يعمل على خلق دولة ، وقد وصل كل منهما الى ما اراد ، وعلى العكس من ذلك ابن يجبش الذى مات وقلبه مما الم بالوطن جريح

(4)

ولعل وضع ابن يجبش الى جانب لسان الدين بن الخطيب سيجعل الموازنة افيد ، خصوصا وانهما كانا يعيشان معا فى زمن كان المسلمـــون فيه ، فى اشد الحاجة الى الجهاد ، بله الكتابة فيه ، والتحريض عليه ، هذا ان لم نقل بأن ابن الخطيب كان يعنيه الامر اكثر من ابن يجبش ، لانه أولا رجل رسمى ، وكان من الوزراء الذين لعبوا أدوارا هامة فـــى السياسة بالاندلس وبعد نزوحه عنها ، ونزوله فى أحضاء بنى مرين ، لم يعش بمعزل عن الاحداث ، بل سافر ، وتجول ، واتصل ، ومدح ، وعومل بما يجب أن يعامل به كبار الشخصيات العلمية والسياسية من اجـــلال وتقـــديـــر

وعلى العكس من ذلك ابن يجبش ، الذى يرى ، وكأنه كان يعيش بمعزل عن كل ما ذكر ، بعيدا كل البعد عن جميع الميادين السياسية التى تقلب فيها ابن الخطيب ، ولم يكن ينتظر بعد انفراج الكروب ، أن يستفيد

استفادة ابن الخطيب فيما لو ساعدته الظروف ، وجرت الرياح بما كان يشتهى ومع ذلك ، فبماذا اشتغل كل منهما فى هذا الظرف الرهيب ؟

ان ابن الخطيب كما نعلم من خلال حياته ، ومؤلفاته ، واساتذته ، وتلاميذه ، وحتى من خلال مناصبه ، وعلاقاته الخاصة والعامة ، كانت شخصيته وما تزال ابرز من شخصية ابن يجبش بكثير ، وحتى الموازنة بينهما فى المجال الادبى والعلمى لا تصح ، لان الاول كاتب بليغ ، وشاعر مفلق ، ومؤرخ كبير ، وسياسى خبير ، بينما الثانى كل ما نعرف له الآن من انتاج يتلخص فيما اشرنا اليه فيما سبق ، ومن خلاله يبدو وان خالط اهل الحكم فى بعض الاحيان ، انه كان عن الاجواء السياسية بعيدا ، ولم يهتم ازاءها الا بما يجب ان يهتم به كل ذى ضمير حى ، وفكر حساس ويكفيه أنه سخر حاسته الادبية للتحريض على الجهاد ، وهذا ما كان على ابن الخطيب ان يهتم به قبل اى شىء آخر ، ولو اهتم به لترك فى هذا الباب العجب العجاب لقد ترك أولا كتاب (بستان الدول) المشار اليه فيما سبق ، وحتى مع عدم العثور عليه فاننا بواسطة نفح الطيب ، علمنا أن احدى شجراته تتعلق بالجهاد ، وهى عنده فرعان ، اسطول وسلاح ، هذا بالاضافة الى بعض الكلمات التى يعثر عليها القارىء هنا وهناك تتعلق بالتحريض ، والجدير بالذكر أن الجميع جاء متأخرا عن الاوان ، وان النوع الثانى منه غير سالم من التقصير ، فأما من حيث فوات الاوان ، نرى أن ابن الخطيب كان ايام صفائه يعيش عيشة المغتر ببرق سروره الخلب ، متصرفا تصرف الآمن من صروف الدهر وغوائله ، واذ ذاك ، وقبل ذلك بعشرات السنين ، كانت تحاك للاندلس الدسائس ، وتحبك لها المؤامرات واما من حيث ما اشرت اليه من قبل من تقصير ، فلا يمكن ان يدركه بحق ، الا من امكن له ان يتصور مقدار ما اسال قلم ابن الخطيب من مداد ، وما صدر عنه من شعر ونثر ، وما ترك من كتابة فى الادب ، والتاريخ ، والسياسة ، والاخلاق ، والرحلة ، والمقامة ، وما يتبع ذلك من مديح ، وثناء ، وتعزية ، ورثاء ، وتهانى ، واخوانيات . الشىء الذى

لو اعطيت فيه الاسبقية للتحريض على الجهاد ، لتأثرت الاقلام به ، ثم انبعثت الصيحات من كل الجهات ، ولامكن لاهل الفكر فى الاندلس ان يغيروا مجرى التاريخ ، ولو بالدعوة الى وحدة الصف على الاقل ، وهذا اضعف الايمـــان

ومن خلال القطعة الآتية فى (الترغيب) فى الجهاد على حد تعبير المقرى فى ازهار الرياض (1) ، يمكن لنا أن نلاحظ فيها غلبة الجرى وراء التأنق اللفظى ، والسجعة الشاردة ، والبحث ما امكن على الانغمـــاس فى الجناس ، وهى كلها محسنات بديعية ، تحتاج بادىء ذى بدء الى خلو الذهن وهدوء البال وهذا بالطبع ما لم تتوفر عليه اجواء الكتاب واهل الفكر بالاندلس ، وخصوصا فى أيام ابن الخطيب

(أيها الناس رحمكم الله ، اخوانكم المسلمون ، قد دهم العــدو ــ قصمه الله ــ ساحتهم ، ورام الكفر ــ قبحه الله ــ استبـــاحتهم ، وزحفت احزاب الطواغيت عليهم ، ومد الصليب ذراعيه اليهم ، وايديكم بعزة الله اقوى ، وانتم المومنون اهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين ، الله الله فـــى الاسلام ، الله الله فى امة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فاغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم ان تنكثوه ، اعينوا اخوانكم بما امكن من الاعانة ، اعانكم الله عند الشدائد ، جددوا عوائد الخير ، يصل الله لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بانفسكم واموالكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين ايديكم ، والسنة الآيات تناديكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله يقول فيه « يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم » الخ

---

(1) جزء 1 صفحة 64

ومن بين ثنايا هذه القطعة ، يمكن لنا ان نحكم على نفس ابن الخطيب بالبرودة الناتجة عن كونه كان يحاول ان يضرب عصفورين بحصاة ، ولا اقول بحجرة واحدة ، وليس ذلك لان الحصاة اقسى كما قال الجاحظ ، وانما لانها اصغر حجما مما كان يتحتم على ابن الخطيب ان يضرب به فى هذا المضمار لقد كان يستدعى الامداد ،ويرغب فى الجهاد ،وهذا شىء ظاهر، وكان فى نفس الوقت — وهذا من المخبآت — يحاول الظهور خارج الاندلس بمظهر الكاتب البارع ، والمنشىء المقتدر البليغ ، ولعل هذا ، والله اعلم ، ما كان يدور بخلده وهو يكتب ، حتى اذا ازفت الآزفة ، وجد لنفسه شهرة مسبقة لدى اهل الفكر من المغاربة ، ومكانا مرموقا فى قصور الملوك واولى الامر من بنى مرين ، وهذا بالضبط ما وقع له حينما انتزع الامر من يديه انتزاعا ، وولى وجهه شطر العدوة الاخرى ، واستقبل بحفاوة منقطعة النظير

ومن قوله (الجهاد الجهاد فقد تعين ، الجار الجار فقد قرر الشرع حقه وبين)

نعلم أن ترغيبه كان موجها الى الجار أما الذين كانوا بجانبه وهو أعلم الناس بهم ، فان (منهم) من كان كالعظام النخرة ، وذلك بسبب ما صاحب لياليهم الغرناطية

من صبوح وصلوه باعتباق واعتباق وصلوه باصطباح
من مدام كأنما عصروها من خدود الملاح ، وقت المزاح
مع ندامى كأنما ندموا عما قضوه من عمرهم فى الصلاح
فراوا فى المباح كل حرام وراوا فى الحرام كل مباح(1)؟؟

ولعل هذا ما دفع فخر مدينة سلا ، الامام ابن عاشر ، الى مقابلته بعد تمنع واباء ، ولم ينفع ابن الخطيب معه الا التذلل ، وترصده بشاطىء

---

(1) هذه الابيات من خمرية لشاعر الحمراء ومطلعها

مر عام وانت يا صاح صاح ومع المراح لم تعد فى كفاح

سلا يوما بعد يوم ، حيث لا الشعر افاده هنا ولا النثر ، ولا اى شىء من أمتعة الدنيا وزخرفها ، وقد تكون هذه أول مرة يطرق فيها ابن الخطيب الباب ويعود ولسان حاله يقول كما قال شاعر الحمراء ذات يوم

قدمى لا عشت لى مــن قدم ورماك الله بالبتــر المشيــن
ما الــذى الزمك المشى الى منــزل بالبــاب منه تقفين ؟

(5)

والشخصية الخامسة ، تختلف هى الاخرى عن ابن يجبش ، فى التكوين والمنصب والجاه والاتجاه ، وتلتقى معه فى موضوع الجهاد ، الذى كان من الضرورى أن يكون حديث كل منهما المفضل ، وشغله الشاغل ، نظرا لكون كل منهما احتك بنار الفتن واصطلى بلهيبها ، واعنى بها هنا شخصية ابى يحيى بن عاصم قاضى الجماعة بغرناطة ، الذى نجد له فى الموضوع كتاب (جنة الرضى فى التسليم لما قدر الله وقضى)

وهذه هى الناحية التى يلتقى فيها مع ابن يجبش ، بل ان المتصفح لكتابيهما معا ، يجد الصلة بينهما وثيقة والشبه جد كبير وهذا بالطبع واضح من أن كلا منهما قال ما قال من وحى ما الم بوطنه من كروب ، وما احاط بجمهور المسلمين فيه من نكبات وهكذا نجد ان كلا منهما استهل رسالته بالحمدلة والشهادتين على الطريقة المعهودة عند الخطباء ، وكل منهما ببراعة الاستهلال كلف ، وفى قلبه منها ومن العناية بالسجع شوق وغرام فبينما يقول ابن عاصم (الحمد لله الذى عوض من الخلاف وفاقا ، وأعقب من الافتراق اجتماعا واتفاقا ، وهيأ لاسواق الائتلاف برفع الخلاف نفاقا ، ويسر لوطن الجهاد من توطيد المهاد ارفاقا ، وزين بأنجم السعود من النصر الموعود آفاقا) ، نجد الثانى يستهل كلامه بقوله (الحمد لله الذى لا يرد قضاؤه ، ولا يمنع عطاؤه ، ولا تخفى نعمه وآلاؤه ، المرجو فضله وحباؤه ، فلا يخيب من حسن ظنه وصدق رجاؤه ، المعطى لمن سأله ما تضمن قصده ودعاؤه ، الواحد الذى شهدت بوحدانيته ارضه

وسماؤه ، القهار الذى لا يطاق انتقامه ولا يستطاع بلاؤه ، الموصوف بالعظمة والكبرياء ، فالعظمة ازاره ، والكبرياء رداؤه)

ومن خلال هذين النموذجين ، يبدو أن الاول كان قنوعا بما انعم الله به على دولة بنى نصر من هدوء مؤقت ، فزين الآفاق بالنصر الموعود ، وعوض الخلاف بالوفاق ، والشقاق بالائتلاف ، وكان يسير فيما يكتب ، وكان كل شىء على احسن ما يرام ، وعلى العكس من ذلك ما يفهم من تلويح ابن يجبش ، وما يشم من بين سطوره من نقمة وبلاء وبعد ما يتهيأ كل منهما للدخول فى الموضوع يقول الاول (اما بعد فان الله على كل شىء قدير ، وانه بعباده لخبير بصير ، وهو لمن اهل نيته واخلص طويته ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض والبسط والقبض ، والرشد والغى والنشر والطى) وهو كلام لا يخرج بطبيعة الحال عن تفصيل ما اشتمل عليه عنوان الكتاب من رضى ، وتسليم لما قدر الله وقضى ، وما على هذا المنطق يعتمد ابن يجبش حيث نراه بعد فصل الخطاب يشرع مباشرة فى التحريض فيقول (عباد الله ، ما هذه الغفلة العظيمة ، التى اضحت على البلاد مقيمة ، وركنت اليها النفوس فاصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ؟ ؟) ان مثل هذا الاسلوب هو الذى كان صالحا لاهل الاندلس ، وبه كان على ابن عاصم أن يتسلح ، خصوصا وانه يقول فى جهة أخرى من الكتاب (ومن استقرأ التواريخ المنصوصة ، واخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى دمرهم الله ، لم يدركوا فى المسلمين ثارا ، ولم يرفعوا عن انفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وامصارا ، الا بعد تمكينهم لاسباب الخلاف ، واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف) وازاء هذا الداء العضال ـــ داء الاختلاف ـــ نجدهما متفقين على أن الاعداء لم يصلوا الى ما وصلوا اليه الا بالتفرقة وتشتيت الكلمة ،واى داء افتكبالامم من هذا المرض الخبيث ؟ ؟ وقد فطن له كل من ابن عاصم وابن يجبش فقال الاول حوله ما قال ، ووقف الثانى ازاءه عدة وقفات شعرا ونثرا

فلم يطمع الملعون فيما أصابه   من القوم الا باختــلاف وفرقة

* * *

أيــا معشر الاسلام يا امة الهدى   ترقــوا الى أعلى مقــام الاخــوة

فقد شاع فى الاقطار حال افتراقكم   وما بان فى الاسلام من سوء ثلمة

ثم اننى لا انكر أن ابن عاصم بفضل مكانته العلمية والادبية ، التى جعلت الاندلسيين يدعونه بابن الخطيب الثانى فى البلاغة ، والبراعـــة ، والرياسة ، والسياسة ، والتى أهلته لاخذ منصب قاضى الجماعة بغرناطة، وتأليف كتاب الروض الاريض (1) وشرح تحفة ابيه فى الاحكام ، اقــول بفضل هذه المكانة ، فقد كان تفوقه الادبى على ابن يجبش ظاهرا ، واحتفاله بالسجع والاستعارة اقوى ، وتلاعبه بالالفاظ ، وغوصه على المعانى أمتن واشد ، كما أنه اقوى من زميله ، واكثر قدرة على التحليق ، وخصوصا حينما تعرض للمفاخرة بين الصليب والهلال ، ثم انتقل من تفاخره هذا الى الكلام على اعتقاد النصارى فى المسيح (وان ذلك الرب قد درج بالدماء ، وسقى بخل عوض الماء وان اليهود قد قتلته مصلوبا ، وأدركته مطلوبا) وكذلك كان الامر حينما تحدث على خزانة تلك الدار النصرانية ، وما كانت مشتملة عليه من نفيس الياقوت ، ويتيم الجوهر ، وفريد الزمرد ، ونادر الامتعة ، وفاخر الآلات من الاسلحة ، كل هذا ليقول فيه من بعد (الهبه شواظ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف ، فرزئت الدار منه بما يتعذر اتيان الدهــور بمثلــه)

وهكذا نجد ابن عاصم انفرد بهاتين الصورتين ، فأرغى فيهما وأزبد ، وابدى واعاد ، وقال فيهما كل شيء ، الا التحريض على الجهاد ، فقد كان فيه هو الآخر مقصرا على الرغم من أنه كان فى اشد الحاجة اليه ، فى حين أن ابن يجبش كان فى كتابه أكثر حيرة فيما يكتب ، وما ذلك الا لان الوقت

(1) الروض الاريض فى تراجم ذوى السيوف والاقلام والقريض كانه ذيل بــه احاطــة لســان الديــن ابــن الخطيب

عنده ليس وقت حلية ولا تصنع ، وكيف لا ، وهو يعلم مسبقا أن كلامه يجب أن يصل الى العموم ؟ ؟ وما له وللخوض فى معارك دينية ربما لا يفهم المقصود منها حتى الخواص ؟ ؟

وبعد ، فان حظ التحريض على الجهاد كان عند ابن عاصم أقل مما كان عليه الامر عند ابن يجبش ، فى حين أن الجانب الادبى كان عند ابن عاصم اشد وامتن ، ولئن كان لدى ما ابرىء به ساحة ابن يجبش الادبية فلست أدرى والله ما ابرىء به ساحة ابن عاصم مما اصيب به هو الآخر من رضى وبرودة واستسلام ؟ ؟

واخيرا فلم يكن المقصود من هذه الموازنات البسيطة ، هو الرفع من قيمة هذا ، أو الحط من مستوى الآخرين ، لان الجميع اجتهد ، ولم يكن الاختلاف بينهم الا فى جزئيات هى التى كانت عندى محط عناية واعتبار ، وان الغاية عندى كانت وما تزال هى الاشارة الى امكانية فصل هذا الباب — باب الجهاد — عما عرف فى الادب العربى بصفة عامة والاندلس على الخصوص بأدب الحماسة أو التوسل والاستغاثة والبكاء على الممالك والاطلال وما المانع مع ما ذكر من اضافة فن الكتابة فى الجهاد الى بقية الفنون الادبية الاخرى ؟ اننى الى هذا كنت اهدف ، وهذا بالضبط ما كنت احاول أن اكشف عنه النقاب

ظهائر التوقير والاحترام

اهم مشكلة واجهت ملوك الدولة العلوية ، وعلى راسهم المولى اسماعيل ، هى العمل على استرجاع السواحل المغربية ، التى وجدوها محتلة من طرف عدة دول أوربية ، وكما سبق تفصيله ، فان ابن يجبش كان من اجل هذه السواحل يتدمر ويبكى بكاء الثكلى ، الى ان وافته المنية سنة 920 هـ ، وهى السنة التى احتلت فيها معمورة (المهدية) ، ومن هنا فقد توفى وفى قلبه من ما ألم بالوطن كلوم

وكأنى بالمولى اسماعيل ، وهو الذى كانت عنايته متوجهة بالدرجة الاولى الى استرجاع ما احتل من أطراف هذا الوطن ، أراد بظهيره الشريف الصادر فى احترام ابن يجبش ، وتوقير زاويته ، أن يعترف بالفضل لذويه، وهكذا نراه ما أن عمل على استرجاع المعمورة سنة 1092 هـ ، وطنجة سنة 1095 هـ ، والعرائش سنة 1101 هـ ، واصيلا سنة 1102 هـ ، حتى بادر سنة 1112 هـ الى اصدار هذا الظهير ، الذى ابى قدس الله روحه الا أن يوقر به زاوية ابن يجبش ، ويرغم الناس على احترامها بما احترموها به من قديم

(ليعلم الواقف على هذا الكتاب الكريم ، والخطاب الجسيم ، والامر المحتم الصميم ، اننا من فضل الله علينا ، وبركة والدنا المنصور المؤيد بالله ، احترمنا زاوية الولى الصالح ، المتبرك به ، سيدى محمد ابن يجبش ، نفعنا الله به وافاض علينا بركاته ، ووقرناها واحترمناها باحترامها

من قديم ، فلا سبيل لمن يخرق على تلك الزاوية عادة معروفة ، فهى موقرة لدينا ، محترمة مبرورة عندنا ، وجعلنا حدودها من راس الدرب الى راس الدرب ، فمن تعدى هذا الحد المذكور ، او كسره ، او خالف أمرنا يقطع راســـه)

ولعل عبارة يقطع رأسه ، قد ترى فيها بعض القساوة مـــن أول وهلة ، ولكنها قساوة او لغة على الاصح ، لا تحتاج الى ترجمان خصوصا وانها هى اللغة التى كانت صالحة للتخاطب فى ذلك العهد المترعرع تحت ظـــلال الثورات والامارات

ثم ان القوة لا تنتج الا القوة ، سيما وان الظهير قد كتب فى رجـــل كان هو الآخر من دعاة القوة والتمكين ، وبما أن الجميع بعد موته قد تحقق فالبدء به أولى ، ذلك ان قوة كلمات الظهير الصادر فى شأنه قد تضفى على زاويته مـــن العظمـــة والهيبة والجـــلال ، اضعاف ما اضفته قوة الايمان على صاحبها وهو على قيد الحياة

ولعل المولى اسماعيل ، وهو الذى خبر أمر احتـــلال السواحـــل المغربية ، ولاقى من أجل استردادها الامرين ، اراد أن يلفت النظر الى هذا البطل المقدام ففعل وعندى أن الذى يقول فى رجل من رجال الفكر كلمة كالتى قالها المولى اسماعيل ، بامكانه ان يقيم له تمثالا لو وافقـــه الاسلام على ذلك ، وما دام القصد من التمثال هو التنويـــه بالفضـــل ، والاعتراف لاصحابه بالجميل ، فقد عوض بتشييد ضريح ، ولنا فى هذه الاضرحة عبرة يا اولى الالباب

واذا ما انتقلنا الى ابى العباس احمد بن المولى اسماعيل المعروف بالذهبى ، نجده هو الآخر يحذو حذو ابيه ، ويصدر فى حفدة الزاوية الجبشية سنـــة 1115 هـ ظهيـــرا

(يتعرف منه بحول الله وقوته ، وشامل يمنه وبركته ، اننا ابقيناهم على ما عهد لهم من التوقير والاحترام ، والرعى الجميل المستدام ، رعيا

لوجه جدهم نفع الله به آمين فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة ، أو يحدث لديهم نقصا او زيادة ، وقد جعلنا للولى الصالح المذكور حرما يعلم من راس الدرب الى راس الدرب ، فمن دخله فهو آمن ، ولو جنى ما جنى ، أو عمـــل مـــا عمـــل)

وفى سنة 1211 هـ يصدر المولى سليمان ظهيرا آخر يقول فيه (جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه وبركته ، لحامله المرابط السيد الصديق بن السيد الشاهد ، حفيد الولى الصالح المتبرك به حيا وميتا ، سيدى محمد بن يجبش ، دفين محروسة تازة ، على ما بيده من ظهائر اسلافنا قدس الله ثراهم ، المتضمنة توقيره واحترامه وبره ، وابقيناه قيما على ضريح جده على عادته وعادة اسلافه ، ونامر الواقف عليـــه مـــن خدامنا ، وولاة أمرنا ، ان يعمل به والسلام ، فى 11 شوال عام 1211 هـ استدراك وقد زدنا الحرم توقيرا واحتراما ، ومراعاة واعظاما ، كما كان عليه مع أسلافنا الكرام ، ومن رامه بما ينقص جانبه لا يلومن الا نفسه ، فى تاريخـــه)

فى حين أن المولى عبد الرحمن بن هشام يصدر هو الآخر للشيخ بوزيان توصية من جملة ما جاء فيها قوله (وابق جلباب التوقير والاحترام على زاويتهم كما كانت واكثر ، فان الشيخ المذكور من الكمل ، ولا بـــد والسلام فى 27 شوال المبارك عام 1244 هـ)

ويختم هذه السلسلة من الظهائر — أو هذا ما عثرت عليه منها — المولى الحسن الاول بظهير مؤرخ بسابع عشر شعبان عام 1291 هـ جاء فيه على الخصوص قوله (فلا تخرق عليه فى ذلك عادة ، ولا يحدث فى جانبه نقص ولا زيادة)

وبالجملة فاننا نجد هذه النخبة من ملوك الدولة العلوية ، او من عثرنا لهم على الاصح على ظهائر فى الموضوع ، قد وفوا لابن يجبش حقه ، اعترافا منهم لما له فى عالم الصلاح والاصـــلاح مـــن جلائـــل الاعمـــال .

فجزاهم الله عنا وعنه وعن الادب والتاريخ أحسن الجزاء

وتتميما للفائدة ، نشير الى ان نكتة الظهائر فى الموضوع ، هو الظهير الصادر فى احترام هذه الزاوية سنة 1320 هـ لصاحبه الجلالى بن ادريس اليوسفى الزرهونى المعروف بأبى حمارة ، الرجل الثائر ايام السلطان المولى عبد العزيز ، وذلك فى صيف سنة 1902 م والذى القى عليه القبض وقتل سنة 1327 هـ موافق 1903 م ، ووجه التنكيت هنا يعود أولا الى انتسابه كذبا لآل البيت ، وذلك لعلمه أن كل دعوة غير متوفرة على هذا الشرط من العسير أن يحالفها النجاح ، وبما أن أبا حمارة كان كما يقال من قدماء أعضاء هيئة الطلبة المهندسين (1) ، وكان كاتبا للمولى عمر ، احد اخوة المولى عبد العزيز ، فانه بناء على هذه الحيثيات كان على علم كامل بما أراد أن يقوم به من عصيان والذى يؤيد قول Le Commandant L. Voinet القائل بتعاطيه للهندسة ، امضاؤه للظهير الذى يرى المتأمل فيه ، أنه يسير فيه من الشمال الى اليمين ، الشيء الذى يستدل به على أنه كان ملما باللغتين

هذا مع العلم بأن توقيع الظهائر عيب ، ولذلك نرى ظهائر ملوك الدولة العلوية خالية منه ، وكذلك الشأن فيما يتعلق باشتمال ظهير أبى حمارة على اغلاط املائية ، يمكن الاستدلال بها على أن العقلاء من اتباعه كانوا من الرعاع ، ولذلك هان عنده التدليس والاختلاق ، فسمى نفسه محمد بن الحسن ، بدلا من الجيلالى بن ادريس (2) ، ونسب لسيده الوالد وأسلافه (الكرام) ، ظهائر كانت كلها من قبيل الزور والبهتان

---

(1) Voici l'article du Commandant L. Voinet paru dans le bulletin trimestriel de la Sté de Géographie et d'Archeologie d'Oran - 45ème Année. Tome XL Septembre 1920 Décembre 1920.

(2) يقول عنه الكاتب المشار اليه أعلاه انه اشتهر بأبى حمارة لكونه كان يركب حمارة ، فى حين أن الذين عاصروه وما زالوا على قيد الحياة يقولون عنه انه اشتهر بأبى حمالة وحرفت هذه الاخيرة الى حمارة

ولهذه الاسباب وأكثر منها لم يوفق ، وبالتالى فان عصيانه لم يدم أكثر من سبع سنـــوات

وعلى اى حال ، فان الذى يهم الآن هو أنه هو الاخر قد قال كلمته فى الموضوع ، واصدر فى ابن يجبش وزاويته ظهيرا هذا نصه (1)

(يعلم من شريف كتابنا هذا ، الظاهر (الادلات) « كذا » الباهر الآيات ، اسماه الله وأعز امره ، وجعل فى الصالحات طيبه ونشره ، اننا جددنا بحول الله وقوته ، وشامل يمنه ومنته جددنا لحامله المرابط الخير السيد الصديق بن المقدم الشاهد ، حفيد الولى الصالح المتبرك به حيا وميتا ، سيدى محمد بن « الجبش » دفين محروسة تازة ، نفع الله ببركاته ، على حكم ما بيده من ظهير سيدنا الوالد ، وظهائر اسلافنا الكرام، قدس الله ارواحهم فى دار السلام وابقيناه على ما عهد له ولاسلافه من التوقير والاحترام ، والحمل على كاهل المبرة والاكـــرام ، والرعـــى الجميل المستدام وزدناه تعظيما واجلالا وارتقاء ، وسموا واعتـــلاء وابقيناه قائما على ضريح جده المذكور وزاويته ، واذنا بتعظيم حرمتهـــا وحوزتهـــا ، فلا يسام بسوء نزيلها ، ولا يضام مستجيرها ، ومن حـــام حماها ، أو رام أذاها ، فقد بحث عن حتفه (بضلفه) « كذا » و (جذع)

---

(1) ومن شاء الزيادة من الاطلاع على أخبار ابن حمارة فليعد الى
أ ـــ كتاب (انتحار المغرب على يد ثواره) للشيخ ابى عبد الله محمد بن الحسن الحجوى فقد ذكر عنه صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 1 ص 125 انه تكلم فيه عل ىما نزل بالمغرب من ثورة ابى حمارة وما يتبع ذلك من الاهوال والفتن مما شاهـــده وعاينـــه
ب ـــ تذكرة نافعة ونصيحة جامعة مضمونها أن السلطان الشرعى هو المـــولى عبـــد العزيز ، والتحذير من الاغترار بأباطيل ابى حمارة ، وهى مشتملة على امضاء 22 عالما من مشاهير علماء فاس ، وبعدها رسالة فى الموضوع طبع الجميع بأمر من الوزير الصدر الاعظم محمد بن محمد الجباص المتوف سنة 1934 انظر نفس المرجع السابق ج 1 ص 143 وفى الجزء الثانى ص 378 من نفس المرجع اشارة الى منظومة بعنوان (ايقاظ أهل الغفلة والمنام ، والنيابة عمن استيقظ ولم يقدر على الكلام) ، لابى عبد الله محمد بن مصطفى المشرفى استهلها بقوله
دع عنك داعـــى السرور والمـــزاج واسلك سبيـــل من بكى الديـــن وناح
جعلها صاحبها نصيحة لاهل المغرب حين ظهور الثائر أبى حمارة وقد طبعت علـــى الحجـــر بفـــاس سنـــة 1908 م

« كذا » مأرن انفه بكفه . والواقف على مسطورنا هذا من العمال أو من وليناه شيئا من الاعمال ، يعمل بما ذكرناه ولا يتعداه ، والله الموفق لما فيه رضاه ، والسلام . صدر أمرنا المولوى ، الشريف العلوى . فى 19 ذى الحجة الحرام عام 1320) .

وبما أن هذه الظهائر كانت موجهة لحفدة ابن يجبش رعيا لمكانة جدهم السامية وماضيه المجيد ، فلا بأس من الاشارة الى بعض حفدته الموجودين الآن وأذكر من بينهم على الخصوص :



شيبة الحمد الشيخ أبى زيد عبد الرحمن الشاهد الذى كان وما يزال شغوفا بمهنة التعليم فخورا بانتمائه اليها . والجدير بالذكر ان له من الطلبة من هم الآن فى مناصب هامة ، كما أن له من الابناء والحفدة ما يكفل الاستمرار لهذه الاسرة الولود أصلح الله الجميع انه على كل شىء قدير ، وبالاجابة جدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

كتــاب الجهــاد

لابن عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته التامة المباركة على خير خلقه اجمعين   ورضى الله عن آله وصحبه الكرام ، وكل من قال ربى الله ثم استقام   أما بعد ، فتح الله لنا ولك أيها الراغب فى نيل ما تأمله من جميع المطالب والمآرب ، فانك لم تزل تحضنى وتستحثنى علــى انشاء جملــة مختصرة ، جامعة بين نثر ونظم ، وتكون فى فنها معتبرة ، تتضمن تنبيــه الهمم العالية ، على الصدقة والانتصار للملة الزاكية ، وقمع الشردمة الطاغية ، عجل الله دمارها ، ومحى ببواتر المسلمين آثارها ، فقضيت من سؤالك العجب ، وجوابك لاجل نيتك وحسن ظنك ، وتكرار سؤالك قد وجب ، وقلت كيف يطلب من مثلى ، أن يؤلف ويملى ؟ وقد قال بعض العارفين رضوان الله عليهم اجمعين   (كل كلام يبرز الا وعليه كسوة القلب الذى منه برز) ، وهذا معيار صادق ينبغى أن يخاف منه ويحترز ، والانتفاع المطلوب ، الواصل الى سائر القلوب ، انما يحصل بما يبرز من قلب صادق ، وقد فاضت عليه لطائف المعارف ، واشرقت عليه انوار الحقائق   وانى لى بمثل هذا المقام ، وبى مما اقترفته من الآثام امراض واسقام ؟ فهتف بى هاتف   رب دعوة مستجابة ، تجد بركتها ممن له صدق انابة واستجابة ، وتذكرت ما حكاه ابن سبع عن مكحول قال   قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الا ادلكم على عبد يحمل يوم القيامة على ناقة لها ثلاثون جناحا بيده تضيب مــن نــور يغشى الخلائق نوره ، وينادى مناد يا معشر الخلائق ، هذا الذى كان يحض على الجهاد ، فيمر حتى يقف بين يدى الله عز وجل ، فتخر الناقة ساجدة ، فيقول لها تبارك وتعالى   أيتها الناقة اسجدت بعبدى وليس هذا يوم ركوع ولا سجود ؟

فتقول الهى لعظمتك ، قال فيقول يا عبدى ، قم فادخل الجنة ، فيقول وعزتك وجلالك ، لا حتى تشفع لى فى اخوانى قال فيقول يا جبريل ، مر بعبدى فلا يسألنى أحدا الا ادخلته الجنة برحمتى ومنه ما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال من حرض أخاه على الجهاد ، كان له مثل أجره وكان له بكل خطوة فى ذلك عبادة سنة وفى لفظ آخر عنه رضى الله عنه قال من حرض رجلا على الجهاد فى سبيل الله فله مث لاجره (ضياع) (1) ومن بطأ رجلا على جهاد فلو افتدى يوم القيامة بملء الارض ذهبا لم يتقبل منه ، وله عذاب اليم ، الا أن يعفو الله عنه فلما رايت هذا الفضل العظيم ، وما يعطى المحرض على الجهاد من الثواب الجسيم ، لاح لى بارق طمع ، وانخمد خاطر الاياس وانقمع ، رجاء أن أكون ان شاء الله ممن ضرب له فى ذلك بأوفر نصيب ، وسبقت له العناية من السميع المجيب ، وفتح له مما فتح لاهل الفهم والتمييز ، وما ذلك على الله بعزيز ، فاستخرت الله تعالى على ابرازها للوجود ، وتضرعت فى النفع بما للمتصف بالكرم والجود ، وأن يجعلها خالصة لوجهه، بجاه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه اجمعين صلاة تكون لنا سببا لنصر هذا الدين وحفظ بيضة المسلمين مع اعترافى بغاية التقصير ، واعتذارى لكل فاضل نحرير وانى خجل من هذا الكلام الغث ، والنظم الرث ، أن يطاف به فى البلاد ، وأن ينتشر بين العباد لكن بالله عز وجل اسأل ، وبنبيه محمد صلى الله عليه وسلم اتوسل ، لكل من رآه أو سمعه ان يدعو لى بالتوفيق والسلامة من كل تبعة ، والوفاة على الاسلام والاجتماع مع الاحبة ، بلا محنة فى دار السلام فهذا حين افتتح معتصما بالله عز وجل واقول ، ولى ما يقدم قبل كل مقول (2)

الحمد لله الذى لا يرد قضاؤه ، ولا يمنع عطاؤه ، ولا تحصى نعمه

---

(1) ما بين قوسين ضياع بالاصل

(2) ما سبق جعله كتمهيد للكتاب

وآلاؤه ، المرجو فضله وحباؤه ، فلا يخيب من حسن فيه ظنه وصدق رجاؤه ، المعطى لمن سأله ما تضمن قصده ودعاؤه ، الواحد الذى شهدت بوحدانيته أرضه وسماؤه ، القهار الذى لا يطاق انتقامه ولا يستطاع بلاؤه، الموصوف بالعظمة والكبرياء ، فالعظمة ازاره ، والكبرياء رداؤه ، العزيز الذى لا يدرك عزه وعلاؤه ، الذى بهر العقول مجده وسناؤه ، العليم الذى لا يستفزه تهتك من بارزه وظهر جفاؤه ، الرحيم الذى يستر قبائح عبده اذا كشف غطاؤه ، وبرح جفاؤه ، وفر منه أصدقاؤه واحباؤه ، نحمده حمد من بلغ صميم قلبه نداؤه ، فاستنار بنور معرفته وأشرق ضياؤه ، وتطهر من أدناس أوصافه فتحقق صفاؤه ، وكثر من خوف مولاه نحيبه وبكاؤه ، فنفع دواؤه ، وذهبت أدواؤه ، وتحقق برؤه وصفاؤه ، ونشكره شكرا يقوم بجزيل نعمه وفاؤه ، ويؤدى الى بلوغ الامل جزاؤه ، ونشهد أن لا الاه الا الله وحده لا شريك له ، الملك المعبود الذى جل ثناؤه وتقدست اسماؤه ، شهادة نستعد بها ليوم تؤدى فيه الحقوق ويتصل بكل ظالم غرماؤه ، ويجتمع معه اخلاؤه وقرناؤه ، واشرقت بأنواره من هذا الكون ارجاؤه ، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه الذين بهم اقيم هذا الدين واسس بناؤه ، صلاة توجب الدخول فى زمرتهم اذا نشر لواؤه ، وآوى اليه أصفياؤه وأحباؤه

عباد الله ، ما هذه الغفلة العظيمة ، التى أضحت على القلوب مقيمة ، ؟ وركنت اليها النفوس فأصبحت من الرشاد والتوفيق عديمة ، اما علمتم ان أعداءكم ، باحثون عليكم ، مشتغلون بكل حيلة فى نيل الوصول اليكم ؟ قد جمعوا من العدد ما لا يحصى له عدد ، وارسلوا جواسيسهم وعيونهم فى كل بلد ، ليخبروهم بما عندكم من عدة ، وما لكم فيه من قوة او شدة ، فأخبروهم بما أنتم عليه من الاستهزاء والغفلة ، وان عدتكم بالنسبة الى عدتهم فى غاية الضعف والقلة ، وانكم مفترقون مع اخوانكم المسلمين ، لم تبالوا بما اتفق عليه من اذلال دين سيد المرسلين ، وأخذ عباد الله المومنين ، فلما عرفوا جميع احوالكم وما أنتم عليه من عدم

اهتبالكم بهم واشتغالكم ، طمعوا — لا بلغ الله لهم املا — منكم فى نيل المراد ، واجمعوا — بدد الله شملهم — فيما بلغنا عنهم من الخروج لهذه البلاد ، ولم يقنعهم ما تملكوه فى تلك القضية من الاموال والعباد ، قد ابدلوا بعد العز والفرح ذلا وحزنا ، واستولى عليهم الكرب والترح حسا ومعنى ، قد اوثقوا بالسلاسل والحديد ، وهم فى كل يوم فى عذاب شديد ، وصاروا من جملة المماليك والعبيد ، كانوا بالامس اغنياء آمنين ، فأصبحوا اليوم فقراء خائفين انتهبت اموالهم ، وتغيرت احوالهم ، فرقت عنهم نساؤهم ، واخذت منهم بناتهم ، وصار الكفرة يتنافسون فى بيعهم بالاثمان ، وجعلوا يفرقونهم فى سائر البلدان ، ويريدون ان يفتنوهم عن دينهم ، ويفسدوا عليهم قوة يقينهم فما هذه الغفلة عن اخوانكم يا معشر المسلمين ؟ وهم ينظرون اليكم فى كل وقت وحين ، لا يشبعون من طعام ولا يجدون راحة فى المنام فما حال من يبيت بالسلاسل مغلولا ؟ وبالقيود معقولا ؟ لا يستخدمون الا بالانتهار والضرب ، والشتم القبيح واللطم والسب ، لا تدركهم عليهم شفقة ولا رحمة ، ولا يبالون بما نالهم فى ذلك من كرب او نقمة ، دموعهم على الوجنات سائلة واحزانهم متوالية غير زائلة ، لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يقدرون على اى شىء من الاسباب سرا ولا جهرا ، الا البكاء والنحيب ، والتضرع للسميع المجيب ، العالم بأحوالهم ، القادر على خلاصهم من اغلالهم ونكالهم فيالها من حرقة ما اعظمها فى القلوب ؟ ويالها من حسرة يكاد القلب من سماع حكايتها يذوب ، لا يغفل عنها الا من عميت بصيرته ، وعظمت جريرته ، الا من فيه غيرة ؟ الا من يبرد حر هذه الجمرة ؟ اين رافة اهل الاسلام ؟ اين شفقة امة محمد عليه افضل الصلاة والسلام ؟ الموصوفين بالاوصاف الجميلة ، المخصوصين باتباع المخصوص بالفضيلة والوسيلة ؟ اما بلغكم قوله صلى الله عليه وسلم انما يرحم الله من عباده الرحماء ؟ وقوله عليه السلام الراحمون يرحمهم الرحمان ، ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء وقوله صلوات الله عليه وسلامه المومنون كجسد واحد ان دعا عضو تداعى اليه سائر الجسد ؟ فاقبلوا وصية نبيكم ، الناصح لجيدكم ورديئكم ، واستيقظوا من غفلتكم ، وافيقوا من

سكرتكم ، اين ارباب الهمم العالية ؟ اين اصحاب النفوس الزكية ؟ ايـــن ارباب العقول ؟ البائعون نفوسهم فى نصرة دين الحبيب الرسول ؟ ايـــن الابطال والشجعان ؟ أين الاقيال والفرسان ؟ المتشبهون بالبزاة والعقبان ؟ أين أرباب العدة ؟ أين أصحاب البأس والشدة ؟ اين اسود الرجـــال ؟ الموثرون لرضوان ذى العظمة والجلال ، الذين لا تدركهم دهشة ولا خوف عند القتال ، اين ارباب الثوبة ، المريدون تكفير ما جنوا من زلة او حوبة ؟ أين من يهجر النوم والرقاد ؟ أين من يترك الاهل والاولاد ؟ هل من بائع نفسه من الله ؟ هل من مسوجب جزيل الثواب من مولاه ؟ هل من باذل فى سبيل ربه مهجته ؟ هل من مظهر لمولاه بأسه وشدته ؟ هل من مخالف نفسه الامارة ؟ هل من منفق ماله فى أعظم تجارة ؟ لقد اسمعت لو ناديت حيا ، اما سمعتم قو لمولانا جل وعلا فى كتابه حينما استنفركم لجهـــاد أعدائكم ؟ ليجازيكم على ذلك بما وعدكم من عظيم جزائه ، فقال عز مـــن قائل انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وانفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » وقال تبارك وتعالى « يايها الذين آمنـــوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » وقال جل ذكره « يايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تومنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وانفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » قال عمـــران ابـــن الحصين ، وابو هريرة رضى الله عنهما : سألنا النبى صلى الله عليه وسلم، عن قوله تبارك وتعالى « ومساكن طيبة » ، قال قصر من لؤلؤة فى الجنة ، فى ذلك القصر سبعون دارا من ياقوتة حمراء ، فى كل دار سبعون بيتا من زمردة خضراء ، فى كل بيت سبعون سريرا على كل سرير سبعون فراشا من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعـــون مائدة ، على كل مائدة سبعون لونا من الطعام وفى كل بيت سبعون وصيفا ووصيفة ، ويعطى المومن فى كل غداة من القوة ما ياتى على ذلك كله

فطوبى لمن امتثل امر مولاه ، واطاعه فى جميع ما من به عليه واولاه ،

وباع منه نفسه الخسيسة ، بنيل الدرجات العالية ، والدخائر النفيسة ، وعمل على الوفاء بكريم عهده ، وبذل فى مرضاته ما ملكه تصديقا لصادق وعده اذ قال تعالى « ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن اوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » فيالها من مبايعة ما أعظم ربح صفقتها! ويالها من تجارة ما اسرع نجح نفقتها ! ربحت والله أيها البائع فى بيع ما أحل لك بيعه مما عندك من الودائع ، وحصلت على الاكسير الاعظم التى لا تخاف نفاده ، وظفرت بما رمته من كيمياء الشهادة ، وكيف لا والشهداء مخصوصون بدرجات عالية ؟ ومقامات سامية ؟ اجسامهم لا تبلى ، وأرواحهم عند الملك الاعلى ، فى النعيم الدائم يتقلبون ، وبرضوان مولاهم مستبشرون ، لا يخافون فتنة فى القبور ، ولا يحزنهم الفزع الاكبر يوم ينفخ فى الصور قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا ، بل احياء عندربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله » فالآيات الواردة فى فضل الجهاد أكثر من أن تحصى ، والآثار والاخبار الصحيحة أكثر من ان تستقصى ، فمنها ما اخرجه البخارى عن ابى هريرة (رضى الله عنه) ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مثل المجاهد فى سبيل الله ، والله اعلم بمن يجاهد فى سبيله ، كمثل الصائم القائم وتكفل الله للمجاهد فى سبيله ان توفاه ان يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع اجر أو غنيمة وقال صلى الله عليه وسلم ، ان فى الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فانه أوسط الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر انهار الجنة وعن انس ابن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من عبد يموت له عند الله خير ، يسره أن يرجع الى الدنيا ، وان له الدنيا وما فيها، الا الشهيد ، لما يرى من فضل الشهادة ، فانه يسره أن يرجع الى الدنيا فيقتل مرة اخرى وقال صلى الله عليه وسلم والذى نفسى بيده ، لولا ان رجالا من المومنين لا تطيب انفسهم ، ان يتخلفوا عنى ولا اجد

ما احملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله ، والذى نفسى بيده لوددت انى اقتل فى سبيل الله ، ثم أحيى ثم اقتل وذكر ابن سبع عن ابى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول موقف ساعة فى سبيل الله ، افضل من شهود ليلة القدر عند الحجر الاسود وذكر عن سعيد بن أبى هلال ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، اخبرنى بعمل ادرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله ، قال : لو قمت الليل ، وصمت النهار لم تبلغ نوم المجاهدين فى سبيل الله ، قال يا رسول الله ان لى مالا فان انا انفقته ، ايكون لى مثل اجر المجاهدين فى سبيل الله ؟ قال وكم مالك ؟ قال ستة آلاف ، قال لو انفقتها فى طاعة الله ، لم تبلغ غبار شراك نعل المجاهد فى سبيل الله وعن ابى هريرة رضى الله عنه ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا يجتمع غبار فى سبيل الله ولا دخان جهنم فىجوف جهنم ، كما لا يجتمع شح وايمان فى جوف عبد ابدا ، البخارى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار وقال اسد بن وداعة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان يقول ان الملائكة لتصلى على الغازى ما دامت حمائل سيفه عليه ودرعه وسلاحه وعنه صلى الله عليه وسلم لروحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس احدكم من الجنة ، أو موضع قد يعنى سوطه ، خير من الدنيا وما فيها ، ولو ان امراة من اهل الجنة اطلعت الى أهل الارض لاضاءت ما بينهما ، ولملاته ريحا ، ولنصيفها على راسها خير من الدنيا وما فيها وذكر الثعالبى عن على بن ابى طالب رضى الله عنه ، أنه خطب فحث على الجهاد ، فقال له شاب ، يا امير المومنين ، اخبرنى عن الغزاة فى سبيل الله قال كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقة ونحن مقبلون من غزوة ، فسألته عما سألتنى عنه فقال ، ان الغزاة اذا هموا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار ، فاذا تجهزوا لغزوهم باهى الله تعالى بهم الملائكة ، فاذا ودعهم اهلهم بكت عليهم الحيطان والبيوت ، ويخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحية من سلخها ، ويوكل الله تعالى بكل رجل منهم اربعين الف ملك يحفظونه من بين يديه ، ومن

خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، ولا يعمل حسنة الا اضعفت له ، ويكتبون له كل يوم عبادة الف رجل ، يعبدون الله تعالى الف سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما ، الىمثل عمر الدنيا ، واذا صاروا بحضرة عدوهم انقطع علم الدنيا عن ثواب الله تعالى لهم ، فاذا برزوا لعدوهم ، واشرعت الاسنة وفرقت السهام ، وتقدم الرجل الى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتها ، ويدعون الله تعالى لهم بالنصر والتثبت ، ونادى مناد ، الجنة تحت ظلال السيوف لتكون الطعنة والضربة على الشهيد اهون من شراب الماء البـــارد ، فى اليوم الصائف ، واذا زال الشهيد عن فرسه لطعنة او ضربة ، لم يصل الـــى الارض حتى يبعث الله تعالى زوجاته من الحور العين ، فيبشرنه بما اعد الله له من الكرامة ، فاذا وصل تقول له مرحبا بالروح الطيبة ، التـــى اخرجت من البدن الطيب ، ابشر فان لك مالا عين رات ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ويقول الله تعالى انا خليفته فى اهله ، مـــن ارضاهم فقد ارضانى ، ومن اسخطهم فقد اسخطنى ، ويجعل الله تعالى ارواحهم فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، تأكل من ثمارها، وتأوى الى قناديل من ذهب معلقة بالعرش ، ويعطى الرجل منهم سبعين غرفة من غرف الفردوس ، سلوك كل غرفة ما بين صنعاء والشام وعدن ، يملأ نورها ما بين الخافقين ، لكل غرفة سبعون بابا من ذهب ، على كل باب ستر مسبل ، فى كل غرفة سبعون خيمة ، فى كل خيمة سبعون سريرا من ذهب ، قوائمه الزبرجد ، مزمومة بقضبان ، على كل سرير اربعون فراشا ، غلظ كل فراش ربعون ذراعا ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، لها سبعون الف وصيف وسبعون الف وصيفة ، صفر الحلى ، بيض الوجوه ، عليهم تيجان اللؤلؤ ، على رقابهم المناديل ، بأيديهم الاكـــواب والاباريق فاذا كان يوم القيامة فو الذى نفسى بيده ، لو كان الانبياء على طريقهم لرحبوا بهم مما يرون من بهائهم حتى ياتوا الى موائد من الجوهر ، ويقعدون عليها ويشفع الرجل فى سبعين من اهل بيته وجيرانه ، حتى ان الجارين يتخاصمان ايهما اقرب جوارا ؟ فيقعدون معه ومع ابراهيم عليـــه السلام على مائدة الخلد ، فينظرون الى الله تعالى فى كل يوم بكرة وعشية .

فتأملوا رحمكم الله هذا الملك العظيم ، والنعيم المقيم ، الذى اعد الله عز وجل للمجاهدين ، الذين بذلوا انفسهم لله رب العالمين ، مع ما ادخر لهم من مزيد الانعام ، وجزيل الثواب والاكرام ، الى ما لا يمكن التعبير عنه من عظيم هباته ، وما لا يقدر على وصفه من التنعم بالنظر الى جمال ذاته ، وكمال صفاته وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ان الرجل ليدخل على الحوراء فتستقبله بالمعانقة والمصافحة ، فيرى وجهه فى خدها اصفى من المرآة ، ولو ن ثيابها فى الدنيا لطمس ضوء الشمس والقمر ، ولو ان شعرة من شعورها بدت لملات بين المشرق والمغرب من طيب ريحها قال فبينما هو متكىء معها اذ اشرق عليه نور من فوقه ، فاذا حوراء تنادى ياولى الله ، اما آن لنا منك دولة ؟ فيقول : ومن انت يا هذه ؟ فتقول انا من اللواتى قال الله عز وجل فيهن ولدينا مزيد فاذا هى فوق الاولى فى البهاء والجمال فبينما هو متكىء معها اذا شرق عليه نور من فوقه ، فاذا هو بأخرى تنادى ياولى الله ، اما آن لنا منك دولة ؟ فيقول : ومن انت ؟ فتقول انا من اللواتى قال الله تعالى فيهن « ولا تعلم نفس ما اخفى لهم من قرة اعين جزاء بما كانوا يعملون » فلا زال يتحول من حوراء الى حوراء ، ما اشتهت نفسه وقرت عينه ، وقلت فى المعنى

أيا خاطب الحسناء ، لا يغلك المهر ... ولا تلتمس عذرا فليس لهـــا عذر
ولم ترض الا النفس فى بذل مهرها ... فليس لنفس المرء فى وصلها قـــدر
وكيف ترى نفس الفتى قيمة لهـــا ... وبهجتها لم تعطها الشمس والبدر ؟
لها مبسم يسبى العقول بهـــاؤه ... ورونق نظم الدر قد زانه الشعـــر
تحار عقول الـــواصفين لحسنهـــا ... فماالورد ما السوسانما المسكماالزهر
واحلى من الشهـــد المختم ريقهـــا ... فلو تفلت فى البحر ،طاب بها البحر
ولو اسبلتهللارض من بعضشعرها ... لطابت بها الآفاق ، وانتشر العطر
بدا نوره ، فى نور بهجة وجههـــا ... وتبدى له ما كان أضمره الصدر
وهى تنادى يا حبيبى الـــى متـــى ... فهذا أوان الوصل ، وانفصلالهجر
فبادر الى وصلى،فقد شاقتنيالهوى ... وشوقى اليك الدهر ،ليس له حصر

فسارع اليها واغتنم طيب وصلها فكيف لنفس المرء عن وصلها صبر ؟

اين العشاق ؟ اين الذين لنيران المحبة فى قلوبهم احتراق ؟ ايـن من اراد التمتع بذلك الجمال ؟ اين من طمع فى ادراك ما امله من لذة الوصال ؟ وصلت بفضل الله الى ما رجوت ايها الطالب ، وظفرت بما املـت ايهـا الراغب ، فلا يهولنك ما تتوهمه من خوف هجمة الموت ، ولا يصدنك عن نيل سعادة الابد ما شغفت به عن قواطع الفوت ، فنيل ذلك الملك خطير ، وهو على من يسره الله يسير ، فما هو الا ان تغمض عينيك ، واذا بجميع ما احببته حاضر بين يديك

روى انه كان بالبصرة نساء عابدات ، وكان منهن ام ابراهيم الهاشمية، فأغار العدو على ثغر من ثغور المسلمين ، فانتدب الناس للجهاد ، فقـام عبد الواحد ابن زيد البصرى خطيبا ، فحضهم على الجهاد ، وذكر فضل الجهاد والشهادة ، وما اعد الله عز وجل للشهداء ، فقويت نفوس علـى الجهاد ، وكانت أم ابراهيم هذه حاضرة مجلسه ، وتمادى عبد الواحد على كلامه ، ثم وصف الحور العين ، وذكر ما قيل فيهن ، وانشد فى صفة حوراء :

غـادة ذات دلال ومـرح يجد الناعت فيهـا ما اقتـرح
خلقت مـن كل شىء حسـن طيب ، فالليث فيهـا مطرح
زانهـا الله بوجـه جمعت فيه أصناف غريبـات الملـح
وبعيـن كحلهـا مـن غنـج وبخد مسكـه فيـه رشـح
ناعم ، تجرى علـى صفحته نظرة الملك ، ولألاء الفـرح
اتـرى خاطبها يسمعهـا اذ تدير الكأس طورا ،والقدح؟
فى ريـاض مونـق نرجسـه كلما هبت له الريـح نفـح
وهى تدعـوه بـود صـادق ملىء القلب به ، حتى طفـح
يا حبيبا ، لست أهوى غيره بالخواتيـم يتـم المفتتـح
لا تكونن كمـن جـد الـى منتهى حاجتـه ، ثم جمـح
بى مـن حبك مـا لو أنـه وازن الحب جميعـا لـرجح

قال فماج الناس بعضهم فى بعض ، واضطرب المجلس ، فوثبت أم

أبراهيم من وسط المجلس ، وقالت لعبد الواحد : يا أبا عبيد ، الست تعرف ولدى ابراهيم ؟ ورؤساء البصرة يخطبونه لبناتهم ، وانا اضن به عليهم ، فقد والله اعجبتني هذه الجارية ، وانا أرضاها عروسا لولدى ، فكرر ما ذكرت من حسنها وجمالها فأخذ عبد الواحد فى وصف حوراء وانشد

تولد نور النور من نور وجهها ... فمازج طيب الطيبمن خالص العطر
فلو وطئت بالنعل منها على الحصا ... لاعشبت الآثار من غير ما قطر
ولو شئت عقد الخصر منها عقدته ... فغصن من الريحان ذى ورق خضر
ولو تفلت فى البحر شهد رضابها ... لطاب لاهل البر شرب من البحر
يكاد اختلاس اللحظ بجرح خدها ... بخارج وهم القلب من خارج الستر

فاضطرب الناس اكثر ، فوثبت ام ابراهيم ، وقالت لعبد الواحد ، يا أبا عبيد ، قد والله اعجبتني هذه الجارية ، وانا والله ارضاها لولدى ، فهل لك ان تزوجه منها هذه الساعة وتأخذ منى عشرة آلاف دينار ، ويخرج معك فى هذه الغزوة ، فلعل الله يرزقه الشهادة ، فيكون شفيعا لى ولابيه فى القيامة ؟ ؟ فقال لها عبد الواحد لئن فعلت لتفوزن انت وولدك ، وابو ولدك فوزا عظيما ، ثم نادت ولدها ابراهيم ، فوثب من وسط الناس وقال لبيك يا أماه ، فقالت له : اى بنى ، ارضيت بهذه الجارية زوجة ببذل مهجتك فى سبيل الله عز وجل وترك العود فى الذنوب ؟ ؟ فقال الفتى اى والله يا أماه ، رضيت وابى رضى فقالت اللهم انى اشهدك انى زوجت ولدى من هذه الجارية ببذل مهجته فى سبيلك ، وترك العود فى الذنوب ، فتقبله منى يا أرحم الراحمين قال : ثم انصرفت فجاءت بعشرة آلاف دينار وقالت يا ابا عبيد ، هذا مهر الجارية ، تجهز به وجهز به الغزاة فى سبيل الله ، وانصرفت ، فابتاعت لولدها فرسا ، واستجادت له سلاحا فلما خرج عبد الواحد خرج ابراهيم معه ، والقراء حوله يقرأون « ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم بأن لهم الجنة » قال فلما ارادت فراق ولدها دفعت له كفنا وحنوطا وقالت له : اى بنى اذا أردت لقاء العدو ، فتكفن بهذا الكفن ، وتحنط بهذا الحنوط ، واياك ان يراك مقصرا فى سبيله ، ثم ضمته

الى صدرها ، وقبلت بين عينيه وقالت : أي بنى ، تقبلك الله منى ، أي بنى ، لا جمع الله بينى وبينك الا بين يديه فى عرصات القيامة !!

قال عبد الواحد ، فلما بلغنا بلاد العدو ، ونودى فى النفير ، وبرز الناس ، برز ابراهيم فى المقدمة ، فقتل من العدو خلقا كثيرا ، ثم اجتمعوا عليه ، وقتل رحمه الله ، قال عبد الواحد فلما أردت الرجوع الى البصرة قلت لاصحابى لا تخبروا أم ابراهيم ، بخبر ولدها ، حتى القاها بحسن العزاء ليلا تجزع فيذهب اجرها قال فلما وصلنا الى البصرة ، خرج الناس يتلقون ، وخرجت أم ابراهيم فيمن خرج ، قال عبد الواحد فلما بصرت بى ، قالت : يا أبا عبيد ، هل قبلت منى هديتى فأهنأ ، أم ردت على فأعزى ؟ فقلت لها قد قبلت والله هديتك ، ان ابراهيم حى مع الاحياء يرزق قال فخرجت ساجدة لله عز وجل شكرا ، وقالت الحمد لله الذى لم يخلف ظنى ، وتقبل نسكى ، وانصرفت فلما كانت من الغد ، أتت الى مسجد عبد الواحد ، فنادته من باب المسجد السلام عليك ، يا أبا عبيد ، بشراك ، فقال لها لا زلت مبشرة بالخير ، فقالت له رأيت البارحة ولدى ابراهيم فى روضة حسناء ، وعليه قبة خضراء ، وهو على سرير من اللؤلؤ ، وعلى راسه تاج واكليل ، وهو يقول لى يا أماه ابشرى فقد قبل المهر ، وزفت العروس !! فتأملوا رحمكم الله ايهما أقوى صبرا ، وأعظم مثوبة واجرا ؟ ؟ اما الام ، فقد ظهر وبان ما رزقها الله تعالى من قوة الايمان ، وما فتح لها من مقامات الاحسان ، ومزيد الايقان ، حيث سمحت ببذل تلك الاموال ، واهدت ثمرة كبدها تقربا لذى العظمة والجلال وأما الفتى ، فلا يخفى على أحد ما منح من الصبر الجميل ، والتصديق لما وعد الله به الشهداء من العطاء الجزيل ، فبلغ مطلبه ، وادرك سؤله واربه فأيكم رحمه الله يقدر على هذا الفعل العظيم ؟ ويبذل مهجته وماله للملك الكريم ، الغفور الرحيم ، الذى يجازى على الفعل القليل بالخير الجسيم ؟ ؟

أيا من يريد الكون فى المقعد الاسنى تقدم تنل منا الزيادة والحسنى
وتحظى بما ترجوه منا ، وترتقى لاعلى مقام لا يضام ولا يفنى

وتعطى من الخيرات ما لم يحط به لسان مريد الوصف، فى السر والمعنى
فخالف هوى النفس المؤدى الى الردى ولا تلتفت شيئا من العرض الادنى
ودع عنك دار الحزن والكرب، وارتحل لدار سرور ، كل خير بها يجنى
وسارع الى سكنى الجنان لخاطب وهى تنادى ، يا خليلى قد طبنا
فبادر الينا ، واغتنم طيب وصلنا فانا بأسرار المحبين قد بحنا !!
بترك الذى يفنى تصير الى المنى بصبر قليل تدرك الغرض الاسنى
فنسأل مولانا بجاه نبيه بلوغ المنى والعفو عما بدا منا

فلا يثقل عليكم عباد الله ، بذل ما يفنى من أموالكم فى نصرة دينكم ، وفكاك أحوالكم ، ولا يغرنكم طول الامل ، عن المبادرة لما يرضى مولاكم من صالح العمل فكأنكم بالدنيا لم تكن ، وبالآخرة لم تزل وكأن كل واحد به ملك الموت قد نزل ، فيندم على ما جمع ، وانقطع له من نيل آماله الطمع، وفى حفرته تبدو له ثمرة ما زرع ، ترك ذلك لمن بعده ، وقد كان يظن أنه كان عنده أعظم عدة ، فقد أخطأ المسكين ، انما كان عليه شبه أمين ، بل العدة ما قدم منه امامه ، فيكون له أعظم ذخيرة يجدها فى القيامة فلا يغرنكم الشيطان ، بتخويفه اياكم الفقر على الاهل والولدان ، فرزق كل ذى روح مقسوم ، وما جرى به القلم محتوم ، قال الله تعالى « وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها » أفلا تنظرون الى رفق مولانا جل وعلا بمن بقى بعد والديه كيف يقلب له القلوب ؟ فكل احد يجد رأفة فى قلبه عليه ، حتى يستوفى ما قسم له من رزقه ، وما قدر أن يكون له من حقه بل انظروا الى رفقه بفرخ الغراب ، حين ينفر عنه ابواه لكونه فيما ظهر لهما (مستراب ،) كيف يلهمه لحل فيه ، فيدخل فيه الذباب حتى يعود الى لون ابويه ، فيرجعان بعد ذلك اليه ومن هذا المنهاج ، الذى للنفس عند سماعه سرور وابتهاج ، ويزداد به العبد قوة يقين ، وتعظيما وخشوعا لله رب العالمين ، ما رأيته بخط بعض الفقهاء ، البلغاء النبهاء ، فى وصف خلقة التمساح ، انه لم يخلق له محل لخروج فضلة ما يأكله من المباح ، فاذا أراد خروج فضلته ، والانفصال عن ضيق حسرته ، فتح فاه ، واستغاث

لمولاه ، فتأتيه طيور لكل واحد شبه رمح على رأسه ، كأنه عدة لما يخاف من اطباق فيه على نفسه ، فتدخل آمنة فى جوفه ، وهو فاتح فاه ، لا يستطيع سده من جوفه ، اذ كلما أراد ان يطبق عليه فاه ، نهزه برمحه الذى فى قفاه، حتى يستوفى ماهنالك ، مما كان يظن ذلك الحيوان انه به هالك ، افتراه يرفق بحيوان لا يفهم ولا يتكلم ؟ ويدع خيرة الامم ، التى متبوعها سيد العرب والعجم ؟ فحسنوا ظنكم بمولاكم ، واشكروه على ما أسدى اليكم من مننه وأولاكم ، وخالفوا الشيطان الذى بحبل غروره دلاكم ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم ، وانفقوا فى سبيله مما خولكم وحباكم ، ولا تبخلوا، فالبخل اهلك من كان قبلكم ، وتصدقوا فالصدقة تزكى فعلكم قال الله تبارك وتعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » قال الضحاك فى هذه الآية من أخرج درهما من ماله ابتغاء مرضاة الله ، فله فى الدنيا بكل درهم سبعمائة درهم خلفا عاجلا ، والف ألف درهم يوم القيامة ، وقال عز من قائل « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا اذى ، لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وروى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه جاء بألف دينار فى جيش العسرة ، فصبها فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخل يده فيها ويقول ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم ، قال أبو سعيد الخدرى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم رافعا يدعو لعثمان ويقول يارب عثمان ابن عفان رضيت عنه فارض عنه فما زال يدعو له حتى طلع الفجر ، فأنزل الله تعالى « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » وقيل انه قال على جهاز من لا جهاز له ، وذلك فى غزوة تبوك فجهز المسلمين بألف بعير واحالسها وقيل نزلت فى اصحاب الخيل وعن ابن عباس فى علف الخيل وفى حديث على رضى الله عنه قال من قام الى فرس غاز بمخلاته ، أو حلله أو سقاه ، فتحت له ثمانية ابواب من الجنة ، يدخل من ايهما شاء ، وعن أسماء بنت يزيد قالت قال النبى صلى الله عليه وسلم ، من ارتبط فرسا فى سبيل الله ، فأنفق عليه احتسابا،

كأن شبعه ، وجوعه ، وظمأه ، وبوله ، وروثه ، فى ميزانه يوم القيامة ابن سبع قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كثرت سيئاته ، وقلت حسناته فليرتبط فرسا فى سبيل الله ، ومن ارتبط فرسا فى سبيل الله، كان كمن نصر موسى وهارون ، وقاتل فرعون وهامان ومنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقى عيسى ابن مريم عليه السلام ابليس فقال له يا ابليس انى سائلك عن شيء ، فهل انت صادقى فيه ؟ فقال ياروح الله ، سلنى عما بدا لك قال اسألك بالحى الذى لا يموت ، ما الذى يسل جسمك ويقطع ظهرك ؟ ؟ قال صهيل الخيل فى سبيل الله ، فى قرية من القرى ، او حصن من الحصون ولست ادخل دارا فيها فرس فى سبيل الله ومنه عن ابن عباس رضى الله عنه ان الله تعالى ، أمر ابليس لعنه الله ، أن يأتى محمدا صلى الله عليه وسلم فى صورة انسان ويجيبه عما سأل ، قال فجاء ابليس الى باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه لباس من الصوف ، وبيديه عكاز ، وهو شيخ كبير ، فنظر اليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال من انت ؟ قال انا ابليس ، قال لماذا جئت ؟ قال ان الله تعالى أمرنى ان أجيئك عما تسأل ، فقال له رسول اللهصلى الله عليه وسلم اخبرنى كم عدو لك من أمتى ؟ قال خمسة عشر صنفا ، فأنت أولهم وآخرهم ، مع امام عادل ، ثم غنى متواضع ، ثم تاجر صادق ، ثم غلام متخشع ، ثم مومن ناصح ، ثم تائب ستقيم ، ثم مومن رحيم القلب ، ثم مومن يتورع عن المحارم ، ثم مومن سخى ، ثم كثير الصدقة ، ثم حامل القرآن ، ثم المجتهد فى الله ، ثم المجاهد فى سبيل الله ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم ياملعون فكم رفقاؤك ؟ قال عشرة : سلطان جائر ، ثم غنى مستكبر ، ثم تاجر خائن ، ثم شارب الخمر ، ثم آكل الربا ، ثم صاحب الزنى ، ثم القتال ، ثم آكل اموال اليتامى ظلما ، ثم مانع الزكاة ، ثم (طويل الامل) ؟ فهؤلاء اخوانى واوليائى ، وقرة عينى ، قال صلى الله عليه وسلم : كيف مواقع صلاة امتى منك ؟ قال تأخذنى الحمى، قال : فكيف مواقع صيامهم ؟ قال اذوب كما يذوب الرصاص قال فكيف مواقع قراءة القرآن ؟ قال اصير اصم قال فالحج ، قال : يحطم ظهرى ،

قال : فالجهاد ؟ قال : يجمع يدى الى عنقى ، قال فالصدقة ؟ قال منشار يوضع على راسى ، فأقطع نصفين فيرمى نصف الى المشرق ونصف الـــى المغـــرب

فتحلوا رحمكم الله ، بحلية أهل السخاء والكرم ، فانه ينجى فى الدارين من جميع المخاوف والنقم ، ويوصل صاحبه الى أعلى المراتب ، ويكسبه جميل المآثر والمناقب ، واكثروا عباد الله فى سبيل مولاكم من الصدقـــة والانفاق ، تنالوا بذلك رضى الملك الخلاق ، وتكثر بسببه الارزاق ، ويتصف صاحبه بصفات الكمال على الاطلاق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان بدلاء أمتى لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا بصيام ولكن دخلوها بسخاء الانفس، وسلامة الصدور ، والنصيحة للمسلمين وقال ابن مسعود رضى الله عنه ان رجلا عبد الله سبعين سنة ، فأصاب فاحشة ، فأحبط الله عمله ، ثم مر بمسكين فتصدق عليه برغيف ، فغفر الله ذنبه ، ورد عليه عمل السبعين سنة وقال يحيى بن معاذ ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا الا الحبة من الصدقة وقال لقمان لابنه اذا اخطأت خطيئة فأعط صدقة وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ان الاعمال تباهت ، فقالت الصدقة انا أفضلكن و فى بعض الآثار ، ان يحيى ابن زكرياء عليهما السلام ، لقـــى ابليس فى صورته فقال له يا ابليس ، خبرنى بأحب الناس اليك ، قال أحب الناس الى ، المومن البخيل ، وابغض الناس الى ، الفاجر السخى قال ولم ؟ قال لان المومن البخيل قد كفانى بخله ، والفاجر السخـــى اخاف (ان يطلع الله عليه فى سخائه) ثم ولى وهو يقول لولا انك يحيى ابن زكرياء ماأخبرتك فاياكم والبخل ، فانه من اقبح الخلال ، وموثره لا يصفو له حال ، ولا يستقيم له شىء من الاعمال وسبب ذلك حبه لهذا الغرض الفانى ، واشتغاله عن طاعة مولاه بالتعلل والامانى ولم يعلم المسكين ان حب الدنيا راس كل خطيئة ، وبغضها راس كل حسنة قال الله تعالى « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هى المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »

وقال النبى صلى الله عليه وسلم الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، الا ما كان لله عز وجل منها وقال عليه السلام احذروا الدنيا ، فانها اسحر من هاروت وماروت وقال الامام ابو حامد رضى الله عنه : ولعل ثلث القرآن فى خبر ذم الدنيا وذم اهلها .روى ان عيسى عليه السلام كوشف بالدنيا ، فرآها فى صورة عجوز شمطاء ، عليها من كل زينة ، فقال كم نكحت فقالت لا احصيهم فقال طلقوك او ماتوا عنك ؟ فقالت قتلت كلهم ، فقال عيسى بؤسا لازواجك الباقين ، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ؟ فلا تغرنكم عباد الله مظاهر جمالها ، وتفكروا فى فعلها بالموثرين لوصالها ، كيف قطعت آمالهم ؟ وصرمت حبالهم ؟ انستهم آجالهم ، فأساؤوا اعمالهم ذهبت اعمارهم ، ولم تنقض منها اوطارهم فندموا ، حيث لا ينفعهم الندم ، على تفريطهم وتقصيرهم فيما تقدم فهؤلاء هم المتعلقون بأسبابها ، المستغرقون اوقاتهم وعقولهم فى اعمال الحيل الى الوصول لما تشوفت اليه انفسهم من الاطلاع على ما سترته عنهم ببهاء جمالها واما العقلاء ، فنظروا احوالها ، وخبروا اقوالها وافعالها ، فوجدوها قائلة بلسان حالها ، محذرة عن الاغترار بظاهر جمالها

بحسنى لا يغتر ذو الحزم والعقل يفر اذا شاء السلامة من وصلى
تأمل فعالى بالذى هو عاشقى وماذا راى مما اصابه من اجلى ؟
تمتع بى ايام كان مواصلى فأعقبته شر المصارع من قتلى !

فتجنبوها عباد الله ، فلقد نصحت وصرحت بغرورها وافصحت ، واجعلوها بمنزلة النار ، خذوا منها حاجتكم ، واحذروها كما ذكر السادة الابرار ، والائمة الاخيار ، اذ العباد لم يخلقوا فيها للاقامة ، بل ليتزودوا منها الى دار المقامة فتزودوا منها عباد الله بزاد التقوى ، وتمسكوا بالسبب الاقوى واجتهدوا فى جمع كلمتكم ، ينجح رايكم ، تظفروا ان شاء الله بطلبتكم اما سمعتم قول مولانا جل وعلا ، وهو اصدق القائلين « فاتقوا الله واصلحوا ذات بينكم ، واطيعوا الله ورسوله ان كنتم مومنين » ؟ وقال عز وجل « ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم » ،

« انما المومنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا وقال عليه السلام المومن للمومن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا فعلام هذا التحاسد ؟ وعلام هذا التنافر والتباعد ؟ هل هو الا على طلب دنيا فانية ، التى توقع صاحبها والعياذ بالله فى الهاوية ؟ فبسبب فرقتكم ، تجاسر العدو دمره الله على هتك حرمتكم فانتهزوا تلك الفرصة ، التى فى القلوب منها أعظم غصة ، وملكوا تلك البلاد ، كما قدره الله وأراد فبادروا رحمكم الله لنصر دينكم ، لان ما أصابكم انما هو من ضعف ايمانكم وقلة يقينكم ، واستهزائكم بأمور الدين ، ومخالفتكم لسنة سيد المرسلين ، ومجاهرتكم بالفواحش لرب العالمين ، واشتغالكم بجمع الحطام ، ولم تبالوا بجمعه من حلال أو حرام أطعتم الشيطان ، وعصيتم الرحمن ، واعطيتم النفس مرادها ومشتهاها ، وبلغتموها من المعصية غاية مناها ومنتهاها ، فحل بكم ما قد رأيتم ، لانكم لم تراقبوا الله عز وجل فيما جنيتم ، ولم تستحيوا منه فيما ارتكبتم واتيتم ، تعديتم حدود الشريعة ، الى الامور الشنيعة كأنكم لم ينزل عليكم كتاب ، ولا أمركم ونهاكم رب الارباب روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال والذى نفسى بيده ، لتامرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتاخذن على يد السفيه ، ولتنصرنه على الحق وليصرفن الله قلوب بعضكم على بعض ويلعنكم كما لعن بنى اسرائيل ، كان اذا عمل العامل منهم بالخطيئة نهاه الناهى تعزيرا ، فاذا كان من الغد ، جالسه وواكله وشاربه كان لم يره على خطيئة بالامس ، فلما رأى الله ذلك منهم صرف قلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان داوود وعيسى عليهما السلام ، ذلك بما عصو وكانوا يعتدون وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعذب الله العامة ، بعمل الخاصة ، ولكن اذا عمل المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم قا لالامام أبو حامد الغزالى رحمه الله ونفعنا به قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عذب الله أهل قرية فيها ثمانية عشر ألفا ، أعمالهم أعمال الانبياء قالوا يا رسول الله ، كيف ذلك ؟ قال لم يكونوا يغضبون لله ،

ولا يامرون بالمعروف ، ولا ينهون عن المنكر قال ابو بكر الصديق رضى الله عنه أيها الناس ، انكم تقرؤون هذه الآية وتتاولونها على خلاف تاويلها « يايها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » وانـــى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من قوم عملوا بالمعاصى، وفيهم من يقدر ان ينكر عليهم فلم يفعل ، الا يوشك ان يعمهم الله بعذاب من عنده فانتبهوا رحمكم الله من هذه الغفلة ، وبادروا للاعمال الصالحة فقد ازفت النقلة ، واجتهدوا فى تجديد ما درس من امور الدين ، واقيموا الحدود التى انكب على اقامتها كثير من المتقدمين أو لم تعلموا ان اقامة الحدود ، تنزل الرحمة من الرب المعبود ، وتستقيم باذن الله جميع الامور ، وينقمع اهل البغى والجور ، وتتصل الخيرات ، وتظهر البركات ولو لم يكن فى ذلك الا امتثال امر الملك الكريم ، الذى بيده ملكوت كل شىء وهو بكل شىء عليم ، لكان جديرا بأن يوثره العاقل على مراده وهواه ، ويخالف شيطانه الذى اضله واغواه فكيف ونفعه عائد عليكـــم وموصـــل خير الداريـــن اليكـــم ؟ ؟

فالقطع فى السرقة ، فيه حفظ الاموال ، التى بها اقامة الاحوال والحد فى الزنى فيه حفظ الانساب ، التى التباسها يؤدى الى التخليط فى الاقسام والالتباس فى المواريث التى احلها رب الارباب والحد فى القتل ، فيه حفظ النفوس ، التى خلقت لخدمة الملك القدوس والحد فى القذف فيه حفظ الاعراض التى تمزيقها يؤدى الى العداوة والاعراض وكذلك جميع حدود الشرع كل نوع منها يرجع الى نوع فبدلتم ، وغيرتم جميع ما اليه ندبتم اسعفتم الشيطان حيث دلاكم بحبل غروره ، واستزلكم بضلاله وفجوره عصيتم سيد البشر ، فيما نهى وامر وهو آخذ بحجزكم ، وارحم بكم من انفسكم وجعلتم لانفسكم عوائد لا يصغى لاستعمالها عاقل ، ولا يرضى بذكرها ناقل وبعتم دينكم بالدنيا والدرهم ، الذى آخر الاول نار ، وآخر الثانى هم ، والى هذا المعنى الذى ذكر ، اشار بعض الشعراء فيما عنه اثر ، حيث قـــال

النــار آخــر دينـــار نطقت بـــه   والهم آخــر هذا الدرهم الجارى
والمــرء بينهمـــا ما لم يكــن حذرا   مقلب القلـــب بين الهــم والنـــار

فلما أتبعتم اهواءكم ، وسامحتم أراذلكم وسفهاءكم ، فسدت باذن الله جميع الاحوال ، ورفعت البركة من الاموال ، وحجبت القلوب عن سماع المواعظ ، فلم يؤثر فيها كلام حكيم ولا وعظ واعظ فنعوذ بالله من الخذلان ، ونسأله التوفيق فى السر والاعلان فسارعوا عباد الله لدخـــول حـــرز التوبة ، واقلعوا عن كل زلة وحوبة ، فعسى تنالوا ان شاء الله تعالى منه قربة لان التوبة تطهر العبد من قبائح سيئاته ، ويكتسب بها من فضل الله وكرمه فى أعالى الفردوس جزيل هباته ، وعالى درجاته ، فيصير بعد البعد قريبا ، وبعد الهجر حبيا قال الله تعالى ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ومبدؤها الصبر عن المعاصى ، ونهايتها اتباع سنة شفيع الخلق عن الدانى والقاصى قال الله تعالى

انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » وقال فى فضل اتباع سنـــة نبيه وحبيبه صلى الله علي هوسلم « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونـــى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم » فانكم ان امتثلتم أمـــر ربكم ، واستغفرتموه من جميع ما سلف من مخالفتكم وقبيح ذنبكم ، واتبعتم سنة نبيكم ، نفس عنكم ما اشتد من كربكم ، وأصلح ما اختل من احوال غربكم ، واظفركم بأعدائكم ، وآتاكم النصر مـــن امامكـــم وورائكـــم وأمدكم بوثيقة من عزه ، وادخلكم فى كنفه وحرزه قال الله تعالى « يايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم » ، أى تنصروا دين الله ورسوله ينصركم ويثبت اقدامكم ، فالبدار البدار ، معشر المسلمين ، والعجل العجل عباد الله المومنين فهذا منادى التوجه لاستنقاذ اخوانكم من أيدى الكفرة يناديكم ، وهذه رسالة من يستنفركم لجهاد من طغى عليكم من اعاديكم مذكرة لكم بعض ما أعد الله عز وجل للمجاهدين من عظيم ثوابه ، وما ادخر لهم من الخيرات فى أعلى الجنات مع خاصة احبابه ، مستشفعة لكم

فى تعجيل غياث اخوانكم باكرم شفيع ، متوسلة اليكم باعظم وسيلة توسل بها للمجيب السميع فمن كان طالبا رضوان ربه فهذا أوانه ، ومن كان طامعا فى قربه فهذا ابانه ، لان الاعداء دمرهم الله ، قد استفاض من خبرهم انهم مزمعون على الخروج اليكم قد اصطلحوا واتفقوا على الورود عليكم، لانهم لما أخذوا ما قدر الله عز وجل من البلاد ، وملكوا ما سبق فى علمه من العباد ، ولم يروا منكم حركة اليهم ، وغلب على ظنهم انكم ليس لكم قدرة فى الوفدة عليهم ، سيما حين تحققوا ما اشتهر من فرقتكم ، وما وقع من الشنآن بينكم وبين اخوتكم ، طمعوا — لا بلغ الله لهم املا — فيما يكون ان شاء الله وبالا عليهم ، وسببا لهلاكهم ، واغتنام ما لديهم فاصرفوا هممكم رحمكم الله ، للاكثار من اكتساب العدد ، من اجاويد الخيل الموصلة للغرض فى اقرب امد ، واقيموا اليهم الرحلة ، وآتوهم على حين غفلة ، ولا تعطوهم فترة ولا مهلة فعساكــم ان أوجفتم عليهــم بخيلكم ورجلكم ، تظفروا ان شاء الله تعالى بأملكم ، وتخلصوا اخوانكم من ايديهم ، وتغنموا اموالهم واهليهم روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال الاناة فى كل شىء خير الا فى ثلاث ، اذا صيح فى خيل الله فكونوا أول من ينفر ، واذا نودى فى الصلاة فكونوا أول من يخرج واذا كانت الجنــازة فعجلوا بالخروج بها ثم الاناة بعد خير وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم اى الرباط افضل ؟ قال رباط البحر ، فمن رابط على البحر اربعين ليلة فكأنما حج سبعين حجة مبرورة مقبولة وقال صلى الله عليه وسلم رباط ليلة على ساحل البحر ، افضل من قيام الخلائق وصيامهم سنة فان مات فى رباطه ، فهو مرابط الى يوم القيامة وحكى ابن سبع عن النخعى يرفعه الى النبى صلى الله عليه وسلم قال فى الفردوس الف مدينة من ياقوتة بيضاء ، والف مدينة من زمردة خضراء ، فى كل مدينة الف قصر ، فى كل قصر الف غرفة من نور ، فى كل غرفة الف سرير ، على كل سرير قبة ، طولها خمسمائة ذراع تحف بها رياح الرحمة ، فى كل قبة حوراء من الحور العين ، على كل حوراء الف حلة من سندس واستبرق قد علا شعرها من خلفها سلاسلا سلاسلا مضمخا بالبان لو اطلعت الى

الدنيا لصعق الخلائق ، ولطارت قلوبهم شوقا اليها قيل لمن هى يارسول الله ؟ قال لمن تقلد سيفا أو أوحش الاهل والاولاد ، ورابط ثلاثة أيام ، والله ان الذى لم يسم الله اكثر وروى مكحول عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فضل صلاة الرجل متقلدا سيفه فى سبيل الله ، على صلاة الذى يصلى بغير سيف سبعون ضعفا ، ولو قلت سبعمائة ضعف لكان ذلك ، لانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله يباهى بالمتقلد سيفه فى سبيل الله ملائكته ، ويصلون عليه ما دام متقلدا سيفه وروى عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ما اصطحب قوم فى سبيل الله الا كان أعظمهم أجرا أحسنهم خلقا فبادروا عباد الله لنصرة دينكم ، واقتدوا فى ذلك بأفعال نبيكم ، وما كان عليه الصحابة الكرام ، والائمة الاعلام ، وما وعد به الناصرين لدينه فى دار السلام وحسبكم مداومة النبى صلى الله عليه وسلم على فعله ، وما حضره من الغزوات المشهورة ، فى المواطن المأثورة ، جسبما هو فى السير مبسوطة ومذكورة وما لقى فيها من المشاق ، مع أهل الجحد والشقاق وقد بالغ فى اذايته المشركون والمنافقون ، وهو مع ذلك حينما شجوا وجهه ، وكسروا رباعيته يقول اللهم اغفر لقومى فانهم لا يعلمون ومع هذا لم يزل صلى الله عليه وسلم فى هذا البحر سابحا فى لجته يقى المسلمين عند اشتعال نيران الحرب بمهجته ، فيطفىء تسعرها بحول الله وقوته ، ويرد أعداءه ناكصين على أعقابهم ، والمسلمون قد تمكنوا من رقابهم لقد والله هزم الجيوش الكثيرة العدد ، واباد الجموع العظيمة المدد ، وامده الله تعالى فى بعض المواطن من الملائكة بمدد ، وبلغ فى اظهار دينه القويم جهده ، لكى يقتدى بذلك من بعده فينبغى للامام أن يأخذ بالاحتياط للمسلمين ، وأن يرتبهم عند القتال كما ذكر العلماء فى سائر الدواوين فاذا وجد فيهم ضعفا أو آنس منهم خوفا حضهم على الصبر واللجوء للاستغفار ، وكثرة الدعاء للملك القهار ، الذى له القدرة والانتصار

قال النووى رحمه الله يستحب للمجاهد استحبابا متأكدا أن يقرأ

ما تيسر من القرآن ، المنزل على المختار من ولد عدنان ، وان يدعو بالدعاء المأثور الذى هو فى الصحيح مذكور ، وهو لا الاه الا الله العظيم الحليم ، لا الاه الا الله رب العرش العظيم ، لا الاه الا الله رب السموات والارض رب العرش الكريم ، ويقول حسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة الا بالله العزيز الحكيم ، ما شاء الله ، ولا قوة الا بالله ، اعتصمنا بالله ، واستعنا بالله ، توكلنا على الله وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا غزا قال اللهم انت عضدى ونصيرى بك احول ، وبك اصول ، وبك اقاتل وعن ابى موسى الاشعرى رضى الله عنه ، ان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان اذا خاف قوما قال اللهم انا نجعلك فى نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم وروى مالك فى موطاه ، عن زيد بن اسلم قال كتب ابو عبيدة بن الجراح الى عمر ابن الخطاب رضى الله عنهم اجمعين ، يذكر له جمعا من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب اليه عمر اما بعد فانه مهما ينزل بعد مومن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجا وانه لن يغلب عسر يسرين ، وان الله تعالى يقول فى كتابه « يايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون »

وها هنا اقبض العنان ، عما طغى به القلم واللسان فلما فرغت من انشاء هذه الجملة ، التى تكون ان شاء الله سببا لتنبيه الخلق مما هم فيه من الغفلة تأملت حال الاخوان ، وما هم فيه من الكرب والذلة والهوان ، نسأل الله العظيم ان يفك اسرهم ، وان ييسر لسبيل النجاة امرهم ، فأدركتنى عليهم شفقة الايمان ، وترنمت بين جوانحى بلابل الاشجان ، وهطلت بواكف عبرتها العينان ، واراد ان يترجم لسانى ، عما اضمره جنانى ، بنظم قصيدة جامعة لما تقدم من تلك المعانى وقلت لعل النظم أوقع فى النفوس ، واقرب لان يصغى اليه وتنحط اليه الرؤوس ، فغلب على الحال ، ونطق اللسان وقال

ابى القلب سلوانا ، ومن لى بسلوة	ونومى جفا من اجل ما بى مقلتى ؟
وصرت حليف الحزن مما كتمته	وبين ضلوعى مثل كى بجمرة

وللقلب ما بين الجوانح زفرة — ودمعى على الخدين يحكى لمزنتى
ولم استطع صبرا ، وكيف يصح لى — وقد هتكت من ديننا كل حرمة ؟ ؟
وشاركنا الاعداء فى قطر غربنا — وقد اخذوا جل البلاد البهية
وقد أرعبت تلك السواحل منهم — وصاروا يؤدون الخراج كجزية
وانتم شغلتم بالتعلل والمنى — تبعتم مراد النفس فى كل لذة
واسعفتم الشيطان فيما اراده — وملتم الى نهج الطباع الخسيسة
فهذا هوان واحتقار وذلة — وعار شنيع ، ثمقلة حيلة
فصرت اذا ادعو وارغب راجيا — ولى فى الذى ارجوه اصدق لهجة
واندب اهل الجد والعزم قائلا — عليكم بنصر الدين يا خير امة
وقوموا بجد للعلا فلقد طغوا — عليهم من القهار أعظم لعنة
وقد جمعوا ما لا يقدر وصفه — وراموا لكم اخفاء كل خديعة
فكيف يكون الامر من حال مكرهم — وقد طمعوا فيكم بادراك فرصة
ولم يقنعوا مما سبوا من بلادكم — واخوانكم فى حين تلك القضية
فقصة آصيلا عرفتم جميعها — وما فعل الاعداء من شر غدوة
واضحت على الاسلام تبكى رسومها — كذى سكن قد صار فى أرض غربة
مساجدها تبكى على فقد اهلها — كأن لم يكن فيها مردد سورة
صوامعها قد عطلت عن اذانها — كأن لم يكن فيها اذان مصوت
مجالس أهل العلم يا صاح ، بدلت — بتلبيس رهبان ، ورجس الاقسة
واسواقها بعد العمارة قد خلت — كأن لم يكن فيها تبايع سلعة
فلو أبصرت عيناك حال خروجهم — بكيت الدما ، من بعد انفاذ عبرة
تفرقت الولدان عن امهاتها — كذا كل زوج حيز عن كل زوجة
وأدمعهم تجرى على وجناتهم — لما نالهم من فقدهم للاحبة
وأبرزت العذراء بعد احتجابها — واظهر منها كل حسن وبهجة
وصار العدا يستمتعون بحسنها — وادمعها تهمى بأعظم زفرة
ولم تستطع منهم فرارا بنفسها — فأعظم بها من حرقة مستكنة
تكاد قلوب الخلق عند استماعها — تفطر مما نالهم من مصيبة
فكيف يطيب العيش بعد لعاقل — وكيف تلذ النفس بعد بشهوة ؟ ؟

فما العيش بعد الذل الا سفاهة ... وضعف يقين عند أهل البصيرة
ولكن حكم الله فى اللوح سابق ... بما قد قضى فى الغيب من قبل نشأة
ايا معشر الاخوان يا خيرة الورى ... ايا امة الهادى العظيم المزية
اما فيكم يا معشر الخلق رافة ... فاخوانكم ضاقت بهم كل حيلة ؟
وهم عندهم فى ذلة واهانة ... وكرب وتعذيب وخوف ونقمة
فما حال من اضحى اسيرا مكبلا ... حقيرا فقيرا فى هوان وشقوة ؟
فبالامس كانوا كالملوك بأرضهم ... وقد اصبحوا مثل العبيد الاذلة
وهم راغبون الله سرا وجهرة ... عسى نفحة تأتى بأعظم نصرة
فكيف وهم لم ييأسوا من غياثكم ... ويرجونكم فى كل يوم وليلة ؟
فكم ذا التعامى والتغافل عنهم ... وقد قنطوا مما بهم من مشقة ؟
قد استصرخوكم،واستغاثوا بجاهكم ... وقد قدموا فى العزم أزكى وسيلة
وسيلتهم بالرب جل جلاله ... اليكم ، وبالسر المصون وحكمة
وبالانبياء الاصفياء ، وقطبهم ... امام الورى الآتى بأفضل ملة
واصحابه ، والتابعين ، وتابع ... وبالقطب ، والابدال من كل امة
وبالحج ، والبيت العتيق ، وزمزم ، ... وازكى مقام ، والصفا ، ثم مروة
وبالموقف المخصوص بالعدل والرضى ... ومن جاءه ، والطائفين بكعبة
وبالقاصد القبر المشرف زائرا ... وما قد حوى من سر كل فضيلة
وبالبائعين النفس فى نصر دينه ... وبالمنفقين المال فيه لغبطة
ايا أولياء النصر ، يا آل غربنا ... بكم تضرب الامثال فى كل بلدة
وانتم هم الشجعان فى شدة الوغى ... وانتم هم الابطال عند الحقيقة
فكيف يضيع المستجير بجاهكم ... وانتم ملاذ الخائف المتشبث ؟
واسلافكم لم تأل عن مستغيثها ... على نهجهم فامضوا بصدق عزيمة
فكم أنقذوا من مستغيث بجاهكم ... وكم كشفوا من كربة(مستغوث) (1)؟
وكم من جيوش أوردوها حتوفها ... وكم فرقوا فى دهرهم من كتيبة ؟؟
وكم وصلوا من ذمة لمن انتهى ... اليهم ؟ كما يحكى عن أهل الجزيرة؟

---

(1) هكذا فى الاصل

افاضوا عليها من صوابغ جودهم   فأضحت بما نالته من حسن زينة
وزادت من العز المظفر رفعة   وجاها عظيما ، مع خصال جليلة
فآثارهم فيها الى الآن ، لم تزل   تنبىء عن تلك الايادى الجميلة
فقد كان هذا ، والعدو ببرهم   وفى الوقت عاد القوم فى قرب غدوة
وصاروا يرومون البلاد ببركم   يحطون منكم قرية بعد قرية
وصارت نفوس الخلق تنفر منهم   وما ذاك الا من ذنوب كثيرة
فيا عجبا من ذلكم لعدوكم   وانتم لكم فى الحرب أعظم سطوة !!
وكيف ارتضيتم رفعة الكفر فوقكم   وشوكتكم بالله أعظم شوكة
فأين اسود الغرب اين رجاله ؟   واين ذووا الخيل العتاق الاعزة ؟
وأين ذوو البأس الشديد الذين هم   لهم فى مجال الحرب اعظم نجدة ؟؟
وأين الذى يبتاع رضوان ربه   بنزر يسير ما له فضل قيمة ؟
فكل امرىء ينبى عن الاصل فعله   فعودوا الى الاصل الاصيل (المثبت)
ولا ترتضوا النقصان بعد وفائكم   ولا تتحلوا بالطباع الخسيسة
ولا ترجعوا بعد استقامة حالكم   الى سوء عادات النفوس اللئيمة
ايا معشر الاسلام ، يا امة الهدى   ترقوا الى أعلى مقام الاخوة
فقد شاع فى الاقطار حال افتراقكم   وما بان فى الاسلام من سوء ثلمة
فلم يطمع الملعون فيما اصابه   من القوم ، الا باختلاف وفرقة
على البر والتقوى جميعا تعاونوا   وما هو الا باجتماع والفة
فهذا لسان الحال يدعو مخاطبا   لمن فيه من أهل الوفا بعض همة
ومن فيه ايمان ، ومن فيه رأفة   ومن فيه للاسلام اعظم غيرة
ولم يرض للدين القويم اهانة   ولم يحتمل ذلا لشر الخليقة
فيا منشدا اذا النظم ، ناد محرضا   بجد وعزم ، عند كل مدينة
وجل فى البوادى والقبائل صارخا   عسى يستفيق القلب من سوء سكرة
وقل ، معشر الاخوان ، هذا عدوكم   طغى، واعتدى، والقلب فى حال كربة
الا من له فى الدين عزم وقوة   ويذهب عنا ما بنا من معرة ؟
الا من يبيع النفس فى طلب العلا   ويرغب فى نيل الامور السنية
الا من له قلب صبور وهمة   ويرقى لاعلى الصفوة الملكية

ويدرك فى الدارين عزا ومنعة ... وملكا كبيرا ، فى جوار الاحبة
فبيعوا من الرب الكريم نفوسكم ... واموالكم ، تحظوا بخير وعزة
وتستخلصوا اخوانكم من يد العدا ... وتستخرجوا ما قد سبوا من دخيرة
أعدوا لهم من قوة كل عدة ... وصولوا عليهم باجتهاد وحرقة
وقد وعد المولى بنصر عباده ... اذا نصروا الدين المتين بقوة
ولا تدبروا عند القتال ، فمن يمت ... شهيدا ينل من كل خير ونعمة
وادرك رضوان الالاه ، ولم يذق ... من الموت ، حاشا مثل ايلام نحلة
ويغفر له ما قد جناه ، ولم يخف ... عقابا ، ولا هولا غدا دون مرية
ويعطى من الخيرات ما قد يريده ... (ويلقونه الحور الحسان بتحفة) (1)
كذا قال خير العالمين محمد ... هو الصادق المصدوق فى كل قصة
ولا تبخلوا بالمال ، وهو لربكم ... وانتم له ، فالبخل شر سجية
فمن كان ذا مال ولم يك ذا ندى ... فذلك ممقوت ، خبيث الطوية
لكونه لم يبذل لمولاه ما له ، ... اساء به الظن الردىء السريرة
ولم يعلم الممقوت ما قد اصابه ... وما فاته من كل خير ونعمة
فان الكريم الرزاق الخلق كلهم ... يحب الكريم الطبع أزكى محبة
يدر عليه الرزق ما دام منفقا ... ويدعو له الاخوان افضل دعوة
ويعطيه فى الدنيا جميع مراده ... ويرضيه فى الاخرى بأعظم منية
فشكر ذوى الاموال لله ، بذلها ... الى مستحق فى الامور المهمة
عصيتم مولاكم وترجون نصره ... واسعفتم الشيطان فى كل هفوة
فما هكذا من يرتجى فضل ربه ... ويطمع فى المأمول من كل بغية
فتوبوا الى المولى عساه يعينكم ... ويمنحكم عزا منوطا بفرحة
ولا تيأسوا من روحه ، ان فضله ... قريب لمن يأتى بأخلص توبة
ويبذل ما قد فات فى حال جهله ... بما يقتضى التقريب من خير خضرة
ولا تركنوا للنفس فى شهواتها ... فكم من فتى أردته من اجل شهوة
ولا تأمنوا الدنيا الدنية انها ... تغر بما تبديه من كل زينة

(1) هكذا فى النسخة الاصلية

تريك جمالا قد يروقك حسنه   عواقبه تفضى الى شر وحشة
فعمرك يا مغرور ضيف ، رحيله   قريب ، فتلقى تحت صخر بحفرة
فريدا ، ذليلا ، نادما ، متحيرا ،   فقيرا من الاموال ، فى بيت ظلمة
ولم تدر ما تلقى به الملكين فى   جوابك ، من خوف هناك ودهشة
تركت بدنياك الذى قد جمعته   لمن لم يفدك الدهر بعد برحمة
وانت به يوم الحساب مطالب   على كل ما الفت من كل وجهة
جمعته من غصب وسحت ومن ربا   وقلبك مفتون به شر فتنة
تود مزيدا لانقطاع لحده   عصيت الذى أعطاك أعظم منة
كأنك (لم يتلى) عليك كتابه   وخالفت خير الخلق فى خير سنة
تبعت الهوى والنفس فى شهواتها   فأظلم منك القلب عن خير فكرة
وقد قل من يأتى بلطف ورقة   يداويك ، مما فيك من سوء علة
ويسقيك من كأس المواعظ شربة   تعود بها للاصل من حسن صحة
فماذا يكون العذر ان جئته غدا   وتوقف للانصاف فى حال حيرة ؟
فمن اجل ذا طاشت عقول ذوى النهى   وخافوا بذاك الجمع خزى الفضيحة
يود ذووا الاموال ان لم تكن لهم   لسبق ذوى الفقر الكرام لجنة
فتب ، وارتجع قبل الندامة يا اخى   تود اذن ان لو تفوز برجعة
وهيهات ، حكم الله حتم قضاؤه   ففر الى المولى ، تنل خير غبطة
ولا تظلم المخلوق فالظلم مهلك   يخرب دار الظالمين بسرعة
لان يد المظلوم مهما يمدها   لمولاه ، لم ترجع اليه بخيبة
تأمل ديار الظالمين ، وحالهم   وما قد لقوا من شر موت وحسرة
واياك والكبر ، الذى فاض أمره   فمن يرضه قد حاز كل رذيلة
وان جاءك المسكين فاردد سؤاله   اذا كان محتاجا ، الى سد خلة
وأنصفه ممن قد يريد احتقاره   واذلاله ، تنصر ، وتظفر بهيبة
ولا تحسدن الخلق فى فضل رزقهم   فذلك من أردى الخصال الذميمة
فبالرفق بالمخلوق تكسب ودهم   وتحظى من المولى بادراك منية
فاحسانه للمحسنين لخلقه   عظيم ، فبادر للامور العلية
وما شئت أن يوتى اليك فوقه   الى الخلق ، تكتب من كرام البرية

ومهما تقدم من يسوس امورهم فتوصيه بالاحسان ، اقوى وصية
وعظم أمور الشرع ، واتبع طريقه ففيه نجاة الخلق من كل فتنة
وسارع الى قطع المعاصى ، بأسرها وما يقتضى قرب النفوس لشهوة
وخالف لآثار الذين تقدموا وما احدثوا ، من كل ظلم وبدعة
ولا تخش فى مولاك لمومة لائم وكن قائما بالحق فى خير شرعة
فبالعدل أن تحكم ، وبالحق أن تقم ، تكن لك فوق الخلق اعظم صولة
وتحظى بعز لا يضام ، وتجتنى ثمارا لهدى ، فى كل حين ولحظة
وتدرك حظا فى الذى يقتضى بما فعلت من الآثار ، فى كل بلدة
فمن سن فى الاسلام خيرا ، وعكسه له فى كلا النوعين اوفر قسمة
تخلق بأخلاق الكرام ذوى الحجا اولى الفضل حقا والنفوس الزكية
ولازم لاهل العلم ، واعرف مقامهم مصابيح اهل الارض، هم فى الحقيقة
ولا تمض رأيا دون تدبير رايهم تر النجح ، فاقصد للامور بنية
وعظم مقام الصالحين ، لانهم بهم تصرف الآفات عن كل امة
هم امناء الله ، فى كتم سره بهم يرجع المخلوق ، فافهم لنكتتى
الم تر أن الخلق قد (يفزعوا) (1) لهم اذا فوجئوا من دهرهم بملمة
وان يشفعوا فاقبل، وان يمنعوا فدع، تكن لك فى الدارين اعظم حرمة
يطيب بك المخلوق شرقا ومغربا وياتيك نصر الله ، من كل وجهة
ويذغن من قد كان قبل معاندا وياتى اليكم صاغرا تحت ذلة
تأدب،وخالف شهوة النفس ،واصطبر فأجرك موفور ، ولو وزن درة
ولا تك فى نيل التنعم مسرفا فذلك من طبع النفوس الخبيثة
فنفسك مثل الطفل ،مهما تركتها وما تشتهى ، تاقت والا تسلت
نصحت لكم اذ هو فى الشرع واجب فمهما قبلتم فابشروا بالمسرة
وانك ان تعمل بما قد ذكرته تكن لك فى الدارين افضل رتبة
تكن لك آثار ، وذكر مخلد ويدعو لك المخلوق فى كل مدة
ولا بد أن تحظى بشىء من الذى تناله ، من أجر وذلك بغيتى

(1) والصواب يفزعون

فنسأل مولانا بجاه نبيه ... خلاصا وتوفيقا لكل فضيلة
وان ينقذ الاخوان من حال كربهم ... وينجيهم من كل خوف ومحنة
وان يهلك الاعداء حتى يبيدهم ... ويجعلهم فيئا لافضل امة
وينصر جيش المسلمين بعزه ... ويجمع منهم كل شمل مشتت
فيارب وفق من تولى امورهم ... وطهره من سوء الطباع الرديئة
وسخره للمخلوق واقبل بقلبه ... وفرج به عن قلبنا كل غمة
وحطه بفضل منك ، من كل كائد ... وسلمه طول الدهر ، من كل نكبة
وسخر له وافتح لـه ، ما اراده ... ومكن له فى الارض ، اعظم مكنة
وعم بغفران جميع ذنوبنا ... بجاه شفيع الخلق فى كل زلة
عليه صلاة الله ثم سلامه ... متى رنت الاطيار فى كل دوحة
واصحابه واللائذين بحبه ... عليهم من الرحمان ازكى تحية

اللهم يامن له القوة والاقتدار ، والعزة والانتصار ، ويكور النهار على الليل ، والليل على النهار انا توجهنا اليك بجاه نبيك المصطفى ، واصحابه الخلفا ، ان تفتح لنا من خزائن رحمتك بابا لا تغلقه معاصينا ، وان تجود بفضلك وكرمك ، على مطيعنا وعاصينا ، وان تدخلنا فى حزب اوليائك المهتدين ، وان تكفينا شر اعدائك المعتدين ، وان تبلغ قصدنا فى تفريج ما اهمنا من امور الدنيا والدين ، انك على كل شىء قدير ، اللهم انك لم تخلق شيئا سدى ، ولم تفعل فعلا عبثا ، ولم تظلم احدا ، ولكن عبادك ظلموا انفسهم فى ارتكاب المناهى ، واتباعهم شيطانهم فيما سول لهم من اتباع الشهوات والملاهى ، ومخالفتهم لسنة نبيك ورسولك ، وحبيبك وخليلك ، وقد اسبغت عليهم النعم ، وحميتهم من النقم ، فلم يشتغلوا بالشكر على ذلك ، ولم يتجنبوا الاعمال المؤدية الى المهالك ، فاستحقوا ما سبق به القدر والقضا ، فاجعل لهم ذلك يا مولانا سببا لتكفير ما سلف ومضى ، انك غفور رحيم

اللهم انك تعلم حال اخواننا المومنين ، المأسورين فى يد اعدائك الكافرين ، وما هم فيه من الكرب العظيم ، والعذاب الاليم ، فهيىء بفضلك

لفكاكهم سببا ، وأظهر لخلقك فى ذلك من لطائف قدرتك عجبا ، انك على كل شىء قدير ، يا نعم المولى ونعم النصير   اللهم ان آمالنا فى فضلك عظيمة ، واعمالنا غير مستقيمة ، فلا تحرمنا من فضلك وكرمك ، بما ضيعنا من حقوقك ، وانتهكنا من حرمك ، ولا تقطع عنا ما عودتنا من جزيل نعمك يا أرحم الراحمين   اللهم انصر من قلدته النصر فى مصالح عبادك المسلمين ، واجعله رحمة على المؤمنين ، ونقمة على الكافرين ، واعنه على صلاح نفسه ورعيته ، وسدده فى قوله وفعله ونيته ، اللهم سخر له العباد ، وافتح له ما أراد من البلاد ، واجعله سببا لقطع مادة الفساد ، وحطه من كيد كل كائد ، وكل باغ وحاسد ، واجعل دولته من أفضل الدول ، والحقه بدرجة اهل العدل من الائمة الاول ، اللهم انصر جيوش المسلمين، واقذف الرعب فى قلوب اعدائك الكافرين ، اللهم اجعل الخذلان فى ركبهم ، وركب دوابهم ، ورد كيدهم فى نحرهم ، واذقهم وبال امرهم ، واجعل باسهم بينهم ، وانصرنا عليهم ، يا خير الناصرين

اللهم واعكس عليهم ما سول لهم ابليس اللعين ، واجعلهم غنيمة وفيئا للمسلمين   اللهم ادخل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فرحا وسرورا بنصر أمته ، واعنهم على حماية دينه ونصرته ، واضرب عليهم سرادقات حفظك وكلاءتك ، وادخلهم فى كنف حرمتك وعنايتك   اللهم قو منهم كل ضعيف ، واجعل هيبتك على الوضيع منهم والشريف ، انك أنت القوى المعين اللطيف ، ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، ربنا لا تواخذنا ان نسينا أو اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

مجاهدون معاصرون

تتميما للفائدة المتوخاة ، ولكى تظهر مكانة ابـــن يجبش مـــن بين معاصريه ، وخاصة من كان منهم مهتما بأمر الجهاد ، وجب ان نشير الى طائفة من الرجال الذين كانت افئدتهم تضطرم حسرة واسى ، على ما أصيبت به سواحل البلاد من نكبات ذلك انه كما قال صاحب الاستقصا ج 4 ص 111 (لما نزل بأهل المغرب الاقصى ما نزل من غلبة علو الديـــن ، واستيلائه على ثغور المسلمين ، تباروا فى جهاده وقتاله ، واعملوا الخيل والرجل فى مقارعته ونزاله ، وتوفرت دواعى الخاصة منهم والعامة على ذلك ، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك ، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين غيرة واحتسابا ، وكم من ولى عصر ، او عالم مصر ، باع نفسه من الله وراى ذلك صوابا ؟ ؟ حتى لقد استشهد منهم اقوام واسر آخرون ، وبلغ الله تعالى جميعهم من الثواب ما يرجون) ومن هنا فان من الانسب ان نجزىء هؤلاء المكافحين الابطال الى ثلاثة أصناف مع مراعاة التعريف فى حدود الامكان والاختصار بكل شخصية وقع العثور عليها ، حتى نعلم من جهة ، مع من كان ابن يجبش يتسابق فى هذا الظرف الرهيب ، ونعمل من جهة ثانية على ابراز هذه الطائفة واخراج أصحابها الى الوجود ، أملا منا فى ان يكونوا لنا قدوة ، ولاجيالنا المقبلة مثلا وعبرة. هذا بالاضافة الى انه ليس من المعقول ، أن يعلم أبناؤنا ،انه كان هناك احتلال برتغالى ، وآخر اسبانى لسواحلنا المغربية ، ولا يعلموا اى شىء

عن مقاومة اجدادهم لهذا النوع من الاحتلال ولعل هذا ما جعلنى أضيف هذا الفصل حتى ولو اعتبره البعض من قبيل الاستطراد ، وهو يحتوى على:

أ) الشهـــداء ومنهم

1) ابو الحسن على بن عثمان الشاوى (1) ، الملقب من طرف أبى عبد الله محمد الغزوانى بشمس الضحى كان رحمه الله لجمال صوته اذا رتل القرآن أو ذكر الله يندفع الناس للاستماع اليه ولعله اعتمد على هذه الصفة ، ليجلب الى قلب المعركة بواسطتها ، أكبر عدد من المجاهدين ، وذلك كلما حمل سيفه واندفع الى ساحة القتال ، وهو يتغنى ببردة البوصيرى ، الى أن لقى ربه شهيدا ولسان حاله ومقالـــه يردد

ومن تكن برسول الله نصـــرتـــه ان تلقه الاسد فى آجامها تجـــم

وقد استشهد بالقرب من أصيلا فى المعركة التى كانت بقيادة القائد عبد الله ابن طلحة العروسى قائد القصر الكبير ، وذلك فى حدود الاربعين وتسعمائة هجرية كما فى ممتع الاسماع ص 68 ، او فى سنة 925 هـ كما جاء فى المرآة

2) ابن جمعة ابو على الحسن بن محمد بن الحسن بن عثمان بن سعيد بن عبد الوهاب ابن علال ، بن القطب أبى عبد السلام ، الفقيـــه الصالح ، الذى كان على يده الشروع فى اختطاط مدينة شفشاون سنة 876 هـ ، ومات شهيدا بتدبير من النصارى قبل اتمام ما شرع فيه وبيان ذلك انه كان مهتما بالجهاد ، شغوفا به ، فتكالب عليه الاعداء مع بعض المأجورين من المغاربة ، الذين اضرموا عليه المسجد نارا وهو يتهجد به ليلا

3) عيسى المصباحى هو ابو مهدى ، عيسى بن الشيخ أبى محمد ، او أبى على الحسن ابن عيسى المصباحى ، الولد الصالح على حد تعبير صاحب الدوحة ص 64 ، وزاد صاحب ممتع الاسماع ص 109 انه أخذ

---

(1) تخليدا لهذا البطل اتمنى أن يعمل المسؤولون باقليم سطات على تسمية بعض الشوارع ، أو المدارس باسمه ، اعترافا له منا بما قام به من جلائل الاعمال .

عن أبيه ، وخلف والده في زاويته ، وكان رجلاً صالحا ومجاهداً دخل فحص طنجة من اجل الجهاد في سبيل الله تعالى ، فمات شهيدا في احدى المعارك التي دارت هناك ، وذلك في شهر جمادى الاولى سنة 982 هـ ودفن بجوار أبيه ، بضواحي القصر الكبير حيث كانت منازلهم هناك

4) العنابي أبو عبد الله محمد نزيل وادي درعة ، كان عالما فاضلا وشاعرا مجيدا ، وكان بينه وبين الشاعر العالم الشيخ ابراهيم بن هلال السابق الذكر ، صداقة ومكاتبات ، ينبغي أن تكتب بماء الذهب لحسن توقيع كل منهما وبلاغته ، على حد تعبير صاحب الدوحة ص 68

والشيخ العنابي هو صاحب القصيدة المعروفة بسلسلة الانوار ، والتـــي مطلعهـــا

بسلسلـــة الانوار لاحت رسائلـــي وداوت بأفـــلاك السعود وسائلي

والذي يهمنا من امره هنا ، هو ان الاسبان لما تغلبوا على جزيـــرة الاندلس ، واجلوا منها من اجلوا ، واسروا من اسروا (انتدب الشيخ ابو عبد الله العنابي لفداء أسارى المسلمين ، فرحل الى فاس ، ثم أدخله السلطان ابو زكرياء الوطاسي داره ، ونادى نساءه قائلا لهن ان الشيخ يريد فداء أسارى المسلمين ، فمن كانت عندها صدقة فلتدفعها اليـــه ، فطرحن الثياب ، والحلي ، والذهب ، والاحجار الثمينة ، ثم سار الشيخ العنابي بالجميع وبأموال لا تحصى ، وركب البحر قاصدا الاندلس ، فهاج البحر ، واصيب المركب بعطب ، وتوفي الشيخ غريقا شهيدا ، وضاع جميع ما كان معه من حلي ونفائس واموال وانا لم اعتبره من الشهداء ، الا لما كان ينوي القيام به من مهام داخلة في نطاق الجهاد ، ولم اقصد بالاستشهاد مفاجأته بالغرق اعتمادا على قول الله جلت قدرته « لا تاتيكم الا بغتة ».

5) بو الليف هو ابو عبد الله ، محمد بن الحسن المقدم المجاهد المقدام ، الموصوف بالشهامة والنكاية للانجليزيين أيام وجودهم بمدينـــة طنجة وقد وقع خلاف بينه وبين صاحب عمل القصر الكبير فسعى بـــه للسلطان ، ثم نفي الى فاس صحبة اخيه المقدم عمر وبعد مدة اشتد

الامر على المغاربة ، فتساءل السلطان بعد ما قرئت أمامه الغزوات التى ذكرها ابن النحاس ، هل بقى فى هذا الزمان من يماثل رجالها ؟ فقالوا قد بقى هناك من يفعل فعلهم ، وهم أولاد بو الليف المغربون بفاس ، فأمر السلطان باطلاق سراحهم ليحموا ثغورهم ، ويشتغلوا بالجهاد ولما رجعوا فعلوا بأعاديهم الافاعيل ، الى أن مات المقدم محمد شهيدا ببندقية رصاص. وذلك فى ربيع الثانى عام 1002 هـ كما ذكر صاحب المرآة ص 84 و 85 والجدير بالذكر ان هذا التاريخ ، مخالف لما اورده صاحب الاعلام ج 4 ص 262 فى معرض حديثه على تسليم العرائش للاسبان على يد الشيخ ابن المنصور الذهبى الذى كان قتله من أجل هذه الحادثة النكراء على يد محمد بو الليف سنة 1022 هـ

ب) المجـــاهـــدون :

1) ابن راشد هو ابو الحسن على بن موسى بن راشد بن على بن سعيد بن عبد الوهاب بن علال بن القطب ابى عبد السلام ، وهو ابن عم ابن جمعة الشهيد السالف الذكر ، الذى اغتيل ، ولم يتم اختطاط احدى العدوتين من شفشاون ، فشرع ابن راشد فى اختطاط العـــدوة الاخرى ، وبنى قصبتها ، واعتنى بتعميرها ، واهتم بها اهتماما خاصا الى ان توفى رحمه الله سنة 927 هـ وقد قام هذا البطل مقام ابن عمه فيما كان بسبيله من الجهاد ، والاستنفار له ، وجمـــع الجمـــوع ، وتجييش الجيوش ، الى أن اختاره الله لجواره فى التاريخ الآنف الذكر

2) الشاعر محمد القنطرى الشيخ ابو عبد الله محمد بن على ابن قاسم المولود فى حدود الستين وتسعمائة ، وقد وصفه صاحب المرآة ص 232 بالعالم ، الفاضل ، المتفنن ، المتوسع فى فنون الآداب ، الشاعر المجيد ، وزاد قائلا كان حسن المحاضرة ، كثير الحفظ ، كريم النفس ، حسن المعاشرة اشتغل فى بعض أيامه بالتدريس للعلوم بالقصر ، فكان منفردا بالتفسير ، محسنا للفروسية ، يحض على الجهاد ، ويبلى البلاء الحســـن .

وقد أثبت له صاحب المرجع السابق ابياتا من قصيدة قال عنها انها تزيد على سبعين بيتا فى مدح ابى المحاسن ، صاحب زاوية مخفية بفاس ، ومطلعهـــا

الى الامام الاثير ، الطاهر الشيم ابى الجمال بفاس ، يوسف العلم

الـــى ان قـــال

من عند من علمت فيكـم محبته محمد بن على القنطرى السلـــم

ومنهـــا

جاهد الينا فان النفس قد صدات وحث خيلك ، بالاقـــدام والقـــدم

3) البهلولى ابو عبد الله محمد بن يحيى ، الشيـــخ الصالـــح ، المتصوف ، المجاهد ، الشهير كان رحمه الله ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه ، وله فى ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها ، كما ذكر صاحب الاستقصا ومن قصائده فى الحض على الجهاد اللامية التى خاطب بها السلطان أبا عبد الله محمد الشيخ الوطاسى

قـــل للامـــير محمـــد يـــا طلعـــة الهـــلال
لـــويلـــة فى الســـواحـــل مـــن افضـــل الليـــالـــى

ومنها القصيدة التى مطلعهـــا

ظهـــر الرمـــل مـــرادى والعسكـــر يـــا كـــرام
نفـــسى علـــى الجهـــاد حبـــســـت ، والســـــلام

والقصيـــدة التـــى اولهـــا

قم للجهاد رعاك الله ، منتهجـــا نهج الرشاد ، الى الاقوام لو فهموا
من بعد اندلس ، ما زلت محتدما لو كان يمكننى فى الليـــل احتـــزم

والجدير بالذكر ، أن هذا الشيخ رحمه الله كان من اكبر المتطرفين فى الحض على الجهاد والاستنفار اليه ، بل ذهب الى ابعد من التطرف

حينما راى ان من لم يتقلد سيفا من الرجال لا تصح امامته ، وهذا ما يستفاد من القصة المروية عنه بتواتر ، وملخصها انه قدم من احـــدى الغزوات على اثر وفاة زوجته البكارية ، (بنت ابى زكرياء يحيى بن بكار الآتى ذكره) فوجد الناس قد صلوا عليها بجامع القرويين ، وهم يهمون بدفنها فتقدم واعاد الصلاة عليها مع اصحابه ، ولما سئل عن السبب ، اجاب على الفور ، ان من شروط الامام ان يكون ذكرا ، وهذه مفقودة فى صاحبكـــم لان الذى لـــم يتقلد سيفا قـــط فى سبيل الله ، ولـــم يضرب به ولا عرف الحرب كما كان نبينا (ص) ، كيف يعد اماما ذكرا ؟ والله ان امامكم من جملة النساء ، وقد كان هنا يعنى الشيخ غازى بن الشيخ ابى عبد الله محمد ابن غازى الآتى ذكره

وقد توفى الشيخ البهلولى رحمه الله سنة تسعمائة ونيف وعشرين

4) ابن بكار   هو ابو زكرياء يحيى المعروف بالاصغر ، تمييزا له عن بكار الاكبر ، (المعروف بالفضل والصلاح من ايام الشيخ ابى مدين ، دفين تلمسان ، الذى نزل عنده ثلاثة ايام ضيفا بضواحى تازا فى المكان المعروف لحد الآن بأولاد بكار بناحية ابى قلال قبيلة مكناسة موسى بن ابى العافية) وباشارة من الشيخ ابى مدين ، انتقل بكار الجـــد الى جبـــل (بويبلان) بدائرة تاهلة

ومن حفدته صاحب الترجمة الشيخ الصالح الكبير الشأن الورع الزاهد ، صاحب المفاخر الحسان ، ابو زكرياء ، يحيى بن بكار ، الذى كان زيادة على ما ذكر من اكبر الاولياء فقها ومعرفة وتواضعا لله ولعباده، وكان يمد اهل الثغور بالخيل والعدة ، ويبذل نفسه فى صلاح الامة ، على حد تعبير صاحب الدوحة ص 49   كما كان الناس يقصدونه بصدقاتهم من جميع الآفاق ، ثم يفرقها على يديه فى وجه البر ، واكثرها فى الجهاد فى سبيل الله ، وفكاك اسرى المسلمين ، وبقى هذا دابه الى ان توفى رحمه الله فى اوائل العشرة السادسة بعد التسعمائة هـ والجدير بالذكر ان الشيخ بكار هذا ، هو الذى كانت بينه وبين الشيخ البهلولى المصاهـــرة السالفة الذكر ، وما زال عقب هذه العائلة الى الآن بتازا وضواحيها .

كما ان صاحب المرآة ص 169 اشار الى انه كانت توجد بفاس روضـــة تعرف بروضة ابنـــاء بكـــار

5) الورياغلى ابو محمد عبد الله العالم الشهير ، أخذ بالمغرب عن الامامين القورى والعبدوسى ، ثم رحل الى تلمسان للاخذ عن الامام ابن مرزوق وكان بعده ينوى الذهـــاب الى المشرق ، فأخبره ابـــن مرزوق بأن ليس امام الورياغلى مـــن هو اعلم منه ، ثم رجـــع وتولى رياسة المجلس العلمى بفاس وكان الناس لا يرفعون اليه الا المعضلات

واثناء رجوعه من تلمسان ، وجد الاعداء قد استولوا على طنجة ، فلازم الثغور الهبطية لاجل الرباط والجهاد فى سبيل الله تعـــالى ونشر العلـــم والمعـــرفـــة

ومما حدث به الشيخ واضح (ولعلـــه صاحب الضريـــح الشهير بتازا) عن الورياغلى ، وكان من أصحابه أنه قال كان يدرس العلـــم بمدينة قصر كتامة ويقضى ويفتى بها وبسائر البلاد الهبطية ، وكان مـــن عادته ان يشتغل بالتدريس فى فصل الشتاء والربيع ، ويخرج فى الصيف والخريف ، يرابط فى الثغور الهبطية

وقد توفى رحمه الله داخل العشرة الاولى من المائة التاسعة كما فى الدوحة ص 25 وما بعدها

6) ابو عبد الله محمد بن المبارك الشيخ المشار اليه بالولاية الكبرى، والخصوصية الجامعة لعز الدنيا ، ونعيم الآخرة على حد تعبير صاحب الدوحة ص 84 واصله من احواز رباط ماسة ، وكانت له الكلمة العليا بسوس ، حتى انه كان اذا اندلعت فتن بين بعض القبائل ، يبعث لهم بالكف عن القتال فيمتثلون ، ثم انه تجاوز هذا فخصص اياما معلومات فى كل شهر كانت تسمى باسمه ، لا يحمل احد اثناءها سلاحا ولا يجـــرؤ على المشاجرة ، ولا حتى على اخذ الثار ، ولو كان صاحبه مع من قتـــل ابـــاه او اخـــاه .

والى هذا الجندى المجهول ، يرجع الفضل فى تحريض هم السلطانين ابى العباس احمد واخيه ابى عبد الله محمد الشيخ من أجل الوقوف فى وجه الاسبان لما تغلبوا على سواحل تلك الانحاء ، ثم أمرهمـــا بالعدل والجهاد ، الى أن توجت أعمالهما بما يعرفه الجميع عـــن معركة وادى المخازن الشهيرة الذكر   وقد توفى رحمه الله فى صدر العشرة الثالثـــة من القرن العاشر الهجرى ، وقبره ببلاده شهير

7) ابن غازى أبو عبد الله محمد بن أحمد المكناسى العثمانى ، شيخ الجماعة ومفتيها ، وصاحب التآليف الجليلة ، والمصنفات الرائقة ، والمعتبر بحق ، مجاهد العلماء ، وعالم المجاهدين

ولعل الفرق بينه وبين من ذكروا ، أن أولئك كانوا أحرارا ومتطوعين، فى حين أن ابن غازى ذهب الى أصيلا مع الموكب الرسمـــى ، صحبـــة السلطان ابى عبد الله محمد الوطاسى ، للاغارة على البرتغال ، الا أنه كما اتفق على ذلك جميع المؤرخين ، أصيب بمرض منعه من متابعة الجهاد، فحمل الى منزله بمكناس ، حيث وافاه الاجل المحتوم

8) ابن تودة   اثناء الكلام على ترجمة الولى الزاهد الشيخ حمزة ابن عبد الله المراكشى فى دوحة الناشر ص 101 وقعت الاشارة الى القائد المجاهد ، الشاعر الفاضل ، أبى زيد عبد الرحمن ابن تودة الصمدانى ، ومن خلالها يمكن التعرف على أن ابن تودة هذا كان من الملازمين للشيخ ابن حمزة ، وكان فى كل وقت يطلب منه الدعاء عسى الله أن يميته فى باب الجهاد ، ويمن عليه بنعمة الاستشهاد ، كل هذا والشيخ يجيب طلبه ، الى أن قلده مخدومه ولاية الثغور الهبطية ، وكان من أمره ما هو مشهور من الوقائع والغزوات على حد تعبير صاحب المرجع السالف الذكر

9) أبو العباس أحمد بن القاضى الزواوى أحد أنصار الدين والائمة المهتدين ، كان رحمه الله من الفضلاء الاخيار ، والصلحاء الابرار ، مجتهدا بادلا نفسه وماله فى اقامة شعائر الدين ، وغزو أعدائه الكافرين ، وقد قال عنه أبو عبد الله محمد الهبطى السالف الذكر (ما رايت فيمن ادركت

من المشايخ من كان على الجادة وجاء بالتربية النبوية على أصلها المعروف من سيرة الرسول (ص) الا رجلين الشيخ سعيد ابن عبد المنعم فى حاحة ، والشيخ احمد بن القاضى بجبل زواوة) (1) وابن القاضى هذا هو الذى كما تقدم كاتب القائدين التركيين خير الدين باشا وعروج باشا وقال لهما (ان بلادنا بقيت لك ولاخيك أو للذئب) وهو يعنى بالذئب هنا الاسبانيين الذين شرعوا فى تنفيذ الاتفاقية المبرمة بينهم وبين البرتغال ، ووصلت جيوشهم الى شواطىء وهران ، وكادت الجزائر ان تستسلم أمام تلك الغارات النكراء ، لولا بادرة الشيخ الزواوى التى اقبل الترك على اثرها مسرعين ، واستولوا على المغرب الاوسط ، وطردوا منه الاسبان ، وما ذلك الا لحسن ظنه بهم ، وتفانيه فى الجهاد من أجل الدفاع عن حوزة الاسلام والمسلمين

ولئن كانت هذه الحادثة تنفى عن الأتراك صفة الاستعمار للجزائر ، وتضفى عليه حلة الانتداب ، فان السياسة قبحها الله ، ابت الا ان تدفع القائدين التركيين الى التنكر لهذا الشيخ الجليل ، حيث قتل على ايديهما سنة تسعمائة ونيف وعشرين (2)

ج) الاســـــارى

يسجل لنا التاريخ فى هذا البـــاب شخصيتـــين هامتين ، سأكتفـــى بذكرهما ، مع العلم بأن لهما نظائر ورفقاء ، ويكفى الباحث القاء نظرة على كتاب (نتيجة الاجتهاد ، فى المهادنة والجهاد) و (الاكسير فى فكاك الأسير) ليعلم الى اى حد كانت قضية الاسارى تشغل البال ، وتنظم مـــن اجلها السفارات والوفود

وبما اننى احاول ان ابقى على اتصال بعصر ابن يجبش ، فاشير الى ان الشيخ الكوش احد الأسيرين ، قد اجمع كل المؤرخين الذين تحدثوا عنه ،

---

(1) دوحــة النــاشر ص 76

(2) دوحة الناشر ص 93 و 94 وانظر ايضا كتاب فاس عاصمة الادارسة : ص 151 .

حينما ذهب الى مدينة ازمور لحراستها ، وقبل ان يلقى عليه القبض بها ، كان مع جماعة من المجاهدين والفقراء الذين سارعوا لحمايتها ، فهل القى عليه القبض دون هذا العدد من الفقراء أو المجاهدين ؟ بالطبع لا وانما اقتصر المؤرخون على ذكره كأسير ، فى معرض حديثهم عنه كشخصية تمتـــــاز بالديانة والعقل والدهاء

وعلى اى حال فصاحبنا هذا هو ابو عبد الله محمد المعروف بالكوش المراكشى ، وقد انتقل من بلده مراكش الى ازمور ، لما استولى المغاربة على حصن فونتى بسوس سنة 947 هـ ثم فكر البرتغال فى تعزيز صفوفهم بشواطىء النواحى السوسية فأخذوا لهذا السبب مدينة أزمور ، وهنا سارع لحراستها من سارع من المجاهدين ، ومن بينهم صاحب الترجمة ، وصنوه فى العلم والولاية ، ابو محمد عبد الله ابن ساسى الشهير الذكر

وبينما هم يقومون بحراسة المدينة المذكورة فى انتظار وصول مـــدد المغاربة ، اذا بالاعداء يفاجؤونهم بالرجوع الى المدينة ، فأسروا بها مـــن اسروا ، وكان الكوش وابن ساسى من بين الاسرى

ولئن كنا لا نعلم المدة التى قضياها فى الأسر ، فاننا امكن لنا ان نعرف أن اخوانهم المغاربة سعوا فى فكاكهم ، وان افتداءهم كان بألفى وثمانمائة ريال ، كما قال صاحب الاعلام نقلا عن مانويل وحينما أطلق سراح الشيخ الكوش ، الذى كان اسيرا عند امرأة برتغالية ، ناولته كتبا يبدو أنها استاعت من بقائها عندها ، وأن شخصية الأسير بالاضافة الى سلوكه الاسلامـــى الجذاب ، اثرت فى تلك المراة ، فجعلتها ترى هذا الشيخ الوتور ، اهلا لأن تهدى اليه تلك الكمية من الكتب ولما حملها الشيخ ودخل بها الى المغرب ، وجد من بينها كتاب (تنبيــــه الأنـــام) وكان هذا هو السبب فى دخول هذا الكتاب الى المغرب على يد صاحب الترجمة

وقد توفى رحمه الله فى أول صفر سنة 960 هـ ودفن بجبل الزعفران خارج باب عجيسة بمدينة فاس

اما رفيقه فى الاسر والكفاح ، فهو ابو محمد عبد الله بن ساسى البوسبعى ، الذى كان من اكابر مشايخ عصره ، ومن اصحاب الشيخ الغزوانى السالف الذكر ، وكان كما فى ممتع الاسماع ص 71 من اهل الخير والفضل والصلاح ، وكانت له مآثر جمة ، واحوال سنية حسنة ، وقد وقع فى اسر البرتغال ، واطلق سراحه بعد الافتداء السابق الذكر (1) وكانت وفاته ليلة الجمعة 26 شعبان سنة 961 هـ ، اى انه لحق بزميله الكوش فى السنة الموالية لوفاته رحم الله الجميع برحمته الواسعة ، وجزاهم عنا وعن الاسلام والمسلمين بأحسن ما يجازى به المومنين من عباده الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التى كنتم توعدون

---

(1) للنظر فى ترجمة هذين الشيخين يمكن الرجوع الى الاعلام ج 4 ص 156 وممتع الاسماع ص 71 و 86 والدوحة ص 82 والجدير بالذكر أن ابن ساسى هذا ، ليس هو ابن ساسى الحيسوبى الشهير بمدينة آسفى

خاتمة

وبعد فهذا هو كتاب ابن يجبش ، وتلك هى تائيته فى التحريض على الجهاد ، واولئك هم رفقاؤه فى الكفاح ، وقد اعتمدت فيما نقلت ، على النسخة الخطية ، الموجودة بخزانة الجامع الأعظم بتازا ، وهى من تحبيس السلطان سيدى محمد ابن عبد الله طيب الله مثواه وهذه النسخة هى التى تعتبر اصلا لما هو مصور بالخزانة العامة بالرباط ، وقد تعرضت بعض اطرافها للارضة ، فاصبح من العسير فيها قراءة بعض الكلمات ، وهى ما يجد القارىء امكنتها بيضاء ، مع التعليق على ذلك البياض فى كل مكان

ومع كتاب الجهاد ، رسالة (ارشاد المسافر للربح الوافر) ضمن مجموع ، وقد اكتفيت منها بنقل المقدمة فقط ، اما الباقى فقد دفعنى الى العدول عنه ما اشرت اليه فيما سبق

وبالخزانة المذكورة ، وجدت منفرجة ابن يجبش ضمن تقييد لصاحبه ابى العباس احمد بن على ، (بدون نسب) وعلى هذه النسخة اعتمدت ، وفيها ايضا عثرت على القطعة الشعرية لأبى عبد الله محمد بن الطاهر الهوارى السالفة الذكر ، وكذلك القطعة المتعلقة بعنزا الجامع الاعظم

واذا آن لى ان أفترق مع ابن يجبش ، فاننى ارى أن الانصاف يفرض على ، ان اشير الى عدة ملاحظات ، أعلم مسبقا انها ستلفت النظر ، ومن الممكن ان يؤول اغفال الكلام عليها بعدة ملاحظات من طرف الغير ،

وهل من المنطق ان أغض الطرف عنها عن علم ، وأتركها للناس ؟ الجواب بالطبع لا ، ولهذا وجب على أن اسجل على ابن يجبش المآخذ التالية

أ) ــ ارى احيانا ، أن الفكرة الواحدة قد تتكرر عنده أكثر من مرة ، وذلك مثل قوله (كل كلام يبرز ، الا وعليه كسوة القلب الذى منه برز) فان نفس هذا التعبير يعود اليه مرة أخرى فيصوغه شعرا ، وذلك فى معرض ثنائه على كتاب السنوسى حيث قال

اذ مـــا يكـــون من القلـــوب بروزه فالقلب يقبـــل ما يقـــول السيـــد

وهى فكرة سبق ان اشار فى مستهل كتابه الى انها من كلام بعض العارفين ، فى حين انه فى الشعر يسوقها بصيغة التبنى ، وهنا يكمن القيل والقـــال

ب) ــ كما أراه يعمد الى قول الله تعالى (سارعوا الى مغفرة من ربكم وجنات) فيصوغ من وحيها بيتين ، وان اختلفا شيئا ما فى اللفظ ، فهما متفقان معانى المعنى ، وذلك مثل قوله

وسارع الى سكنى الجنان لخاطب وهى تنادى يا خليلى قـــد طبنـــا

وقولـــــــه

فسارع اليها واغتنم طيـــب وصلها فكيف لنفس المرء عن وصلها صبر ؟

ومما يتبع هذا فى الرائية عبارة (فلو تفلت فى البحر طاب به البحر) فهى مأخوذة بالحرف من الأبيات التى ساقها عبد الواحد فى قصة أم هاشم ، فى معرض التحريض على الجهاد حيث قـــال

ولو تفلت فى البحر شهد رضا بها لطاب لاهل البر شرب من البحر !

وعلى الرغم من ان صياغة ابن يجبش لهذه المعنى اجود ، فان البادىء اكرم كما يقال ، وما دام القصد عندهما معا هو التحريض علـــى الجهاد ، الا وتجب المعاملة بلطف ، والا فأين اجر العاملين ؟

أما البيتان السابقان ، فقد اقتبست معناهما من القرآن ، واستعملت هى الاخرى فى غرض شريف ، وقد تكون الوطأة هنا اخف ، لان القرآن ليس ملكا لاحد ، ولو تتبعنا ما الف بعد نزوله من الكتب ، واعتبرنا الاقتباس منه ، من الهفوات التى يحاسب عليها الكتاب والشعراء ، لوجدنا هفوات الغير تعد بالأطنان ، ويكفى المرء كما قيل ان تعد معايبه

ج) — ويدخل فيما سبق من التكرار قوله

وتحظى بعز لا يضام ، وتجتنى ثمار الهدى فى كل حين ولحظة

فان بينه وبين البيت الآتى تشابها فى اللفظ والمعنى

وتحظى بما ترجوه منا ، وترتقى لاعلى مقام ، لا يضام ولا يفنى

وكذلك قوله (جرى على لسانى ، ما كان مختزنا فى جنانى) مع قوله فى جهة اخرى واراد ان يترجم لسانى ، عما اضمره جنانى)
وقوله فى معرض الدعاء للسلطان

وحطه بفضل منك ، من كل كائد وسلمه طول الدهر من كل نكبة
وسخر له ، وافتح له ، ما أراده ومكن له فى الارض ، أعظم مكنة

فقد عاد فى الخاتمة ففصله نثرا حيث قال (اللهم سخر له العباد ، وافتح له ما اراد من البلاد) الى ان قال (وحطه من كيد كل كائد ، وكل باغ وحاسد) وعلى اى حال ، فهذه تعابير شخصية ولكل واحد الحق فى ان يفعل بممتلكاته ما يشاء ، سيما وان ابن يجبش نفسه قال فيما مهد به للتائية (واراد ان يترجم لسانى عما اضمره جنانى ، بنظم قصيدة جامعة لتلك المعانى) وبهذه الاشارة اعتقد ان كل نزاع بيننا وبينه كان قائما حول التكرار قد زال ولم يبق فيما بعد الا بعض الفلتات النحوية وردت فى التائية بصفة خاصة وازاءها لم املك الا التنبيه عليها فى أمكنتها المناسبة

اما الملاحظة الآتية ، فهى فى الحقيقة استدراك ، ولا اقول تصحيح

خطأ ، لأن الامر يتعلق بوضع ابن يجبش فى كتاب النبوغ المغربى ص 219 وهذا بالطبع من أهم ما انتج الاستاذ عبد الله كنون ، أو هو على الأصح ، من أهم ما انتجه الأدباء المغاربة فى هذا الباب ، ولهذا كان لزاما على أن أرد المياه الى مجراها باسلوب يروق الأموات ، ولا يقلق الأحياء وبيان ذلك اننى اعتقد باديءى بدء أن الاستاذ السيد كنون ، اعتمد فى ترجمة ابن يجبش على ما جاء عنه فى نيل الابتهاج ص 334 فسماه ابن بحبش بالحاء ، ثم أرخ لوفاته بسنـــة 820 هـ عوضا عن 920 هـ واهميـــة هذه الملاحظة ترجع الى انها جعلت ابن يجبش يتقدم بقـــرن ، ويأخذ مكانا (متواضعا) فى النبوغ المغربى مع ادباء بنى مرين بدلا من بنى وطاس ، وهى التى ادت بالبعض الى الاعتقاد بان ما صدر عن ابن يجبش فى الجهاد ، كان من وحى ما نزل بالأندلس من نكبات ، وقد يجد القارىء فيما تقدم لابن يجبش ما يؤكد مشاهدته لأصيلا بعد احتلالها من طرف البرتغال هذا بالاضافة الى عدة ادلة اخرى ، تفيد كلهـــا انه اخذ مـــن القرن العاشر عقدين ، وذلك مثل معاصرته للامام السنوسى ، وابراهيم التازى ، والامام الهبطى ، والشريف المكناسى المعروف بالشبيه

وهل معنى ما سبق ان كتاب (أضواء على ابن يجبش التازى) سالم هو الآخر من الأخطاء أو بعيد عن الملاحظات ؟ كلا ومعاذ الله ، اذ لو كان ذلك كذلك ، لا نتهى الأمر ، وزال الأشكال وصدق الله العظيم حيث قال (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) ولله در بعضهم حيث قال (ما الف احد كتابا الا وقال فى غده ، لو قدمت أو أخرت) وهذا ما يمكن ان يقال ، أو اقوله بنفسى غدا أو بعد عد فى هذا الكتاب اما الآن فأبادر الى الاعتراف بان أول ما يلاحظ على فيه

أ) اغفال تاريخ الولادة ، مع عدم تفصيل الحياة الأولية لابن يجبش ، وهو اغفال راجع الى قلة المراجع فى الموضوع ، هذا مع العلم بان لدولة بنى وطاس دخلا هنا ، وكما سبقت الاشارة الى ذلك ، فان الكتب المؤلفة فى هذه الفترة أو حولها ، تعد على رؤوس الأصابع ، وحتى مع عدم وجود

هذا الاعتبار ، فان تاريخ الولادة كان الى عهد غير بعيد يعتبر غير ذى بال ، وكدليل على ما ذكرت فقد لا نعدم الآن من مؤرخينا من يختلف فى تاريخ ولادة أو وفاة الملع الشخصيات المعاصرة ، ولنا فى تاريخ وفاة شاعر الحمراء خير مثال (1)

ولا أخفى ، ان الفرار من هذه المناقشة ، هو الذى أدى بى الى اختيار اسم (أضواء على ابن يجبش التازى) وكل ما اتمنى هو ان تكون اشعة هذه الأضواء كفيلة بهداية السارين فى غياهب ذلك الزمن المدلهم العقيـم

ب) كما أن هناك ، من يمكن ان يلاحظ فى موقفى من تصوف ابن يجبش بعض الانسياق معه ، انسياقا يجعل القارىء يظن أحيانا اننى كدت ان اتخذ منه شيخا لى فى الموضوع ، وان تأكد هذا فليعلم القارىء ان مرده الى الأيام الاولى من طفولتى ، حيث كنت اجد نفسى عند مطلع كل فجر ، وغروب الشمس ، فى روضة الشيخ ابى محمد صالح دفين رباط اسفى من أجل تلاوة القرآن ، وقراءة ما تيسر من دلائل الخيرات ، وحتى الكتاب الذى كنت أقضى فيه سحابة يومى — صحبة الدكتـور بنشريفـة أمد الله فى عمره — لم يكن بعيدا عن ضريح الشيخ الا بعدة اشبار ولعل هذا وحده كان كفيلا بأن يغرس فى نفسى حب التصوف والمؤانسة برجاله ، هذا بالاضافة الى اعتبارات ، لها علاقة بالشيخين البوخصيبى (2) وكدار (3) وارتباطمتين بتقلبى ولله الحمد ، فى ثلاثة رباطات من أهم رباطات

---

(1) صاحب دليل مؤرخ المغرب الاقصى ج 2 ص 396 ذكر انه توفى سنة 1958 فى حين أن صاحب الغربال ذكر انه توفى فى 23 شتنبر 1953

(2) هو أبو زكرياء يحيى بن علال بن موسى بن محمد بن غانم البوخصيبى القرشى العمرى المالكى من أصحاب الشيخ التباع ، وجده غانم ، كان من أصحاب الشيخ أبى محمد صالح صاحب رباط أسفى وهذا هو الذى كناه بأبى خصيب ، مات رحمه الله فى أواسط العشرة الخامسة من القرن العاشر وأوصى بأن يدفن بباب الفتوح بفاس ودفن على مقربة من روضة الشيخ أبى الحسن على بن حرزهم

(3) هو أبو عبد الله محمد الملقب بكدار ، بن أبى زكرياء البوخصيبى السابق الذكر كان كبير الشأن جليل القدر ، مقيما لرسوم الشريعة متحققا بأسرار الحقيقة حتى قيل فيه : (الفقير هو سيدى كدار ، الذى أقام السنة فى أزغار) وتوفى رحمه الله يوم الاحد 6 ربيع الاول عام 1024 وبنيت عليه قبة عظيمة قرب خلوة أبيه (وللزيادة من المعلومات حول هاتين الترجمتين أنظر ممتع الاسماع ومرآة المحاسن ، والاعلام فيمن حل بمراكش واغمات من الاعلام ، وابتهاج القلوب ، بخبر الشيخ أبى المحاسن) الخ .

الشمال الافريقى على الاطلاق (1)

ج) وهناك من يرى فى باب الموازنات اننى قسوت على كل من ابن عاصم ولسان الدين ابن الخطيب ، وان تأكدت هذه القساوة ، فليعلم الجميع انها من باب

فقسا ليزد جروا ، ومن يك حازما فليقس احيانا على من يرحم

وعلى العكس من ذلك ابن يجبش الذى كنت اعامله بحنان ، وما ذلك الا لانه زيادة على ثروته العلمية ، (المتواضعة) كان من كبار الزاهدين والمجاهدين ، اما اصحاب الزهد فى الجهاد ، وخصوصا حينما يجب الجهاد ، فقد قال فيهم الامام على كلمته ، فليعد اليها من شاء ، وليلق بعد ذلك نظرة على فردوس الاسلام المفقود ، واذ ذاك سيعلم من المخطىء منا من المصيب ؟

وختاما ، أرجو الله تعالى أن يعم الجميع برحمته ، ويحف المقل والمكثر بعنايته ، وأن يجعل هذا العمل المتواضع خالصا لوجهه ، سيما وانا ما قصدت بما كتبت الا العمل على احياء تراث احد أوليائه الصالحين ، وعباده المخلصين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح ، الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل

أ البوخصيبى

---

(1) رباط تيط حيث الاصل بضواحيه ، ورباط آسفى حيث الولادة والنشأة ورباط تازا حيث العمل بها الى غاية 30 — 9 — 1973

آراء

قبل أن اعرض كتاب (اضواء على ابن يجبش التازى) للطبع ، احرزت بواسطته على جائزة المغرب فى الاداب ، من وزارة الثقافة والاوقاف والشؤون الاسلامية ، لسنة 1972 م وذلك قبل ان الحق به الفصل الخاص بالمجاهدين والمعاصرين لابن يجبش ، وعددهم يقرب مـــن عشرين مجاهـــدا

وبعد توزيع القدر المحدود من الكتاب ، نشرت جريدة الميثاق ، على لسان عالمها الجليل ، واستاذها المفضل ، السيد عبد الله كنون ، فى العدد الصادر فى فاتح صفر 1393 الموافق 6 مارس 1973 فى ركن المكتبة المغربية مايــلى

(اضواء على ابن يجبش التـــازى)

(هذه ترجمة محررة لحياة هذا العالم الاديب ، الصوفى الجليل ، الذى يعد من مفاخر مدينة تازة ، بل المغرب كتبها بلديه (1) ، الاستاذ الباحث السيد ابوبكر بن محمد البوخصيبى ، فوفاه حقه ، وقضى له ما فى عنق مواطنيه من دين التعريف به ، والتنويه بآثاره الباقية

وقد استخرج الاستاذ البوخصيبى هذه الترجمة من العدم ، وتتبع

(1) عرفت تازا كموظف بها من فاتح اكتوبر سنة 1966 م ، الى متم شتنبر 1973 م

عناصرها من المصادر الشحيحة ، والوثائق التى انما تحصل لمن بذل غاية مجهوده فى التنقيب والاستقصاء ، وهكذا حقق ان اسم هذه الشخصية الكبيرة هو ابن يجبش ، بياء ، فجيم مشددة مفتوحة ، فباء موحدة ساكنة ، فى حين كان أكثر ما يعرف بيحبش ، بياء ، فحاء مهملة فباء

وقد اشتملت هذه الترجمة بعد المقدمات ، على ابن يجبش الصوفى ، فالشاعر ، فالناثر ، والقيمة الادبية لآثاره ، وغير ذلك من الموضوعات الهامـــــة

والكتاب مطبوع بالآلة الكاتبة المكررة ، وهو حرى بالنشر المطبعى الواســـع)

وفيما يلى رأى آخر للاستاذ السيد ادريس بن الاشهب أحد أبناء تـــازة البـــررة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيئين وعلى آله واصحابه الهداة المهتدين وعلى جميع من نهج نهجهم وتأدب بآدابهم فكان من الفائزين وبعـــد

فقد عمل أخونا وصديقنا الاستاذ والمفتش للمدارس الابتدائية بمدينة تازة السيد ابو بكر البوخصيبى على انتاج كتاب فى ترجمة احد علماء هذه المدينة ومصلح من مصلحيها وولى من أوليائها على نمط يتناجى والنظام الحديث غير سائر على انماط المناهج القديمة وهو قد جمع من كل بستان زهرة وكأنما اراد بذلك الصنع ان يزيل الحدود الزمنية فى دولة الادب وترجمة الرجال وذلك عمل مبتكر محمود من الناحية الثقافية الى حـــد بعيـــد

ولكن فى الوقت نفسه شاق مجهد على الذين قدر لهم ترجمة احـــد

العلماء امثال السيد ابى عبد الله بن الحاج عبد الرحيم بن يجبش التازى الذين لهم ادب منبسط ممتد ارجاؤه اضف الى ذلك تفنن مواضعه من شعر وخطابة وتاريخ وقد عانى المؤلف المشاق الكثيرة فى جمع النماذج من مظانها الشتيتة ولكنه عناء عذب المذاق لأنه بذلك ازال الصعوبة الاولى التى يصادفها الاخوان الباحثون الذين يأتون بعده ووفر من اوقاتهم الثمينة ما هم فى مسيس الحاجة الى انفاقها فى جوانب رسالتهم السامية الشاقة

وانه لم يقف فى كثير من الاحوال عند الحدود التى رسمها لنفسه فقد اضاف اليها كثيرا من الامور التى وجدها ضرورية للدرس الكامل مثل تراجم بعض الشخصيات ذات النماذج المماثلة لانتاج ابن يجبش وقد بذل الجهد المستطاع فى تحليل القطع المختارة وأوفى التعليق عليها بأسلوب واضح سهل المنال على القارىء محاولا بهذا بعث روح النقد الادبى الحر الذى يتسم به عصرنا واثارة بواعث التذوق الادبى الذى هو غاية الدراسة الادبية وانى لأرجو الله ان ينفع بهذا الكتاب الذى دفعه اليه الواجب كما اشكره على ما قام به من واجب نحو هذه المدينة انه على ما يشاء قدير وبالاجابة جدير وهو حسبنا ونعم الوكيل

اخوكم ادريس بن عبد القادر ابن الاشهب

للذكـــرى والتاريـــخ :

فيما يلى رسالة ، سبق لى ان وجهتها الى احد الاصدقاء بمدينة تازا ، تقديرا له على ما كنت اجد فيه من عطف وحنو ، ايام كنت اقصده فى كل زمان ومكان ، فلم يتافف ، ولم يبخل على بما يملك من مساعدات ادبية فاليه والى مآت الاصدقاء من ابناء هذه المدينة الفيحاء ، اوجه الرسالة الآتيـــة من مدينة سطــــات

الى الامام ، ابن الامـــام الخيـــر   وقيـــــم الخـــزانــــــة المظفـــر
الى الذى لـــولاه مـــا تحـــركت   رغم النوى ، قريحتـــى وفكـــرى
اليـــك ابعث الســـلام ، وانـــا   وانت مـــن ثوب التملـــق عـــرى
يـــا من اذا رايتـــه ، رايت فـــى   اخلاقه الغـــر ، صفـــات المنبـــر
ومن اذا ذكرته ، ذكـــرت فـــى   محـــرابـــه لآلئـــى ، وكـــوثـــرى
يا ليتنـــى ، رغم البعاد ، ليتنـــى   ارشفهـــا ، وان تكـــن من حجـــر
انـــا الذى اعـــرف مـــا تكنـــه   تلك الرحاب ، للـــورى من خبر
لو نطقت افـــواهـــا بمـــا لهـــا   من حكم ، ومـــا حوت من اثـــر
لكسفت شمس الضحى، وانطمست   مـــن الحيـــاء نيـــرات القمـــــر

* * *

يـــا مسرح العبـــاد فى ايـــامـــه   وموطـــن التصـــوف المعتبـــر
كم هـــام فى ارجائـــه مـــن زاهد   عدل ، وكم طاف به من عمز ؟؟
وكم (بعيسى) الحلقات ازدحمت   رحابها ، قبل ازدحام (الازهـــر) ؟
كم قـــارىء ومقـــرىء مضى بـــه   وكـــم وكـــم من عالـــم مقتدر ؟ ؟
وكـــم برى (ابن برى) فى انحائه   مـــن قلم ، وكم حـــوى من درر ؟؟
لسانـــه الـــرطب العليـــل زاده   وقوة العلـــم ، التى لـــم تقهـــر
و (ابن فتـــوح) ، اذ بكى كانه   ممـــا به ، يبكـــى فتـــاة العمـــر
كانـــه ثكلـــى تئـــن ، او حمـــا   مـــة ، تنوح وحدهـــا فى السحـــر
قـــد ذهبت بلبـــه ارض الحجـــا   ز ، وانتشى بـــوصف ذاك المنظر

فتـــارة بطيبـــة يشـــدو ، وطـــو   را بخـــريـــر زمـــزم المنهمـــــر
وان تسـل عن الجهاد ، لا تسل   الا هنــــا ، عن الجهـــاد الاكبـــر
منها (ابن يجبش) امتطى فرسه   لمـــا مشى خلف غبـــار العسكـــر
الى اصيلـــة التـــى ما عـــرفت   من خصمهـــا غير صنـــوف الكدر
حيث الدخيـــل ، البرتغال واقف   وامـــة الاســــلام فـــى تقهقـــر
وحولهـــا غرناطة ، تبكى القصـــو   ر الشـــامخـــات ، وخرير الانهر
تبكـــى على المجـــد التليد ، وعلى   ايـــامهـــا الغـــر بدمـــع احمـــر
وشاطىء البحـــر المحيـــط حولهـــا   معـــرض جميعـــه للخـــطـــــر
من اجل هذا ، (الوازعى) و (ابن بكا   ر) ، ضحيا بزهـــرات العمـــــر
وجمعـــا كـــل نفيـــس للجهـــا   د ، من صنوف المسجـــد المجوهر

* * *

يا مـــن يهيـــم قلبـــه بالعلمـــا   ء ، الاوفيـــاء ، الصلحـــاء المخبر
عـــرج علـــى اضرحـــة المجد بتا   زا ، ثـــم قف بأرضها ، واعتبـــر
واقـــرا على اصحابهـــا الف سلا   م ، من حبيب مغـــرم بالسهـــر
يبيت يشتكـــى الهـــوى ، كانـــه   من الهوى عـــن اهله فـــى سفر
واقبـــل تحيتـــى ، ولا تبخل على   العبد الضعيف بالدعـــاء المثمـــر
فـــاننـــى بـــلا دعـــاء مفـــلـــس   وانـــت اهـــل للـــدعـــاء النيـــر
لا سيمـــا ، ان كـــان من فم الاما   م ، وهو فى مسجـــده المـــوقـــر
وهو حديث العهـــد بالقبر الشر   يف ، والطواف ، وبلثـــم الحجـــر
ثـــم الصـــلاة والســـلام دائمـــا   على الحبيب ، الطاهـــر المطهـــر
محمـــد ، سيد خلق الله ، نبـــرا   س الائمـــة الكبـــــار الاثـــــر
مـــا ذكر الله امـــام ، واقشعـــر   جلـــده مـــن هول يـــوم المحشـــر

الحمد لله وحده

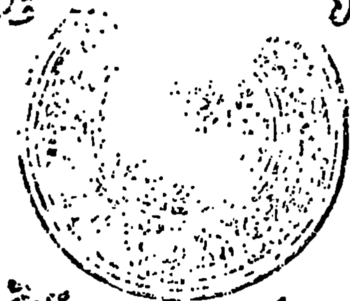
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم

كتابنا هذا أعلا الله قدره وأطلع في سماء المعالي شمسه المنيرة وبدره يتشفع بيد ماسكه السيد
المدين من جماعة الأولاد الصالح المنتمي به سيدي محمد بن الحسن وهو ممن انتفع الله به ويعلم
منه أننا بحول الله وقوته وشامل يمنه ومنته جددنا له على حكم مولانا الجد المقدس بالله
المقدس بالله أكرمنا الحسن قدس الله روحه وأبقى الدين في يد السيد محمد بن السيد الشريف بما تضمنه ظهيره
الذي بيده من التوقير له والاحترام والحمل على كاهل الحرمة والإكرام والفعل الجميل
المستدام فلا يحمل في قلبيه في ذاته عادة ولا يحكم في جانبه تقصير ولا زيادة تجديدا تاما
شاملا لما وقف عليه من عمالنا وولاتنا أن يعمل بمقتضاه ويقف عنده ولا يتعداه والسلام
أمر المعتمد بالله تعالى في سابع عشر شعبان الأبرك عام 1291

الحمد لله وحده

خدامنا أهل الشبيه بوزيان وفقكم الله وسلام عليكم ورحمة الله
تعالى وبركاته وبعد فحامله من جماعة سيدي محمد بن الكبير نفع الله به
أدعى أن جدنا مولانا إسماعيل قدس الله روحه حبس على زاويته
دار ... على جزاء وأرضهم غرباء وقد انقضى أمر الجزاء وأرادوا
ردها عليهم فإن كان الأمر كذلك فردوا عليهم كما كانت وابن جلبات
المتوفى ... على زاويتهم كما كانت ... المذكورين الكمال
ولا بد والسلام في 27 شوال المبارك عام 1244

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وآله



يعلم من كتابنا هذا [illegible] الظاهر [illegible] الأنوار [illegible] أسماه الله وأعز
أمره وجعل في الصالحات كسبه وذخره أننا جددنا بحول الله وقوته وشامل
يمنه ومنته حكم ما بيد حامله المرابط الخير السيد الطريفي بن الفقيه الناصر
حبيب الولي الصالح المتبرك به حيا وميتا سيدي [illegible] بن [illegible]
[illegible] نفع الله ببركاته على حكم ما بيده من [illegible]
وكتائب أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم في دار السلام وأبقيناه على ما عهد
له ولأسلافه من التوقير والاحترام والحمل على كاهل المبرة والإكرام والرعي
الجميل المستدام وزدناه [illegible] وأبقيناه [illegible]
على [illegible] بجبل المذكور وزاويته [illegible] منها وحوزها [illegible]
[illegible]
[illegible] والواقف على [illegible] العمال
[illegible] والسلام
[illegible] عام ١٣٢٠

ظهير الجيلالي المعروف بابي حمارة

الفهرس العام

الفهرس المفصل

فهرس المصادر والمراجع

1) احمد بن خالد الناصرى

الاستقصا ، لاخبار دول المغرب الاقصى

2) محمـــد المهدى الفاسى

ممتع الاسماع ، فى مناقب الجزولى والتباع ، وما لهما من الاتباع

3) محمد العربى بن الشيخ أبى المحاسن الفاسى

مرآة المحاسن ، من أخبار الشيخ أبى المحاسن

4) أحمد الغبرينى أبو العباس

عنوان الدراية ، فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية

5) عبـــد الرحمان بن خلدون

التعريف بابن خلدون ، ورحلته غربا وشرقا (تحقيق محمد بن تاويت الطنجى)

6) محمد بن أحمد الحضيكى

مناقــب الحضيكــى

7) كنون عبد الله الحسنى (معاصر)

— النبوغ المغربى فى الادب العربى

— أدب الفقهـــاء

8) المقرى أحمد بن محمد التلمسانى

— نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيـــب

— أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض

9) احمد بابا الســـودانى

نيل الابتهاج ، بتطريز الديبـــاج

10) ابـــن فرحـــون

الديباج المذهب ، فى معرفة أعيان المذهب

11) عباس بن ابراهيم المراكشى

الاعلام بمن حل مراكش واغمات من الاعلام

12) ابن عسكر محمد بن على الحسنى

دوحة الناشر ، لماحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر .

13) ابن سودة المرى عبد السلام بن عبد القادر (معاصر)

دليـــل مؤرخ المغرب الاقصى (جـــزآن)

14) الفاسي عبد الحفيظ
الانتصار ، بالواحد القهار ، في ابطال نقض أبي جندار
15) الكتاني عبد الحي
التراتيب الادارية (جزآن)
16) الماجري احمد بن ابراهيم
المنهاج الواضح ، في تحقيق كرامات الشيخ ابي محمد صالح
17) عبد الواحد المراكشي
المعجب ، في تلخيص اخبار المغرب
18) محمد الفاسي
ابو العباس الجراوي ، شاعر الخلافة الموحدية
19) محمد عبده
شرح نهج البلاغة
20) احمد امين :
قصة الادب في العالم
21) ابو بكر بن العربي
أحكام القرآن
22) عبد العزيز عبد الله
الطب والاطباء بالمغرب
23) عبد الله عنان
تراجم اسلامية شرقية واندلسية
24) يوسف بن اسماعيل النبهاني
شواهد الحق ، في الاستغاثة بسيد الخلق
25) رضى الدين ابو نصر الطبرسي
مكارم الاخلاق
26) زكي مبارك
الموازنة بين الشعراء
27) محمد حجي
الزاوية الدلائية
28) محمد محيي الدين المشرفي
افريقيا الشمالية في العصر القديم
29) الحسن بن مسعود اليوسي
المحاضرات (مخطوط)
30) الصومعي عبد الرحمان
التشوف الصغير (مخطوط)
31) احمد البويعقوبي الملوي
مناسك الحج (مخطوط)
32) احمد بن منصور العامري
همزية في مناسك الحج (مخطوطة)
33) احمد بن علي ، ابو العباس
تقييد مخطوط
34) كناشة الشيخ زروق (مكروفيلم)
35) مجلة الثقافة المغربية عدد يناير 1942
36) مجلة دعوة الحق العدد الاول السنة الثانية 1958

تــم طبع هذا الكتاب بتاريخ
16 جمــادى الثانيــة 1396
موافــق 15 يونيــــه 1976
بمطبعــة النجــاح الجديــدة
الدار البيضاء

قريبا سيصدر للمؤلف كتاب :

خبايا وأحاديث

ويحتـوى عـلى :

1) **الخبايا ، وتتناول تاريخا موجزا للمدن الآتيــة :**

اسفى ــ تازة ــ سطات ــ الصويرة ــ اغمات ــ توات ــ فاس من خلال كناشة الشيخ زروق .

2) **الاحاديــث ، ومن مواضيعهــا :**

- الشيخ زروق
- الشيخ عبد الرحمان المجذوب
- الامام ابن حرزهم
- محمد بن ابراهيم فى مصاف الشعراء الخ .

اشكر ادارة شركة

ريشبوند

التى أعانتنى على طبع هذا الكتاب ، اذ لولا بادرتها الطيبة لما عرف هذا الكتاب طريقه نحو الظهور

المؤلف

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء